سور الصين الجديد

د. عبد الحميد ابراهيم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ١ —

حينما كنت صغيراً قرأت قصة لكامل الكيلانى ، عن أربعة إخوة صينيين ، يتشابهون فى الشكل تماماً ، فلا يستطيع أحد أن يفرق بينهم ، ولكنهم مع ذلك التشابه الشديد كان كل واحد منهم يملك خاصية معينة ، فالأول يستطيع أن يبتلع البحر فى فمه ، والثانى يستطيع أن يطيل من ساقيه إلى أقصى درجة يريد ، والثالث رقبته من حديد لا يؤثر فيها حتى السيف ، والرابع لا تحرقه النار .

وكان الأول يخرج كل صباح يبتلع البحر ، حتى يصطاد الأسماك ، ثم يعيده من جديد ، وحدث ذات يوم أن طفلاً صغيراً قد ألح لكى يخرج معه ويصطاد ، ولكن الطفل بهرته أصداف البحر ، فلم يستجب لنداء الصينى وهو يشير إليه بالخروج ، حتى اضطر إلى أن يترك البحر عليه ، فمات غرقاً ، ورفع الأمر إلى الحاكم ، فأمر بأن يلقى الصينى فى البحر ، لكى يموت أيضاً غرقاً . لكن الصينى يطلب أن يودع أمه ، ويذهب إلى البيت ، ويرسل أخاه الذى يستطيع أن يطيل من ساقيه إلى أقصى ما يريد ، وينجو الأخ من الغرق ، فيأمر الحاكم بضرب رقبته ، فيرسل أخاه الثالث ، فأمر بحرقه بالنار فيرسل أخاه الرابع ، والحاكم لا يستطيع أن يفرق بينهم ، وظن أن الصينى صاحب معجزات وخوارق ، فعفا عنه وأكرمه .

قرأت هذة القصة وأنا صغير ، فشدنى هذا التفانى من الإخوة وهذا الجو الخارق الأسطورى ، ولم أفهم منها مغزى وراء ذلك .

— ٢ —

كانوا خمسة من الصينيين ، طلبة بقسم اللغة العربية بجامعة صنعاء يسيرون معاً ، ويجلسون معاً ، ويتحدثون بلغة متشابهة ، كانوا قد اتخذوا أسماء عربية هى : أحمد وياسين ومروان وهشام وصدقى ، كنت أظن أن تشابههم الشديد ، بسبب ظروف الغربة التى يعيشونها معاً ، وبسبب أعمار الشباب المتقاربة ، وكنت أظن أن أسماءهم العربية قد اتخذوها مجاملة لبلد عربى يعيشون على أرضه ، وأنهم سينسونها مجرد أن يعودوا إلى بلادهم .

ونسيت الأمر كلية ، ولم يبق منه فى ذاكرتى سوى حماسهم الشديد ، ووميضات عيونهم اللامعة .

— ٣ —

وحين سافرت إلى الصين فى يونيه سنة ١٩٨٧ ، بدعوة من معهد الدراسات العربية بشانغهاى ،

أصبح الخمسة هم كل أعضاء المعهد ، كانوا أسرة واحدة ، العميد والأساتذة والعاملين . كل منهم يتحدث عن معهده وعمله ، كل منهم يتحدث عن الثقافة العربية ، ويتحمس لها وكأنها ثقافته ، يتحدثون عن الصعاب التى يلاقونها ، وعن التجاهل من البلاد العربية ، دون مرارة ، فقط هى مجرد أشياء عابرة سوف يتخطونها ، فقط يطلبون منّا يد العون ، وأن نتحمس مثل حماستهم لم يحدثنى أحد عن نفسه ، ولا عن منفعة شخصية ، ولم أجد فى نظرات أحدهم أو اشارته ، ضيقاً بزميل ، أو تثبيطاً من همة .

والتقيت هناك بطلبتى الصينيين ، ووجدت اسماءهم العربية هى هى لم تتغير ، الجميع يعرفها ويرددها ، ووجدت أنها لم تكن وقتية من باب المجاملة ، بل هم يتحمسون لها وكأنها نياشين فوق صدورهم ، واطلعت على كتاباتهم ومترجماتهم ، وأحسست بروح جديدة ، لم أعهدها عند الاستشراق الأوربى . كان المستشرقون الأوروبيون ينظرون إلينا بروح متعالية ، وكانوا — أو بعضهم على الأقل — يجردون ثقافتنا من أصالتها ، ويحاولون أن يلتمسوا جذورها فى ثقافتهم . لقد صحب الاستشراق الأوربى خطوات الاستعمار الأولى ، فلم يسلم من أغراضه ، أما الإخوة الصينيون فيلتقون معنا فى ظروف متشابهة ، يحاولون أن يتفهموا ثقافتنا ، يحترموننا يسلمون من الاغراض الاستعمارية ، يتحمسون لقضية أولى ، هى قضية الثقافة وعلاقات التبادل بين الشعوب المختلفة .

— ٤ —

وشاهدنا فى شانغهاى أوبرا صينية هى « مطاردة الأسماك » ، هى أوبرا من التراث الشعبى المنتشر فى جنوب الصين ، كل أعضائها من الفتيات ، وإن كنّ يتقمصن أدواراً مختلفة ، للرجل والعجوز والجندى وغيره ، كنّ يحسنّ الأداء ، ويقلدن الصوت تماماً ، وكان الجمهور يقاطعهن بالتصفيق ، فى المواقف التى تقلد فيها صوت الفتى تماماً ، كان الاداء الصوتى هو البطل فى تلك الأوبرا ، الملابس شعبية ، والغناء شعبى ، وكذلك الديكور وغيره .

هى عن شاب يحب قريبته ، ابنة الوزير ، ويخطبها من أبيها ، ولكنه يرفض حتى يحصل على أكبر شهادة علمية فى البلد ، ويذهب الفتى كل يوم إلى البحر ليطالع دروسه ، وهناك تحبه سمكة من بنات البحر ، وتتنكر فى هيئة ابنة الوزير ، وتلتقى به ، ويظنها ابنة الوزير ، ويراها الوزير ذات يوم ، فيظنها ابنته ، ويأمر باحضارهما وعقابهما ، وتدخل ابنة الوزير الحقيقية ، فيندهش الأب ، ولا يعرف أيهما ابنته ، وكذلك الأم وخدام القصر لا يعرفون ، ويناجى الأب ربه بأنه لم يقترف شراً ، أو يظلم أحداً ، حتى يعاقبه بهذه الحيرة .

ويأمر الوزير باحضار القاضى ، وكان قاضيا مشهوراً بالذكاء ، فتخشى الفتاة أن يفتضح أمرها وتذهب حزينة إلى عالم الأسماك . ولكن السلحفاة فى المملكة البحرية تقترح بأن يتنكر الجميع فى صورة قاض وحاجب وحارس وهيئة للمحكمة ، ويأتى يوم المحاكمة ، وإذا بنا نحن أمام فتاتين متشابهتين ، وأمام هيئة للمحكمة متشابهة ، لا يستطيع احد أن يعرف الفتاة الحقيقية أو القاضى الحقيقى ، أو هيئة المحكمة الحقيقية .

ويتفق القاضيان معاً على أن يتزوج الشاب من ابنة البحار ، لأنها هى التى تحبه حبا حقيقياً ، أما ابنة الوزير فهى من طبقة الأغنياء ، لا يستطيع أن يخلص قلبها لشاب فقير . وينعم الفتى والفتاة بالسعادة ، ولكن الوزير ما يزال يعتقد أن ابنته هى التى قد تزوجت من الشاب ، والشاب أيضاً ما يزال يعتقد أنه قد تزوج من ابنة الوزير . ويغضب الإله من أجل هذا الخداع ويتدخل لكى ينتصر الحق . وترى الفتاة نفسها مضطرة لأن تعترف بالحقيقة لفتاها ، الذى يتمسك بها رغم كل شىء ، فهو يحبها هى أيا كانت طبقتها أو جنسها . ويخيّر الإله الفتاة بين أمرين ، إما أن ترحل معه إلى عالم الآلهة ، إلى الجبال والسحب والوديان ، وإما أن تتحول إلى بشر ، وتختار الفتاة الحل الثانى لكى تتزوج من حبيبها ، وتدخل فى محنة أليمة ، تكلفها عنتا شديداً ، وهى التخلص من قشور وأصداف عالم الاسماك ، والتخلص من جلدها ، حتى تستطيع أن تلائم عالم البشر ، وتصبر الفتاة على التجربة وتتحملها بارادة قوية ، حتى نجحت وتزوجت من الشاب .

شاهدت هذه الأوبرا الصينية ، وعشت الحيرة ، ولم أستطع فعلاً أن أعرف الفتاة الحقيقية وعاودتنى من جديد قصة كامل الكيلانى عن الإخوة الصينيين ، الذين يتشابهون فى الشكل ، وبدأ شىء ما يختمر فى داخلى ، وبدأ ضوء يتحرك فى ركن قصى من النفس ، لعل شيئاً ما فى قصة كامل الكيلانى لم أدركه فى طفولتى .

— ٥ —

وفى مدينة « سوتشى » كنا خمسة نجلس فى مطعم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صينى ، مصريان وثلاثة من الصينيين ، كان المطعم من طراز صينى فى الخشب ، والديكور ، والأثاث ، والطعام ، والصينيون يعتزون بهذا الطراز ويقلدونه فى أثاثهم ، وجاء وقت الطعام ، وامتدت أيادى الصينيين إلى العصيات ، وتحركت ست عصوات من الأطباق إلى الأفواه ، بحركات سريعة رشيقة ، وغابت الوجوه من أمامى ، لم تعد هناك إلا صورة العصوات ، وكأنها أرجل النمل أو الجراد المنتشر . أما أنا وصاحبى فقد كنا فى حيرة أمام الملعقة والسكين والشوكة ، أيها نضعه على اليمين ، وأيها على الشمال ، وأيها من الأمام .

— ٦ —

وزرت فى مدينة « سوتشى » ايضاً معبد بوذا ورأيتها ، خمسمائة تمثال كلهم لبوذا ، تسأل الدليل عن هذا فيقول لك إنه بوذا ، وعن الآخر فيقول إنه بوذا ، وهكذا حتى نهاية الخمسمائة وتحاول أن تضع يدك على فرد واحد هو بوذا فلا تستطيع ، الكل بوذا حتى الحارس والمرأة والملاك ، تتوه لو حاولت أن تبحث عن فرد ، وتذكرت من جديد قصة كامل الكيلانى ، وقصة السمكة المزيفة .

— ٧ —

وبدأ الغموض يتكشف ، وبدأ الضوء يتسع داخلى . إن هذا الشعب هو شىء واحد ، حقاً هو يزيد على الألف مليون ، ولكن هذا العدد يتداخل ليكون كتلة واحدة ، وجسداً واحداً ، ليس الكل فى واحد كما يقول كتاب الموتى عند المصريين ، ولكن الكل فى الكل ، إن صح هذا التعبير . وأصبحت أدرك قصة كامل الكيلانى بطريقة أكثر عمقاً ، وأصبحت أفهم سر حيرة الأب فى قصة « مطاردة الأسماك » . إنه أراد أن يقف عند شخص معين ، وأن يبحث عن فرد واحد ، فعاقبته الآلهة ، لا لأنه ظلم أو اقترف إثماً كما ظن ، بل لأنه قد تنكر لروح الصين . وأصبحت أفهم لماذا تكثر فكرة التناسخ فى الأساطير الصينية . لا يبقى شىء على أصله ، الكل يريد أن يتحول ، والكل لا يريد أن يبقى على حالة واحدة ، الكل يريد أن يضيع فى الروح العام . إن الصين هى روح واحدة . وتذكرت جماعات النمل التى كنت أراها فى قريتى ، شريط واحد ، كل نملة تحمل فى فمها فتاتة من خبز ، وتتجه فى طريقها نحو العش ، الكل فى حركة دائبة وبلا توقف ، وحين كنت أتعمد أن أضع قشة وسط هذا الطابور ، لكى أقطع تتابعه ، كانت جماعات النمل تصعد فوق تلك القشة ، وتستمر فى طريقها . هكذا بدا لى الصينيون وهم يركبون الدراجات فى الصباح ، فتياناً وفتيات ، موفورى النشاط ، يعرفون هدفهم ، عيونهم متيقظة ، ينظرون إلى الأمام ، لا يبدو على بطونهم انتفاخ ، ولا يبدو على حركاتهم تكاسل ، ولا تبدو نظراتهم زائغة لا تعرف طريقها . كانوا كجماعات النمل يعملون لمجرد العمل . وأدركت أن روح الثورة التى قادها « ماو » قد تقمصت كل شخصية فى الصين ، وعرفت النجاح الحقيقى لأية ثورة ، أن تتحول داخل كل فرد إلى شعلة ، تنير له هدفه ، وتحثه على المسير . إن عظمة « ماو » أنه قد أدرك الروح الحقيقى لهذا الشعب . إنه الحماس للهدف ، فنقل هذا الحماس من بوذا إلى الأرض . لقد قلب الهرم كما يقولون ، وغير الجدل من الميتافزيقيات إلى عالم البشر ، إن روحاً دينية تسيطر على الصينيين فى عالمهم الجديد ، ولكنها روح لا تتوه فى عالم الأساطير التى كان يفرضها بوذا ، بل هى روح اختارت عالم البشر . وتذكرت مرة أخرى ، أو « مطاردة الأسماك » وأدركت معاناة البطلة وقد اختارت عالم البشر ، بدلاً من أن تتحول إلى روح يهوم فى الوديان والجبال .

— ٨ —

لقد صنع الصينيون بعد الثورة معجزة ، إنه السور الجديد الذى يفصل بين فترتين مختلفتين ، كان الصينيون صرعى للأفيون ، صرعى للأساطير التى تسلب منهم حياتهم ، كانت البوذية هى المسيطرة ، وحين زرت معابد بوذا كان يجذبنى شكله المفرط فى الحسية ، وصورته الأقرب إلى النساء ، كان يبدو مادياً شهوانياً ، له كرش يدور حول بطنه ، ويبدو كالطبلة المنتفخة ، وأدركت أن هناك تناقضاً حاداً بين شكله الشهوانى ، وآرائه التى كنت أقرؤها فى الكتب قبل زيارتى للصين . كان يدعو إلى « النيرفانا » ، أى اطفاء الشهوات حتى يصل الانسان إلى درجة الصوفية الحقيقية . وأدركت الخداع فى آرائه ، وتذكرت تمثيلية أوردها التليفزيون الصينى ، كانت تسخر من بوذا ، يدعو الشعب إلى ترك اللحوم ، ثم يملأ جيبه بتلك اللحوم ، كان كما قال لى أحد الأصدقاء الصينيين ، وأظنه مروان ، يأكل نيابة عن أتباعه الصينيين .

كانت الملائكة التى تحيط بتماثيل بوذا ، تبدو شريرة ، ينبعث من عيونها الرعب ، تحمل الحراب ، وتثير الخوف ، إنها تختلف عن الملائكة التى شاهدتها فى الكنائس أثناء زيارتى لأوربا ، كانت ملائكة المسيحية جميلة خفيفة تحلق فى أسقف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكنائس وكأنها روح هائمة . وأدركت أن المعجزة الجديدة التى صنعها الصينيون هو أنهم قد تخطو ذلك التراث الثقيل . لقد أصبحت البوذية تاريخاً يعيش فى المتاحف ، يردده الصينيون من باب الاستطراف ، وحين سألت إحدى الصينيات « هل أنت بوذية » بدا عليها الاستغراب ولم تفهم معنى سؤالى . كان السؤال يبدو بلا معنى ، كما لو سألت أحد المصريين فى الشارع « هل أنت تعبد آمون ؟ » ، لقد استطاع الصينى أن يتخلص من البوذية ، وتحولت عنده إلى أساطير وتاريخ وفن وخيال . لقد أصبح الصينى فى شكله الحالى لا يمت بصلة إلى أشكال بوذا التى تتناثر فى المعابد ، وأصبحت نظرته الواثقة تدل على أنه لا يخاف حراب الحراس ولا ملائكة المعابد ، لم تعد تخدعه الأساطير ، لقد تملك زمام نفسه ، وأيقظ عوامل الإنسان داخله ، فتملك أساطيره بعد أن كانت الأساطير هى التى تتملكه .

— ٩ —

ولكن لا يعنى هذا أن الصينى قد تنكر لتاريخه ، بل يعنى أنه قد فهم الأصالة فهماً صحيحاً ، لم تعد الأصالة هى إحياء التاريخ القديم كما هو ، وفرض الأساطير وأفكار الموتى على الانسان المعاصر ، إن الأصالة تعنى إزاحة القيود والعوائق ، حتى يظهر الانسان جلياً ، حينئذ سيعبر عن ذاته ، وستكون ذاته تعبيراً عن أمته ، وانعكاساً لتاريخه .

لقد حل الاستعمار بالصين منذ فترة مبكرة (١٨٤٠ م) ، وبعرض لأنواع مختلفة من الاستعمار (انجليزى — فرنسى — يابانى) ، ومع ذلك فكل شىء فى الصين يبدو صينياً ، بدءاً من الانسان وحتى الاله ، ومروراً ببرامج التليفزيون ، واللافتات فى الشارع ، والادوية التى تعتمد على الاعشاب ، والطب .

وكان لابد لى أن أتساءل فى النهاية : وأين نحن من كل ذلك ؟

إننا دائماً نردد أن الغرب قد أفلس ، وأن موجات العبث ، وروح الاستهلاك ، والافراط فى الفردية ، وضياع الهدف ، سوف تودى به . ونقول إن الحضاره دول ، ونفرط فى التفاؤل ونرى أن الحضارة سوف تنبعث من جديد فى الشرق .

قد يكون كل ذلك حقاً ، ولكن الكرة قد لا نلتقطها نحن ، ربما يلتقطها الشرق الأقصى ، فكل سلبيات الحضارة العربية يتداركونها ، لا إغراق فى الجنس ، ولا المخدرات ، ولا الاستهلاك ولا الخمور ، ولا ادمان للميتافزيقيات والعبثية والعدمية ، بل عمل وهدف محدد يصل إلى حد اليقين الدينى .

ولكنه يقين يتجه نحو الأرض . وهناك شىء كامن فى نفسية الصينى ، يتحسّسُه بحذر شديد ، لقد ضاع منه الاله ، وتخلت عنه السماء ، وهو يحاول أن يعوض ذلك .

هل يستطيع الشرق الاوسط كالعادة ، أن يحرر تلك الروح ، فيقدم للعالم نموذجاً جديداً لحضارة متكاملة .

لعل الكرة لا تضيع منه مرة أخرى .

المنيا : د. عبد الحميد ابراهيم

القضايا الاجتماعية والفنية فى ملتقى القصة الخليجية

د. صبرى حافظ

قليلة هى الندوات أو الملتقيات الأدبية العربية التى يشعر كثير من المشاركين فيها أنهم تعلموا منها شيئاً . لأن الندوات أو الملتقيات الثقافية العربية لا تحرص على توفير المعلومات الضرورية لإكساب الحوار فيها قدراً كبيراً من العمق والجدية . وإن وفرت بعض تلك المعلومات ، فإنها لا تنجح فى تنظيم الندوة أو الملتقى بطريقة تكفل للمشاركين الاستفادة من تلك المعلومات ، وتسمح لهم بإدارة حوار حقيقى . يستفيد منه من يطرح على الباقين بحثاً ، قدر استفادة من ساهموا فى مناقشة هذا البحث ، أو من اكتفوا بالإنصات إلى الحوار . لكن الملتقى الأدبى للقصة القصيرة فى دول مجلس التعاون الخليجى ، والذى عقد فى الكويت فى الفترة من ١٦ إلى ١٨ يناير ١٩٨٩ وشاركت به ، قد نجح فى الجمع بين هذين العنصرين الضروريين لجعل الملتقى ساحة للحوار الجاد الذى يتعلم منه الجميع . إذ حرص منظمو هذا الملتقى فى الأمانة العامة للمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب فى الكويت على تحقيق عنصرين أساسيين : أولهما محلى فيما يبدو يهدف إلى مد أواصر التعاون والحوار بين قصاصى منطقة الخليج والجزيرة ودارسى القصة فيها . وثانيهما قومى يرمى إلى طرح الظاهرة الخليجية برمتها فى أفقها القومى ، وتوفير فرصة للاحتكاك الأدبى والنقدى بين كتاب القصة القصيرة ودارسيها فى دول مجلس التعاون وبين المتميزين من نظرائهم فى الوطن العربى كله .

وكان هذان الهدفان الواضحان وراء الطريقة التى نظم بها الملتقى ، ووجهت بها الدعوات إلى المشاركين فيه وحددت وفقاً لها محاور البحث التى تكتب حولها الدراسات ، وتقام حولها المناقشات . وقد حرصت اللجنة المنظمة للملتقى ، والتى أحاطها الدكتور سليمان العسكرى ، الأمين العام للمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالنيابة برعايته منذ بداية أعمالها ، وراسها الدكتور سليمان الشطى أستاذ النقد المساعد بجامعة الكويت ورئيس تحرير مجلة (البيان) الكويتية ، وكان مقررها الأستاذ عبد العزيز السريع القاص والكاتب المسرحى المعروف ، وشارك بها مجموعة متوازية من القصاصين والباحثين هم الأساتذة أبو المعاطى أبو النجا وصدقى الحطاب ، وسليمان الخليفى ، وإسماعيل فهد إسماعيل ، ووليد أبو بكر ، الذين تحقق فيهم التوازن القومى والمهنى على السواء ، حرصت على توفير بحوث هذا الملتقى للمعقبين عليها قبل موعد انعقاده بوقت كاف حتى يعدوا التعقيبات بأناة وروية تتيح دراسة البحث بجدية وتكفل عمق النقاش وتضمن جدواه . كما حرصت كذلك على أن يبدأ اهتمام النقاد والباحثين العرب بموضوعه قبل فترة طويلة من انعقاده . إذ وفر المجلس مشكوراً مجموعة كبيرة من النصوص القصصية الصادرة لكتاب المنطقة لهم ، وبعث بها إليهم حتى يقرأوها قبل مجيئهم إلى

الملتقى وحتى تتكون لديهم عنها صورة واضحة تساهم فى تعميق الحوار وإثرائه من أرض المعرفة الحقيقية بإنجازات القصة وقضاياها . كما حرصت على أن تدعوهم إلى الكويت قبل بداية الملتقى بيومين أو ثلاثة حتى تتيح لهم فرصة قراءة الأبحاث والتمعن فيها قبل بدء جلسات العمل .

وقد كان الحرص على جدية هذا الملتقى الأول نابعاً من إحساس اللجنة المنظمة له بأنه الحلقة الأولى فى برنامج التواصل الثقافى بين دول المجلس ، وعليه لذلك أن يرسى دعائم المثل الذى يحتذى فى هذا المجال . إذ ستعقبه مجموعة أخرى من الملتقيات والأنشطة الثقافية فى المنطقة أولها إقامة المعارض التشكيلية المحلية والدولية التى أوكل للملكة العربية السعودية مهمة القيام بها ، ثم ندوة عن ثقافة الطفل فى قطر ، وأخرى للموسيقى والغناء بالبحرين ، وملتقى فكرى عن الحداثة بالإمارات ، ومهرجان للشعر فى سلطنة عمان . كل هذه الأنشطة القادمة كان لابد أن تبدأ بعمل جاد محكم التخطيط ترسى عبره الكويت بما لها من مكانة متميزة بين جيرانها أسس العمل الثقافى فى هذا المجال . وقد بدأت أعمال الملتقى بجلسة افتتاحية قصيرة رحب فيها السيد ناصر الروضان وزير الإسكان ورئيس المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالنيابة عن راشد عبد العزيز الراشد وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء ورئيس المجلس بالمشاركين ، وتمنى أن يحقق الملتقى الآمال المعقودة عليه . كما تحدث فيها الدكتور فاروق العمر أمين المجلس الذى قدم الخلفية التاريخية والتنظيمية لهذا الملتقى ، واختتم هذه الجلسة الاستهلالية السيد عبد العزيز الجلال ممثل الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية فوضع الملتقى فى سياقه من النشاطات الثقافية فى المنطقة . وبعد هذه الجلسة الاستهلالية التى مزجت بين مراسم الافتتاح الترحيبية والرغبة فى تزويد المشاركين بالمعلومات الضرورية التى تمكنهم من معرفة السياق الذى دار فيه الملتقى والآمال المعقودة عليه بدأت الجلسات .

وما أن بدأت جلستا اليوم الأول حتى أدرك المشاركون أنهما مخصصتان لرسم الخريطة العريضة لواقع القصة العربية القصيرة فى دول المنطقة . فقد بدأت الجلسة الأولى ببحث على محمد راشد عن القصة القصيرة فى الإمارات ، وأعقبه بحث د. محمد طالب الدويك عن القصة القصيرة فى قطر ثم بحث د. سليمان الشطى مدخل لتاريخ القصة القصيرة فى الكويت . بينما ضمت الجلسة الثانية بحوث د. منصور الحازمى عن القصة القصيرة فى المملكة العربية السعودية ، ولمحة أسرة أدباء البحرين الموجزة عن القصة القصيرة فى البحرين ، وبحث ابراهيم بن حمود الصبحى عن تاريخ القصة القصيرة وتطورها فى عمان ، ثم بحث يوسف الشارونى عن القصة القصيرة فى سلطنة عمان . وهى كلها أبحاث تهدف إلى رسم معالم الخريطة الأدبية التى يتحرك فوقها المتحاورون حول واقع هذه القصة وقضاياها ، وتتسم فى معظمها بوفرة المعلومات ، وبقدر يتفاوت من بحث إلى أخر من الموضوعية والصرامة العلمية . ولكنها جميعاً أبحاث ضرورية ومفيدة . يتعلم منها الإنسان الكثير عن واقع القصة القصيرة فى هذا الجزء العزيز من الوطن العربى . وأهم ما يتعلمه المتابع من هذه الأبحاث هو أن القصة العربية القصيرة تشهد حالة ازدهار تتفاوت درجتها بين قطر وأخر ، لكنها حالة ازدهار فى جميع الأقطار . فبعد أن بدأ فن القصة فى الظهور فى تلك الأقطار ما بين خمسينات هذا القرن وستيناته نتيجة لمجموعة من العوامل الحضارية التى شهدتها المنطقة بعد التغير الاجتماعى فى أنماط الوجود بها ، وتبدل طبيعة الحياة الاجتماعية فيها عقب اكتشاف النفط خاصة ، وبعد دخول المطبعة وظهور الصحيفة . وتغير طبيعة النظام التعليمى ، وظهور جمهور جديد من القراء ذو احتياجات ثقافية جديدة ، وغير ذلك من العوامل التى ساهمت فى ميلاد القصة القصيرة فى المشرق العربى قبل ذلك التاريخ بأكثر من سبعين عاماً ، أخذ هذا الفن يقطع رحلة التطور التى قطعتها القصة العربية القصيرة فى أقطار المشرق العربى فى عقود كثيرة ، فى سنوات معدودات . وقد أدى تلاحق التطور وتسارع إيقاعاته إلى عدد من القضايا وعديد من الإشكاليات التى اتسمت بها معظم هذه الأبحاث ، والتى طرحها بعضهم وخاصة قضية صعوبة التصنيف إلى المدارس الأدبية التقليدية ، والناجمة عن قصر فترة التأريخ من ناحية ، وعن تعاصر التيارات والمؤثرات وتداخلها حتى لدى الكاتب الواحد من ناحية أخرى .

لكن أهم الإشكاليات التى تعرضت لها معظم هذه الأبحاث دون أن يجد لها معظمها حلاً مقنعاً هى مشكلة الحداثة التى استغربت ، ولا أقول استهجنت ، معظم الأبحاث ظهورها المبكر فى واقع قصة لم تكد تتجاوز بعد مخاض الميلاد ، ولم يصل بعضها إلى مرحلة النضج الواقعى والاستقرار . وهنا تتضح أهمية العلاقة الجدلية بين انجاز جل القصة الخليجية وقضايا القصة العربية فى المشرق خاصة ، وبين هذا الانجاز وتغير الحساسية الأدبية الذى أدى إلى ظهور القصة الحداثية فى المشرق العربى عامة وفى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مصر خاصة ، فى الفترة التى كانت فيها القصة الخليجية لا تزال فى لفائف الميلاد . كما تتضح كذلك أهمية العلاقة بين هذه القصة الوليدة وبين التحولات الاجتماعية التى اعترت أغلب المجتمعات الخليجية فى الفترة ذاتها . فإذا كانت الحداثة هى الأسلوب الذى استجاب لما حل بأوروبا من اضطراب شامل ، ولما عاناه إنسانها من فقدان اليقين وانعدام المطلق ، ولما أصاب مدنها من خراب إبان الحرب العالمية الأولى ، ولما طرأ على فكرها من رؤى وتفسيرات جذرية فى جدتها عقب كشوف داروين وماركس وفرويد ، ولما انتاب لغتها من تبدلات ، ولما جلبته عملية التغير التكنولوجى الكاملة من أشكال جديدة للخبرة والوجود ، ولما أسفرت عنه حالة تبدد الأفكار القديمة المتوارثة حول وحدة الشخصية الفردية وثباتها النسبى وتعاسكها ، وحلول الفوضى العامة فى جسد اللغة ، وتحول الحقائق الموضوعية إلى مجرد تخيلات شخصية ، كما يقول برادبرى وماكفارلين فى كتابهما الشهير عن (الحداثة) والذى استشهد به د. منصور الحازمى فى بحثه فإن الظروف المشابهة — مع قدر كبير بالطبع من الاختلافات والتحويرات — والتى عاشتها منطقة الخليج العربى من اضطراب فى أنساق الحياة التقليدية وتخلخل فى بنية المدينة القديمة ، وتغير جذرى فى التصورات والرؤى الناجمة عن عملية التحديث المتسارعة الإيقاع ، وانفتاح التجربة القصصية على التجارب العربية التى بدلت لغة القص وغيرت مواضعاتها هى التى تفرض انبثاق الحداثة بقوة فى ساحتها بعد سنوات قليلة على ميلاد هذا الشكل الأدبى الجديد بها . لكن تغير الحساسية الأدبية فى مجال القصة صاحبته مجموعة من التوترات الناجمة عن سيطرة الرؤى المحافظة على الواقع ، وعن صراعها الدائم مع الجديد ، مما وسم الحداثة فيها بقدر كبير من الإشكالية .

لهذا كان من الطبيعى أن تتفجر قضية الحداثة فى ساحة الملتقى فى اليوم الثانى مباشرة مع جلسة الصباح التى خصصت لبحث الناقد السعودى المرموق د. سعيد السريحى «تطور البناء الفنى فى القصة القصيرة » جدل المكتوب والشفهى » الذى ينطلق من محاولة تلمس الملامح العامة التى تجمع بين بدايات القصة فى مختلف أقطار المنطقة ، والسمات المشتركة التى تؤكد انطواء المحاولات القصصية الأولى فيها على أسس ذات بنية واحدة وعلى أشكال تعبير فنية لها مدلولاتها الثقافية . ويبدأ من اتفاق الباحثين والمؤرخين لهذا الفن فى المنطقة على تزامن بدايات هذا الشكل الأدبى فى معظم دولها ، وتواقت تلك البدايات مع ظهور الصحافة وبزوغ طبقة جديدة من المثقفين الذين أنجبتهم المدارس ، التى استحدثت فى المنطقة وفق أنظمة تعليمية جديدة ، وتشابه البدايات القصصية التى جاء تأكيدها للمضمون على حساب الشكل واتسامها بالتقريرية على حساب النضج الفنى . وهو اتفاق لا يختلف الباحث حوله ولكنه يطمح إلى نقض مسلماته وإعادة طرح مقولاته بطريقة لا تقول ببدايات هذا الفن فى المنطقة ، وإنما ببداية تحول القص فيها من فن شفهى إلى فن مكتوب . هذا التحول هو الذى أدى إلى تلبس القصة الوليدة فى رأيه بأدبيات الكتابة وانفصالها عن أدبيات الفن الشفهى . كما أن حداثتها جعلتها غير قادرة بعد ، على خلق تقاليد أدبية خاصة بها . ولما كان المقال هو الفن الكتابى السائد والذى تمت المصادقة على مشروعيته فى تلك المرحلة ، فقد كان طبيعياً أن تجىء البدايات القصصية امتداداً له . بهذه الطريقة يربط الباحث بين تقريرية البدايات وغلبة السرد الوعظى عليها ، وبين بعض سمات النص الشفهى من ناحية ، ومواضعات المقال الصحفى من ناحية أخرى .

ويواصل د. سعيد السريحى بحثه بطرح تصوره الناضج لفكرة التطور التى لا تراه حركة خطية بل حركة دائرية ، أو بالأحرى حلزونية تتم فيها العودة دائماً إلى الانجازات السابقة ولكن على مستوى آخر . ومن خلال هذا المفهوم الناضج للتطور يواصل التعرف على جدلية الأدبيات الشفهية والمكتوبة أثناء تفاعلها داخل النص القصصى لبلورة بنيته الخاصة من ناحية ، ولخلق أدبياته المتميزة من ناحية أخرى . وذلك من خلال تناول مجموعة من النصوص القصصية من مختلف دول المنطقة باعتبارها نماذج دالة على تغير أدبيات النص القصصى فيها . خالصاً إلى أن القصة فى تلك المنطقة تنحو باستمرار نحو مسارين متعارفين : أولهما هو العودة إلى أدبيات الخطاب الشفهى بما له من تجذر فى الموروث الثقافى متملصة بذلك إلى حد كبير من أدبيات الخطاب المكتوب برغم تبنيها لأداته الرئيسية وهى الكتابة . وثانيهما هو تحقيق قطيعتها كلية مع أدبيات الخطاب الشفهى بما فيه من وعظية وتقريرية ومباشرة ، وتأسيس أدبياتها الخاصة : وهى أدبيات نص مكتوب مغايرة لأدبيات المقال الذى استعارت الكثير من خصائصه فى البداية . ومن خلال التعرف على بعض ملامح هذين المسارين ، يقدم لنا الباحث السمات الأساسية لتطور البناء الفنى فى القصة القصيرة فى دول المنطقة ، فيما يتعلق بالحدث والزمن والمكان والسرد وغير ذلك من العناصر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومع أن المفهوم الأساسى الذى تبناه الباحث للتطور فى الفن والأدب كحركة دائرية متعاقبة كما يقول ، أو بالأحرى كحركة حلزونية كما أوثر أن أدعوها ، وليس كحركة خطية تسلسلية متعاقبة مفهوم هام ولابد من تعميقه ، فإن هذا المفهوم كان يستلزم ضرورة بحث التطور فى فن القصة فى دول الخليج ، لا باعتباره نتيجة لجدل الشفهى والمكتوب فحسب ، ولكن باعتباره علاقة جدلية مع نصوص القصة العربية والإنسانية كذلك ، وليس كحركة معزولة منغلقة على نفسها . كما كان يستلزم ضرورة التعرف على نوعية التغيرات التى انتابت قواعد الإحالة ، وعلى شتى تجليات تلك التغيرات . وقواعد الإحالة هى القواعد التى تتحكم فى منهج إحالة النص إلى الواقع ، وإلى كل الأطر المرجعية التى يصدر عنها ويمارس فعاليته فيها ، والتى تطرح بنية فنية مختلفة كلما تغيرت لأنها هى التى تسيطر على آلية تلك البنية وتتحكم فى - قوانين شفرتها . أما تطور التقنية الفنية وتغير استراتيجيات التعبير فإنه لا ينطوى بالضرورة تغير البنية ، وإنما على تبدل تجلياتها فحسب . كما كان ضرورياً استقصاء طبيعة التغيرات التى طرأت على الشكل الأدبى من زاوية دور هذا الشكل فى تشكيل التجربة الإنسانية ، وبالتالى فى صياغة محددات الوعى بها . فالشكل الأدبى ليس وعاء للتجربة كما يظن الكثيرون ، ولكنه التجربة ذاتها وقد غير تشكلها بهذا النسق المعين محتواها ذاته . هذا بالإضافة إلى أن الاقتصار على جدلية الشفهى والمكتوب جنى على بعض الجدليات الأخرى الفاعلة فى نفس العملية . ، كما أدى إلى إغفال بعض العناصر الهامة . إذ يبرر الباحث مثلاً شيوع المقدمات الطويلة غير المحذوفة فى قصص البدايات بأنها من بقايا أدبيات الخطاب الشفهى ، وبرغبة الفن القصصى اكتساب المشروعية من خلال فن تمت المصادقة على مشروعيته ، وهو فن المقال . بينما تقوم تلك المقدمات بمجموعة

من الوظائف الأخرى مثل تأسيس التقاليد الأدبية ، وموضعة القصة فى واقعها ، وخلق إحساس بمشاكلة الواقع ، وتدريب القارىء على قواعد التلقى الجديدة وإطلاعه على قواعد الإحالة التى ما أن يعرف شفرتها حتى تفقد تلك المقدمات وظيفتها وتختفى بفقدانها . هذا وقد أدى اقتصار البحث على تطور البنية الفنية وحدها إلى إغفال جدلية البنية والموضوع وأهمية تغير الحساسية الأدبية وهى الأكثر فاعلية فى تطور البناء الفنى من غيرها . ولا ينفى هذا كله بأى حال من الأحوال أهمية جدلية الشفهى والمكتوب ، كجدلية قادرة على الكشف عن التغير فى استخدام استراتيجيات القص وأدوات تعامل النص الأدبى مع المادة التى يصوغ من خلالها عالمه .

كانت القضيتان الأساسيتان اللتان طرحتا فى ملتقى القصة فى دول مجلس التعاون الخليجى هما القضية الاجتماعية والقضية القومية . وقد طرحت القضية الأولى فى دراسة الباحث الفلسطينى وليد أبو بكر الضافية « أثر البيئة والمتغيرات الاجتماعية فى القصة القصيرة فى دول مجلس التعاون » وفى تعقيب القاص والناقد الكويتى المعروف إسماعيل فهد إسماعيل عليها . وقد بدأ البحث بقسم نظرى مطول يتناول فيه كلا مكونات العمل القصصى من مكان وزمان وسرد ووصف، وشخصية إلى آخره ، وإن ركز فيه على أهمية البيئة بمفهومها الواسع الذى يشمل كل من المكان والمناخ الاجتماعى والنفسى الذى تتحرك فيه الشخصيات . وهذا الجزء النظرى يريد فيه وليد أبو بكر أن يؤكد على أن القصة برغم أنها عمل متخيل إلا أنها تطرح نفسها على القارىء ضمن بيئة معينة ومكان معين لأن البيئة والمكان من العناصر الأساسية التى تمكن القارىء من الاستجابة للشخصية والحدث وبقية مكونات العمل القصصى ، كما أنه هو والبيئة بمعناها الشامل من عوامل تطور الشخصيات داخل القصة ، ومن مكونات جغرافيا النص الأساسية . ومن هنا فالبيئة التى يتعامل معها فى بحثه هى البيئة التى تتفاعل مع كل مكونات العمل القصصى وتساهم فى صياغة الكثير من تفاصيله . ثم ينتقل البحث بعد ذلك فى قسمه الثانى إلى الجانب التطبيقى الذى يتناول فيه قصص منطقة الخليج العربى من زاوية البيئة والمتغيرات الاجتماعية فيها .

وكان طبيعياً أن يبدأ أى حديث عن البيئة فى تلك المنطقة العربية بالحديث عن الصحراء ، مهد الفكرة العربية ذاتها . لكن الصحراء العربية فى تلك المنطقة قد عرفت حداً باتراً جعل حياتها قبله مغايرة كلية لما عاشته بعده ، ألا وهو النفط . فقبل النفط كانت الحياة فى المنطقة تسير فى ثلاثة اتجاهات : حياة البداوة الصحراوية التقليدية بخيامها وترحالها الدائم فى الفضاء الصحراوى الرحب ، حيث سيولة المكان تقابل ثبات الزمان النسبى . وحياة البحر التى استبدلت بشساعة الصحراء انفتاح البحر ، الذى تتطلب حياته مرتكزاً أرضياً قريباً منه يحيل سيولة المكان الصحراوى إلى ثبات شاطئى فى المدن الساحلية الصغيرة التى تسودها حياة مغايرة كلية للحياة البدوية وإن ربطتها بها مجموعة من الوشائج القوية . أما النمط الثالث من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحياة الصحراوية فهو النمط الذى تطرحه الواحة فيها ، أى تلك الجيوب الزراعية المستقرة التى يرتبط إنسانها بالأرض والزراعة ، لا الرعى والترحال . كل هذه الأنماط الصحراوية الثلاثة التى عرفتها المنطقة لمدة طويلة سرعان ما تغيرت بشكل جذرى بعد اكتشاف النفط الذى اكتسحت موجته العارمة كل شىء . صحيح أن الجغرافيا الطبيعية لم تتغير ، لكن البيئة الاجتماعية كلها سرعان ما انقلبت راساً على عقب إلى الحد الذى تحولت معه جغرافيا الفضاء الخليجى كله ، وتغيرت كل رواسيه القيمية والبشرية والإنسانية .

فقد أخذت أشكال الوجود التقليدية تلك فى الزوال بصورة سريعة ، وحلت مكانها أشكال جديدة ذات طبيعة حضرية بالدرجة الأولى . فكبرت المدن القديمة وفرضت المدينة الجديدة منطقها على كل شىء ، خاصة بعد أن خرجت تلك المجتمعات ــ بعد النفط وبسبب ثرواته ــ من عزلتها القديمة وقذفت بها تلك الثروة الطائلة والطارئة معاً فى مهب رياح العالم . وأخذ المجتمع الخليجى يمر خلال عقد واحد من الزمان بما مر به غيره من المجتمعات فى قرون . مما جعل بعض أجيال المنطقة تعيش عصرين مختلفين من حيث الإيقاع والتركيبة القيمية ذاتها . مما وسم حياتها بقدر كبير من الصراعية . وكانت هذه الصراعية الناجمة عن التحولات السريعة هى المنطقة التى اقتنصها عدد كبير من كتاب القصة فى المنطقة . وبرغم تداخل الزمنين فإن القصة ــ ربما بسبب عودها الغض ــ تحاول أن تفصل بينهما .

فظهرت المجتمعات القديمة فيها داخل زمنها القديم ، ولكنه فى أغلب الأحيان زمن مستعاد من الذاكرة ، حتى تستحيل سيولته الدائمة إلى ثبات فى الزمن المستعاد . أو هى فى حالة مواجهة دائمة مع المدينة التى تحاول أن تقتحمها أو أن تسلبها سحرها وثروتها معاً ، ولكنها ــ أى المدينة ــ لا تستطيع أن تستغنى عن الصحراء . لكنها قليلة هى القصص التى تحاول أن تكشف لنا عن أن الحياة فى الصحراء أصبحت هى الأخرى غير قادرة على الاستغناء عن المدينة . لأن آليات الاعتماد المتبادل بين البيئتين قد أخذت هى الأخرى فى التغلغل فى واقع الحياة الجديدة . فبعد بزوغ المدينة لم تعد الصحراء مكاناً صالحاً للعيش ، لأن المدينة القابعة على حدودها أفسدت على بنيها دعة حياتهم القديمة . فحتى الفضاء الصحراوى البعيد عن المدينة لم يعد قادراً على تجنب تأثيراتها عليه . وإن كان لا يزال قادراً على أن ينفث فيها غضبه عبر رياحها السافية التى تغبر وجه المدينة فى عواصفها الناقمة .

هذا الإحساس بقوة الصحراء ونقمتها يستمد عنفوانه فى أغلب القصص من حنين البدوى إليها بعد أن غادرها ، دون أن يخلع جذوره منها . فقد ظلت الصحراء مسيطرة على ذاكرة من غادروها وعلى أحلامهم . لكن البيئة الصحراوية ليست وحدها النقيض الحاد للمدينة المعاصرة فى القصة الخليجية ، لأن هناك البيئة الريفية فى الوحدات ومناطق الاستقرار الزراعى القديمة فى السهول والجبال . وهى بيئة ترتبط فى القصص عادة بالنزوعات الرومانسية للعودة إلى الطبيعة من ناحية ، وبالرفض الصارم لزحف الحضارة الوافدة من ناحية أخرى . وإن ارتبطت فى بعض القصص بمجموعة أخرى من موضوعات الصراع الريفى ، وكشفت عن وضع المرأة المتميز فى كلا المجتمعين الصحراوى والريفى على السواء . وهناك أيضاً موضوع آخر يوحد بين القرية والصحراء هو زحف المدينة عليهما لنهب خيراتهما . وهذه المدينة بكل قضاياها هى البيئة الثالثة التى تستقطب اهتمام القصاص الخليجى كما يرى وليد أبو بكر ، لأنها البيئة التى طرحت على القصاص مجموعة من التغيرات الأساسية ليس فى المكان الذى يدور فيه الحدث فحسب ولكن فى سلم القيم الاجتماعية وطبيعة العلاقات الإنسانية التى تجرى فيها ، والتى توشك أن تكون مناقضة كلية لما اعتاد عليه الإنسان الصحراوى أو الريفى فى تلك المنطقة من قبل . وإن فرقت القصة الخليجية فى هذا المجال بين مدينتين : المدينة الساحلية القديمة (مدينة الماضى) التى لم تقتحمها تيارات التحديث الوافدة مع النفط ، ولم تتغير طبيعة الحياة فيها بشكل جذرى عن القرية ، والتى يلعب فيها البحر والصيد واقتحام المجهول دوراً كبيراً والمدينة الجديدة التى اجتاحتها التغيرات النفطية ، والتى كان بزوغها على حساب تلك المدينة القديمة ذاتها ، وعلى حساب نشاطاتها الاقتصادية والاجتماعية معاً . وهى مدينة تتميز بقدر كبير من القسوة . وترتبط بموت الأب بكل ما يعنيه هذا الموت من غياب الحماية والسلطة الأبوية من ناحية ، ومن نضج وتحرر من ناحية أخرى . عبر كل هذه التنويعات البيئية المختلفة قدم لنا وليد أبو بكر قراءة ضافية ومستوعبة لانجاز القصة فى تلك المنطقة فى تعامله مع مختلف قضاياها البيئية والاجتماعية .

لكن مسح الباحث الحاذق لكل تلك التنويعات البيئية فى اشتباكها بقضايا الحياة والتغير الاجتماعى قد فاته إدراك أن أى فضاء بيئى لا يدلف إلى ساحة القصة كمجرد جغرافيا ، وإنما كبنية متفاعلة مع مختلف العناصر وصانعة للرؤية فيها كما برهن باشلار فى كتابة الهام عن (جماليات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المكان) ، مما أدى إلى إغفال أهم جدليات البنية فى المكان . فتغير الفضاء البيئى ليس مجرد تغير فى المكان ، ولكنه تبدل لشروط الوجود الإنسانى فيه ، ولإيقاع الحياة ، ومحددات الرؤية . فالوجود فى المكان هو حالة تفاعل بين كل مكونات المكان وبين الإنسان الذى يتحتم عليه أن يعيد كل حساباته المادية والقيمية حتى تتخلق معها وبها حالة الوجود الجديدة . وعلى هذا فإن العلاقة بين تلك الفضاءات هى علاقة بين حالات وجود متباينة ، بل ومتصارعة أحياناً . كل هذا لمسناه بوضوح فى بحث وليد أبو بكر لكن الذى افتقدنا بعض ملامحه هو كيف أن التحولات التى انتابت تلك الفضاءات ما تلبث أن تؤدى إلى تغير طبيعة الخطاب القصصى عنها ، وتبدل بنيته ذاتها وتفرض تحولاً فى كل استراتيجيات القص فالوجود فى المكان يشارك فى صياغة المحددات القيمية ، بما فى ذلك الجوانب الجمالية . فإذا كانت بعض الفضاءات تتسم بالثبات الجغرافى ؛ فإن هذا الثبات غالباً ما تسود فيه بنية مستقرة تتسم بسيطرة العلاقات الأبوية قيمياً ، وتسود خطابات هذا الفضاء علاقات ذات طبيعة استاتيكية وبنية تعاقبية تنهض على التراتب والتسلسل المنطقى . بينما تسود العلاقات الحركية خطاب الفضاءات التى تعج بالحركة والتحول ، وتتسم بنيته بالصراعية والاجتزائية مما يجهز على التتابع المنطقى ويشيع تفتتا له منطقه الخاص فى التماسك . فتجليات تغير الفضاء البيئى على البنية القصصية هى السبيل الأمثل للتعرف عن كيفية تغلغل هذا التغير فى بنية الوجود والتفكير معاً .

أما القضية الثانية التى طرحت فى ساحة هذا الملتقى الأدبى فهى القضية القومية التى تناولتها دراسة الباحث البحرينى د. ابراهيم عبد الله غلوم « الانتماء من العزلة : دراسة فى إمكانات استجابة شكل القصة القصيرة لقضايا بلورة الهوية القومية فى الخليج العربى » والذى قدم الناقد المصرى المعروف رجاء النقاش تعقيباً هاماً عليها . وقد بدأ الباحث دراسته بمهاد نظرى يتناول فيه بعض إشكاليات العلاقة بين الشكل الفنى للقصة القصيرة وبين ضرورات التعبير عن القضية القومية ، التى تتناسب عنده مع شكل القصيدة التقليدية بجنوحها صوب الكليات ، أو مع الرواية أو المسرحية باحالاتهما الموضوعية وإسقاطاتهما التاريخية والسياسية ، أكثر من ملاءمتها لشكل القصة بذاتيتها وميلها الدائم للخاص فى المكان والزمان والشخصية على السواء . ولكنها تجد مخرجها من هذه الأزمة فى ثلاثة مداخل يتعرف أولها على الكيفية التى ينحل بها الموضوع القومى العام فى الخبرة الذاتية والزمن الخاص ، ويبحث ثانيها فى ظاهرة توظيف الموروث الشعبى فى القصة لخلق حوار بين الذات والموضوع القومى ، بينما يعمد ثالثها إلى استبعاد البحث المباشر عن الهم القومى فى القصة واللجوء إلى الكشف عن طبيعة تشكله فى منطقة اللا وعى لدى كل من القاص والشخصية القصصية على السواء . ويقسم الباحث دراسته بعد ذلك إلى قسمين وخاتمة : يدعو أولهما بالتجربة الأولى أو « العزلة الأولى عن الانتماء المباشر » ويتناول فيه التجارب القصصية الباكرة فى عزلتها عن القضايا القومية العامة التى لم تتجسد فى انتاج المنطقة من القصة القصيرة فى هذا الوقت . فقد عزفت القصة القصيرة فى بداياتها الأولى عن الموضوع القومى واتجهت إلى المشكلات الاجتماعية العامة بينما عبر كتابها عن القضية القومية فى مقالاتهم ، كما تجلت أبعادها بشكل قومى فى نفس المرحلة فى الأشكال الأدبية الأخرى من شعر ومسرح ورواية يقدم لنا إطلالة سريعة على بعض تجسداتها فى الرواية خاصة .

أما القسم الثانى فإنه يدعوه « بالتجربة الثانية : إمكانات الاستجابة وسط إمكانات النضج والازدهار ، ويربط فيه بين تجريب القصة الخليجية وازدهارها وبين مجموعة من الأحداث الاجتماعية والسياسية التى ساهمت فى اذكاء حدة الصراع القومى ، وإعلاء شأن القضية الوطنية العامة فى المنطقة فى أواخر الخمسينات وبدايات الستينات . ومن هنا أخذت تجليات الموضوع القومى تأخذ أشكالاً ناضجة كان أولها تحويل التجربة العامة إلى تجربة خاصة من خلال تناول موضوع القهر السياسى وآثاره المدمرة على الأفراد ، أو موضوع السجن كمصير ومحطة انتظار للانطلاق من جديد تتطلب بطبيعتها الخاصة تأملاً متقصياً للذات ومراجعة متأنية للماضى . أما الشكل الثانى فهو التعامل مع الرموز العربية والوطنية بالصورة التى يتحقق بها الاحتكاك بين المحلى والقومى ، وخاصة فيما يتعلق بالموضوع الفلسطينى الذى يندر أن نجد قاصاً خليجياً لم يتعرض له بشكل أو بآخر . لكن موضوع الاحتكاك بالآخر القومى من أبرز موضوعات القصة الخليجية لأن طبيعة الواقع الاجتماعى والتاريخى فى المنطقة جعلها تعيش نزوحاً كبيراً للعمالة العربية إليها ، بما يستتبعه هذا النزوح من مشاكل . وهنا تجدر الإشارة إلى أن دراسة صورة الآخر القومى فى القصة الخليجية لا تكتمل ملامح دلالاتها القومية إلا إذا ما وضعنا تلك الصورة فى مواجهة صورة الآخر الأجنبى فى تلك القصة ، سواء أكان هذا الأجنبى آسيوياً أم أوروبياً .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد طرح تعقيب رجاء النقاش الحاد على هذا البحث مجموعة أخرى من الاعتراضات ، بدءاً من رفض المنطلق المنهجى الذى يرى أن شكل القصة القصيرة غير مناسب للموضوع القومى ، وحتى الكشف عن أن الكثير من إشكاليات هذا البحث ناجمة عن قصر الموضوع القومى فيه على القضية السياسية أو الوطنية المباشرة . وهذا خلط بين الموضوع القومى والموضوع السياسى المباشر الذى لا ينتج فناً جيداً فى أى ثقافة من الثقافات . ويقترح رجاء النقاش ضرورة توسيع الموضوع القومى ليصبح موضوع الخصوصية أو الذاتية القومية التى تترك ميسمها على كل ملامح العالم القصصى . فبهذه الطريقة يستطيع البحث أن يتناول مجموعة من القضايا التى تكشف عن تجذر الهوية القومية فى شتى أشكال الممارسات الحياتية ، وبالتالى فى جل موضوعات القصة الخليجية من مشاكل المرأة وحتى قضايا الصراع السياسى . هذا ويقترح المعقب على الباحث مجالاً آخر من مجالات تجلى الموضوع القومى فى القصة الخليجية وهو القصص التى كتبها كتاب عرب غير خليجيين عاشوا وعملوا فى منطقة الخليج واستلهموا أثناء إقامتهم بها عدداً كبيراً من القصص من تجربتهم فيها . ففى هذه القصص يتحول الموضوع الاجتماعى العادى ، وموضوع الحوار بين الأنا والآخر إلى بعد من أبعاد الموضوع القومى فى القصة الخليجية خاصة والقصة العربية عامة .

وإذا كانت قضايا الحداثة والبيئة والهوية القومية هى القضايا الأساسية التى نوقشت فى ساحة ملتقى القصة فى دول الخليج ، فإن مختلف الأبحاث والمناقشات الثرية بما فى ذلك قراءة جبراً إبراهيم جبراً فى عينة ضافية من ستين قصة من أبرز إبداعات المنطقة ، والتى اتسمت بشىء من المجاملة أو الرعاية الأبوية غير المطلوبة ، قد تناولت هى الأخرى أبعاداً مختلفة لهذه القضايا الثلاث ، بصورة ساهمت فى إثراء معرفة المشاركين جميعاً بواقع القصة فى تلك المنطقة ، وأرهفت وعيهم بانجازاتها وطموحاتها معاً ، وبتجارب كتابها وطبيعة القضايا التى يتعاملون معها والمشاكل الخاصة التى يوجهونها وخرج الجميع من هذا الملتقى الخصب وقد أدركوا أن للقصة العربية القصيرة فى هذه المنطقة رافداً هاماً يصب فى نهرها الدفاق ، ويثرى مغامرتها مع التجريب ، وطموحها للاقتراب بفاعلية من هموم الذات العربية والتعبير باقتدار عن شتى مطامحها وصبواتها .

لندن : د. صبرى حافظ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

◆ جدلية الحلم والواقع

○ فى ديوان كمال نشأت ○
« النجوم متعبة والضحى فى انتظار »

◆ د. حسن فتح الباب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حين يقلب الباحثون فى تاريخ حركة الشعر الحديث وتطورها منذ منتصف القرن حتى اليوم صفحات الدوريات الثقافية والأدبية التى كانت تصدر فى العقدين الخامس والسادس ، سوف يعثرون على مجلة باسم (العالم العربى) لا يكاد أحد من الجيل الجديد يعرفها ولا يكاد مؤرخ أدبى يذكرها ، رغم أنها لعبت دوراً على قدر من الأهمية على مسرح الحياة الثقافية عامة والحياة الأدبية خاصة ، إذ كانت أحد ، المنافذ القليلة المتاحة لنشر إنتاج الأدباء الذين كانوا فى ربيع العمر فى ذلك الحين ، واقترب من سن الستين أو تجاوزها اليوم مَنْ قُدِّر له منهم أن يوهب نعمة الحياة .

ومن الأسماء التى عرفها القارىء العربى وتابع إنتاجها فى مجال الإبداع الشعرى على صفحات هذه المجلة ثلاثة شعراء كان كل منهم يحرص على أن يضع تحت اسمه عبارة (رابطة النهر الخالد) ، وهم كمال نشأت ومحمد الفيتورى والمرحوم فوزى العنتيل ، وربما كان القصد من وراء هذا الشعار أن يرمز إلى وحدة شعبى وادى النيل ، بالنظر إلى أن الفيتورى شاعر سودانى وإن كانت إقامته الغالبة فى مصر خلال تلك الحقبة .

وبهذا السبق التاريخى الأدبى والإنتاج الخصب الذى لم ينقطع منذ أواخر الأربعينات حتى اليوم ، يعد كمال نشأت — الذى استقطب اهتمام النقاد قديماً بقصيدته (نامت نهاد) — علامة بارزة فى حركة التجديد الشعرى ، بل هو أحد الرواد الذين حرروا القصيدة العربية من الشكل الكلاسيكى ، وأسهموا بموهبة وخبرة مع رفقائهم فى مصر وفى البلدان العربية الأخرى فى تقديم النموذج المستوفى لشروط الشعر الجديد الذى كان يسمى فى ذلك الحين بالشعر الحر ، والذى لا يقوم على وحدة التفعيلة فحسب ، بل تتوافر فيه خصائص الحداثة فى اللغة والإيقاع وفى سائر مقومات التعبير عن روح العصر .

ولكن أين يقع شعر كمال نشأت إذا نظرنا إليه فى ضوء المذاهب الأدبية المتعارف عليها لدى الباحثين والنقاد ؟ وما موقفه كمبدع من القضايا المثارة فى الساحة النقدية : قضية التراث والمعاصرة التى تبدو كما لو كانت أحجية أو معادلة معقدة لم يَبْدُ لها بعد حل ، قضية الواقعية وما بعد الواقعية ، قضية اشتراط بعض المشتغلين بالنقد عنصر الصراع فى الإبداع الشعرى ، قضية الحداثة كما اشعلها أدونيس وتفرقت فيها الآراء ولم يُتفق بعد على مفهوم اصطلاحها بل مازال محل سجال ، وأهم من ذلك كله تحديد الخصائص التى تتميز بها قصائد كمال نشأت فى التشكيل وفى المضمون مع إدراكنا بداهةً للوحدة العضوية بينهما ، وما هو المنهج الأمثل لتحليل هذه القصائد بعد أن تعددت مدارس نقد الشعر والإبداع عامة ، وأصبح للبنيوية — وهى

أكثر من مذهب أهمها التوليدية — مريدون يرون أن المناهج النفسية والاجتماعية والأيديولوجية قد عفى عليها الزمن ؟ .

إن ديوان (النجوم متعبة والضحى فى انتظار) — وهو أحدث المجموعات الشعرية لكمال نشأت ، إذ أصدرته الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٨ بعد خمس مجموعات أولاها سنة ١٩٥١ ، يجيب على بعض هذه التساؤلات . وقصارى جهدنا هنا أن نحاول الاقتراب من عالمه ، بمعنى استشفاف المعانى والأحاسيس الكامنة خلف ظاهر النص والتى تعكس الهموم التى تشغله ، وتشكل محوراً لرؤيته ورؤياه ، وكيف عبر الشاعر عنها ، لنصل من ذلك إلى التعرف على تصوره لوظيفة الشعر أو تصورنا لهذه الوظيفة عنده ، ومدى توفيقه فى التعبير عن حياته وحياتنا أو حياتنا من خلال حياته الشعرية ، بمعنى مدى ارتباط شعره بالواقع والسياق التاريخى والاجتماعى والسياسى الذى كُتب فيه هذا الشعر ، وماهية التقنيات الفنية التى استخدمها للوفاء بحاجات هذا التعبير ، ونصيبه من الإضاءة أو الإضافة لحركة شعرنا المعاصر .

أول ما يرد على الخاطر بعد الفراغ من قراءة النصوص التى صاغها الشاعر ومحاولة استكناه ما وراء هذه النصوص للنفاذ إلى جوهر العمل الإبداعى المحقق بأدائه لرسالة الشاعر ، أن كمال نشأت مازال كما عهدناه ذلك الشاعر المغنى المطبوع وفقاً للاصطلاح القديم الذى يقصد به الأصالة ، فهو لا يتكلف الشعر ولا يصطنع الإحساس أو الفكرة .. لأنه عاشق يتنفس الوجود والطبيعة والإنسان شعراً ، فى مسيرة سويّة لا يقلد أحداً ، ويظل وفيًّا لطبعه ولطقوسه لا يبدِّلهما .. يجدد ولكن فى الإطار الذى وجد نفسه ملتزماً به بالسليقه أكثر منه بالاكتساب ، فهو لم يُفِدْ من حصيلة معارفه وتجاربه إلا صقل أدواته التى يعبر بها عن ذلك الطبع وتلك الطقوس التى تطابق شخصيته ..

فى حُنوّ مُغَنّى (التروبادور) يحمل دائماً قيثارته ليبثّنا حتى فى أوقات الحزن المرير الذى يليق به الانفجار نغماً هادئاً رصيناً وإن شفّ عن شجى عميق .. يطير دائماً بجناحين رومانسيين ، ولا يعنى ذلك أنه يغفل عن الواقع لأنه واع به ، وإنما يقبله على عِلّاته ، لا قبول المستجدى من قبيلة (دعونى فإنى آكل العيش بالجبن) ، وإنما قبول من يرفض بصوت هامس ، ويحلم بالغد . فنراه فى بعض قصائده موشكاً — وقد فاض الكيل وضاق صدر الحليم — على الدخول فى عالم شعراء الرفض والمقاومة ، ولكنه ما يلبث أن يفىء إلى هدأته التى ارتضاها ووطّن نفسه عليها ، فيشير إلى الجرح ولا ينكؤه ، يومىء ولا يفصح ، يدين خِفيةً ولا يحرِّض .

شاعر النفس المطمئنة الشجية التى تتخذ الذكريات حلوها ومُرّها تستريح إليها من وعثاء السفر المضنى الذى لا مندوحة عنه فى دروب المدن الشائكة حيناً والتى تشبه سراديب القراصنة حيناً آخر ، والقاتلة فى معظم الأحيان . فهو يتوارى فى حمى هذه الذكريات ويدّرع بها حتى يستطيع مجاهدة التيار الكاسح بقوة النفس الطويل ، معللاً نفسه بمقولة ناظم حكمت الخالدة (إن أجمل الأيام ما لم يأت بعد) مهما اتسعت المسافة الفارقة بين شاعرنا ابن النيل الذى يمتص المواجع وبين شاعر الأناضول المضطرم بالثورة ولو كلفته السجن والنفى معظم سنوات حياته . فالنجوم متعبة والضحى فى انتظار كما عنون كمال نشأت ديوانه العذب الشجى وكما يدلنا المقطع الذى صدَّره به :

ترنحت نُجيمة فجريةٌ
وسقطت .. انغمست
فى حمرة الدماء
وقبّلت جبينه المعفَّرَ
الشامخَ كبرياء

مزيج من عبق الرومانسية والواقعية صورةً للأولى ومضموناً للثانية ، فى ألفة حميمة تشى بملامح الحزن المتشح بنبل الفداء ، وجدلية الموت والحياة ، موت جندى أحب وطنه وأمته حتى ارتضى الاستشهاد فى سبيلهما موت فتى شجاع ليحيى شعب .. وتتابع الأبيات حتى لحظة التنوير فى بيت القصيد :

ما روعة الأوسمةِ
التافهة الطلاء ؟
هذا الفتى المخلّد الذى ذهبْ
الثُّقبُ فى جبينِهِ
درْبٌ جديد للعربْ

إنه التفاؤل غير المجانى لأن دماء الضحية لابد أن تنبت وروداً للجيل الآتى بعد أن يقدم الجيل الحاضر زكاة الحياة السرمدية ، وهى ثمن الحرية الذى لابد من أدائه . فالنظرة هنا لا تصدر إلا من شاعر يعشق الإنسانية ويعى ضرورة الفداء كى تستمر الحياة ، فالفرد للجماعة حتى تكون

الجماعة للفرد . ومرة أخرى نتذكر قولة ناظم : (إذا لم أحترق أنا ، إذا لم تحترق أنت ، إذا لم نحترق نحن ، فمن ذا الذى يوقد شمعة فى الظلام ؟) .

ولكن شاعرنا يقف على الأعراف فى الكثرة الغالبة من قصائده ، فهو ينتظر الذى يأتى بعد طول معاناة ، ولا يحضّ صراحة على هدم البناء الجائر المستبد الذى يقف خلف هذه المعاناة ، لأنه شاعر غنائى جَمَاليّ فى المقام الأول ، ويخيل إلىّ أن شعره فى عفوية براءته وصفائه ونعومة نغمه أشبه بالأغنيات العاطفية الرقيقة التى يترنم بها المحارب فى استراحته بين موقعة وأخرى ، فهى ليست أغنية نضالية محفّزة على الثورة ، ولكنها أغنيات إمتاع روحىّ ومؤانسة وجدانية إذا استخدمنا تعبير أبى حيان التوحيدى . ولا غضاضة فى ذلك ، لأن الفن سلام للروح حتى فى زمن الحرب المأساوية أو البطولية ، فالإمتاع هدف أساسى من أهداف الإبداع ، ولا فن بلا بهجة . ومازال صحيحاً ما قاله أرسطو منذ أكثر من ألفى عام من أن الشعر تنفيس وتطهير لنفس المبدع والمتلقى .

وفى صدد تقييم النغمة الأثيرة فى شعر كمال نشأت ، يمكن القول إن المقولتين المعروفتين فى تنظير وظيفة الفن متكاملتان وإن ظهرتا فى صورة النقيضين ، أولاهما قول بريخت (إنها لجريمة أن نتحدث عن الأزهار الجميلة حين يكون هناك بشر يُقتلون) ، وقوله فى المسرح الذى آمن به وحوّل حلمه إلى حقيقة ، والمسرح فيما نرى شأنه شأن سائر الفنون كالشعر — إنه ذلك الذى لا يورّطنا بقبول الواقع كما هو ، بل يدفعنا إلى تغييره . أما المقولة الثانية فهى أن رسالة المسرح — والشعر مثله — أن يساعدنا على احتمال العالم . ويعبر عن ذلك ناقد فرنسى بأن عصرنا الذى أصبح شبه مريض بفرط الحساسية الفكرية ومطاردة المشكلات الذهنية الصارمة بكل تعقيداتها حتى فى تجارب الشعر والقصة ، هذا العصر أصبح فى حاجة ملحة إلى الأصوات الغنائية البسيطة التى تتوجه بإيقاعها الصافى إلى أكثر المشاعر عفوية . إننا بحاجة إلى الكلمات الهامسة فى غمرة الاهتمام المحموم بالقضايا المصيرية التى يطرحها الفكر والأدب والفن من خلال الأداء الفنى الصعب .

ولعل هذا المعنى يقترب مما دعا إليه هو شى منّه فى كلمته المشهورة (من لا يغنِّ لا يقاتل) . فنحن نحب ونحارب من أجل إنقاذ من نحب ممن يقتله باغتصاب حريته أو أرضه أو امتهان كرامته . فالغناء للمحبوب مثل ترنيمة أم لوليدها ومثل الغناء للوطن وللحرية . والناس يَنشدون السلوى والمرح والتفاؤل ، ومن ثم يحبون أن يسمعوا من يُنشدون الأغانى العاطفية الرقيقة ، ويرددونها معهم ، مثلما يطربون للأناشيد الوطنية . فكلها — رغم الاختلاف — تنبع من معين واحد هو قلب الإنسان ونهر الحياة المتدفق المتجدد الأمواج . والشعر الذى يستحق هذه التسمية هو الذى يزيد الإنسان عراقة فى إنسانيته كما يقول المازنىّ لا ضير إذن بل إنه طبيعى وإنسانىّ أن نغنى للحب فى زمن الحرب على اختلاف أشكالها وأهدافها ، ولكن ذلك مشروط بالتعبير الصادق الجميل عن أنبل القيم التى تعلى من شأن الإنسان . وشعر الحب الرومانسى عند نشأت نموذج رفيع لهذا التعبير ، فهو فى الشعر العربى الحديث فى طليعة الأصوات التى تدعو إليها مقولة الناقد الفرنسى المشار إليها ، على خلاف فى ذلك مع آخرين ممن ينتسبون زوراً إلى فن العربية الأول وتلصق بهم صفة شعراء العاطفة أو الوجدان بغير حق .

فأنت لا تكاد تجد فى شعر كمال نشأت حتى فى قصائده التى تصور مفاتن المرأة الحسية مثل (المرأة المجهولة) و (على البلاج) أدنى تبذل ، كما لا تجد هشاشة فى العاطفة . ومنشأ ذلك — إلى جانب تركيبه النفسى ووعيه الثقافى — قدراته الفنية ، فهو مسيطر على أدواته ، ومن ثم لا يقع فى مزالق الشعر الذى أطلق عليه الدكتور محمد مندور وصف (الطرطشة العاطفية) .. إن الشاعر المقتدر هو الذى ينظّم عواطفه فلا ينفلت منه قيادها ، بل يحكم التعبير عنها ، فينفى عنها الشوائب والنزوع إلى الغريزية الهابطة ، ويُبقى على العناصر القوية المضيئة منها . ولم ينحرف شاعرنا عن هذا النهج منذ قصيدته (نامت نهاد) التى اشتهر بها فى مطالع شبابه حتى آخر إنتاجه الذى بين أيدينا ، والذى يتضمن قصائد حب وذكريات استوحى فيها رفيقة حياته ، وأصدقاء صباه ومنهم الشاعر محمد الفيتورى ، و (بنات اسكندرية) . كما سكب دموعاً شجية على الراحلين مثل مراثيه لفوزى العنتيل ومحمد الدماطى وعبد الرحمن الخميسى .

ونستدل بقصيدته (على البلاج) على تصويره للدفء الأنثوى الحسىّ بلغة شفيفة ونسيج شعرى يمثل ذروة إبداعية دون أية شائبة من ابتذال ينحدر بالمُثُل الإنسانية الجمالية ويفسد ما يشعر به القارىء من متعة تخفف عنه بعض أعباء الحياة اليومية وهموم العصر :

تمدّد تحت مظلاته القزحية والنمل يزحف فى دمه مُغمضاً

روحَه وجفنيه فى خدَرٍ ناعمِ الخطوات ويرفع عينيهِ
ترتجلان الحوار مع الجسد الانثوى المشعّ البياض
تُمسِّده
قطرات من الماء منزلقات على الورد والزَّبَد المستريح
لدفء الرمالْ
والشمس تلمع .. فوق الموجات
خلف الموجات
غابٌ من الموجات
ازرق .. ازرق .. حتى يلاقى ازرقاق السماء
والكوب غافٍ إلى النصف مازال اشقر عريانْ
يقطر ماء البرودة مثل البياض المشعّ والورد
والزَّبَد المستريح لدفء الرمال
تدغدغه نسمة الماءِ
يسمع وشوشة الصخر والماءِ
سِرَب من الضحكات يرفرف عبر الموجات
يصعد .. يصعد بين الغمامات
زرقا وبيضاً .. ويهبط .. يهبط
فى الدفء والخدرَ المتنقلّ فى دَمِهِ
موجة إثر موجه
وتوقظه كفّها
يتساقط فى سمعه الصوت ازرقَ كالبحرِ
ابيض مثل النوارسِ
(عُدنا مِن السوق .. قُمْ .. حانَ
وقت الإياب واضيافنا سياتون
فى الساعة الواحدة ...) .

ولكن عالم نشأت لا يقف عند حدود المرأة المحبوبة أو الصبايا المرغوبات ورفاق العمر المفارقين ، بل يتسع فيشمل كل موجود وموعود من حىّ أو جماد وفى هذه الدائرة الإنسانية التى لا تخوم لها ولا مدى أفقاً وعمقاً نراه يلتفت بروح وامقة تحنّ وتحنو إلى مفردات الطبيعة كما نجدها عند كبار الشعراء فى العالم قديماً وحديثاً . رومانسيين وواقعيين .

وهو لا يخص الطبيعة الصامتة من مياه وصخور ورنجزم وسحاب باستلهامه إياها واتخاذها أحياناً رموزاً أو صوراً تعبيرية عن مشاعره ، بل يمتد بصره الحسىّ والباطنى إلى الحيوان الاليف ، فهو يستهل ديوانه بقصيدة (القطيطة والعجوز) فيعقد ألفة مؤثرة فى حساسيتها بين هذا الكائن الهامشى وبين رجل مستوحد فى أواخر العمر ، وكأننا نسمع حواراً هامساً بين روحين بائسين :

تسكّعت اشعة الشمسِ
ورقدت قطيطة نحيلةٌ
إلى جوار باب
والباعة الذين يزعقون
والحوار .. والسِّباب
وكان يمشى حاملاً رجليه ..
فى عينيهِ
دمعة يابسة
وحفنة من العذاب
اولاده تشردوا
فى المدن البعيدة الكئيبة الضباب
وزوجه لمّا تَعُدْ تلقاه عند الباب
وعندما استراحَ
فوق حافة الرصيف
تقدّمت قطيطة نحيلةٌ
قاسَمَها بقية الرغيف .

وتطالعنا صورة القط فى أحواله الرتيبة المتشابهة حتى تصبح بالتكرار من لوازم الشاعر ، مجسداً بها التوحُّد البائس ايضاً ، كما يرمز بها الشاعر ايضاً إلى الخمود أو الخمول الذى يُغشّى الريف بغلالته الكابية برغم سطوع الشمس ، حتى تكاد تتوقف دقات الزمن ، فلا معنى للوقت ولا للحياة . ومن ثم تشيع فى معجمه اللغوى الفاظ التمطّى والتمدد والتثاؤب والكسل ومشتقاته ومترادفاته مثل الخدَر ، يصف بها القط كما يصف الإنسان القروى ، وكأنهما صنوان فى عالم واحد أو وجهان لروح واحدة . وقد يومىء هذا التصور لدى الشاعر إلى عقيدة تناسخ الأرواح ، ومن المعلوم ايضاً ان للقط قداسة عند قدماء المصريين ويبدو هذا الحيوان الصغير قريناً للقروى فى قصيدة (صبى فى يوم عطلة) إذ تفتتح بمشهد يصلح لتصوير القط كما يصلح لوصف الصبى ، فلا يعرف المتلقى أيهما يقصد الشاعر إلا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بدءاً من البيت الثالث ، ويتم التوحُّد بين الكائنين فى الختام ، وكأنما نسمع من بعيد صدى صوت يتغنى بوحدة الوجود :

يتمطَّى كسلاناً .. كسلان
يتقلب فى دفء الأغطيةِ
ودفءالأمّ النائمة اليقظَى
يهرش ساقاً شوَّكها الصُّوفُ
ينام على الجنب الآخر
رائحة العرق .. سُعال اخيهِ
قطرات الصنبور
ويجىء الصوت المألوف النعسان
« استيقظ يا حمدان .. »
يتقلب فى الدفء الناعم
تتثاءب فى فمه الكلماتُ : « اليوم الجمعه ... »
ويشدّ الأغطية الصوفية فوق الوجه
والخدر الناعم يسرى .. يحتضن الإحساس
وينام
قطا ينعس فى ضوء الشمس

بيد أن القط قد يأتى ذكره أحياناً فى القصيدة كجزء من ديكور اللوحة لا يخطئه نظر الشاعر وإحساسه به أيضاً دون عقْد صلة بينه وبين الإنسان ، كما نرى فى مطلع قصيدة (وداعاً باريس) .

وتبدو النزعة الإنسانية فى أحسن تَجَلِّيَاتها لديه وأعمقها أثرا حينما تمتزج بالمشاعر الوطنية نابعة من عمق التعاطف مع الفئات المحرومة من أبناء الريف البسطاء العُنَاة ولاسيما الأطفال ، فى إيقاع رتيب شفيف الحزن كعهدنا به . فهو يقدم صورة تكاد تكون (فوتوغرافية) للمأساة لا مُفَجِّرة لها ، وتلك من أبرز سماته فى التصوير ، إذ يختار بعض المفردات من الحياة اليومية كأنها لقطات مُصور فيركز عليها ، مستغنياً بها عن الاستعارة والرمز والارتداد للخلف (الفلاش باك) وما إلى ذلك من التقنيات الحديثة ، ومعتمداً على الأسلوب القصصى باستخدام الفعل الماضى لتشويق المتلقى وإثارة مخيلته ، وعلى الفعل المضارع لإضفاء عنصر الحركة على المشهد ، مع المبالغة قليلا فى استعمال النعت) لتصوير الشخصية أو الشخصيات المحورية فى القصيدة ، مع التوفيق فى كثير من الأحيان فى رسم المواقف ، وابتداع التماعات شاعرية رفيفة ، وفى براعة أخاذة فى ختام عديد من القصائد (الكريشندو) ، وأغلبها قصائد قصيرة مبلورة مما يطلق عليها بعض النقاد اسم القصائد الومضية أوالبرقية أوالإبجرامات ، وهى مركب صعب لايسلس زمامه إلا لأصحاب الخبرة الطويلة بفن الشعر .

وتتبين هذه السمات المميزة لشعر كمال نشأت فى قصائده (هموم صبى من الريف)و (صبى فى يوم عطلة) و (فلاح مصرى اسمه محمدين) وإن امتازت الأخيرة عن الأوليين بالنفس الطويل ، وهو قليل فى شعر نشأت ، وبأسلوب القصّ لبعض وقائع من حياة هذا الفلاح الذى يمثل نموذجاً لسائر العمال الزراعيين فى القرى ، مع التركيز على الحلم والواقع فى ضوء نظرة عاطفية مستبشرة لا نجدها إلا لماما فى سائر القصائد ففى القصيدة الأولى التى تتألف من مقطعين يقول فى أولاهما المعنون (مشوار الصباح إلى المدرسة) مخاطباً الصبى الريفى :

خرجتَ لتبحث عن حطب فى الحقول
وامُّك تنفخ فى اول النار
محمرّة العين
حافية القدمين
ابوك يدخِّن .. يشربُ
كوباً من الشايِ
يسعلُ ..
يسعلُ
يستعجل الخبزَ
تحمرّ عيناه .. يحمرُّ حتى الكلام المقطَّعُ
حتى الغطاء الممزّق لفّ به جسمَهُ
وتَرْجع دامى اليدين
تجرّ وراءك ثقل الحطبْ
تخاف اباك إذا ما غضِبْ
وهَمُّك درس الحسابِ
وخوف العقابِ
ومشوارك المستَبدّ المميتْ
إلى المدرسهْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وخوفك عبر الحقول الفساحْ
ضبابَ الصباحْ

هكذا يدخلنا الشاعر معه فى قلب الحياة اليومية الرتيبة لأسرة فلاحية كادحة فى كوخها الواهن ، من خلال الأدوار الموزعة بين أفرادها الثلاثة ، والعلاقات التى تجمع شملهم ، والأحاسيس التى تضطرم فى قلب الصبىّ ، وكأنه يملك « كاميرا » أو شريطاً سينمائياً يسجل كل حركة وكل صوت وكل لون ، فى إيقاع سريع تحقق باستخدام الأفعال المضارعة المتتالية دون أداة العطف . ويقطع الشاعر فى السطر العاشر حبل الرتابة المتمثلة فى الواقعية الفوتوغرافية القائمة على السرد الشبيه بالنثر باستخدام المجاز الشعرى . فعينا الأب تحمران بسبب دخان الموقد فى الغرفة الضيقة ، ودخان التبغ ، ويحمرّ الكلام أيضاً ــ وتلك هى الاستعارة ــ كما يخرج متقطعاً مثل حلقات التبغ (استعارة ثانية) ونفثات السعال . ويتألق الشاعر مرة أخرى حين يفاجئنا بختام غير متوقع . فالبدايات عنده لا تشُدّ المتلقى غالباً ، ولكن النهاية دائماً ومْضيّة باهرة يكثّف فيها الموقف والمغزى ، وهى تقنية لا يجيدها إلا شاعر متمكن .

والعزف على وتر الحنين إلى ملاعب وخِلاّن الطفولة فى القرية ملمح أساسى ــ فى هذه المجموعة الشعرية وفى غيرها من أعمال كمال نشأت ــ ذو نَبْرَة مصرية بعيدة عن جو المأساة الوجودية الذى نعرفه فى مواقف شعراء الأطلال وهم يعبرون عن وطأة الإحساس بالزمن الذى يمضى علينا ثم يمضى بنا ، قريبة من هموم العصر كما نراها فى الأبيات الأخيرة من قصيدته (محمد الدماطى) ، إذ يمسك فى البداية فرشاته ليخط فيما يشبه اللوحة (البورتريه) ملامح فارس نبيل من أبناء النيل الثائرين على أرباب السلطة الذين لا يتورعون عن بيع الوطن نظير البقاء فى الحكم ، ثائر من أصلاب الفلاحين البسطاء الشرفاء ، يخشع حين يسمع ترتيل الذكر الحكيم ، ويسير هيمان فى مواكب أصحاب الطرق الصوفية ، ويهيم وجداً بالملاحم الشعبية .

وما يلبث الشاعر أن ينعطف إلى تذكار جَنّة الطفولَه التى أُلفت بينه وبين الصديق الغائب إلى غير عودة ، فتهل علينا دفقة من (عطر الأحباب) كتعبير شيخنا العظيم يحى حقى ، ونستاف رائحة الحقول الخضراء ، كما نصغى مع الشاعر فى عهد الصبا الجميل إلى زخّات المطر المتهاطلة . ولكن سر الإبداع يكمن فى تصوير « شقاوة » الأطفال وفى النهاية التى تهزّ أوتار القلب ، كما يتمثل فى اختتام القصيدة بنفس مطلعها ، وفى الجدّة والجراة فى التركيب اللغوى باستعمال الفعل (يركض) مجرداً من حرف الجر (على) الذى يتبعه لزوماً فى صيغة الدلالة على المكان :

أيام كان المجد ان ندقَّ
باب شيخ الخفراء
ونختفى
ان نصعد النخيل والجمّيزْ
ونعبر الترعة او نعودَ
بالبلابل المقيّده
ان نركض الدروب تحت غابة المطرْ
ونشرب السحابْ
ان نخطىء الحسابْ
فى عَدَد الكواكب الليليّه
محمد الدماطى
ينام فى مقبرة منسيّه
فى قرية تجهلها الخرائط
ولكن ..
تعرفها المنيّه

وإذا كان الشاعر يبدع فى استخدام الترديد ، والترديد خاصية فنية عريقة فى شعرنا العربى كما نجدها فى قصيدة مالك بن الريب المشهورة ، وليست مقتبسة من توماس إليوت كما يذهب بعض الباحثين ، وإن كانت أكثر تطوراً بالضرورة عند صاحب (الأرض اليباب والرجال الجوف) ، فإن كمال نشأت لا يُوَفّق دائماً فى استخدام هذه الخاصية ، إذ تصبح أحياناً مجرد متكأ للاسترسال ، ومن ذلك افتتاحه كل أبيات مرثيته للخميسى بعبارة نثرية هى (أقسى ما يلقاه غريب) . غير أن هذا النموذج الذى أدى إليه ابتسار التجربة وعدم اختمارها ، هو الاستثناء . فالقاعدة هى الإجادة فى توظيف صيغة التكرار ، والشواهد متعددة ، ومنها (قبرة وضريح) التى تتكرر فيها هذه الجملة التى اتخذها الشاعر عنواناً للقصيدة ، وقصيدة (يا بنات اسكندرية) إذ جعلها الشاعر مفتتحاً لكل مقطع دون أن ينحدر إلى آفة التكرار الممل ، لأن هذا النداء من الأغانى الشعبية التى سكنت أعماقنا ، واقترنت بأجمل ذكرياتنا (يا بنات اسكندرية مشيكم فى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البحر رغيّه) فأصبح ترديدها كل مرة مثار ابتعاث لنشوة المتلقى .

يا بنات اسكندرية
هل رايتنّ حبيبى ؟
طافراً فوق ازرقِ البحرِ
والريح .. غريبَ الأبجدية
ــ ياصبيّه
كل من مرَّ بنا هذى العشيّه
ليس مَنْ تبغين .. عودى
فالرياح السُّود والأمواج غيلان عتيّه
وابوك الشيخ يحتاج إلى عطف الصبيه
ــ يا بنات اسكندريه
هل رايتنّ حبيبى ؟
من هنا سافر فى الريح إلى ارض قصيّه
ــ يا صبيه
كل من تحمله الأمواج لا يرجعُ
عودى واستريحى
فى بلاد الناس كم يمشى غريب
باكياً يوم النزوح
ــ يا بنات اسكنديه
كيف تجهَلْن حبيبى
إنه إن غاب عنى وعن (الرمل)
فللعمر بقيّه
قادِمُ
فى
الريح .. والأمطارِ
ابن اسكندرية

ومن ثم تعد هذه القصيدة مثالاً لمقدرة الشاعر فى توظيف التراث الشعبى ، كما أنها تدل على نجاحه فى الاقتباس من مصدر آخر هو (نشيد الإنشاد) (يا بنات أورشليم إن رايتن حبيبى فأخبرنه أنى مريضة حُبًّا ، أنا لحبيبى وحبيبى لى .. حبيبى مدَّ يده إلى الكُوَّة فأنّت عليه أحشائى) . وتتحول أورشليم فى القصيدة إلى منطقة الرمل فى مدينة الاسكندرية ، والاقتباس المشار إليه مقصور على صيغة النداء (يا بنات) وصيغة الاستفهام مع تحوير طفيف (هل رأتينّ حبيبى ؟) . فالمعانى والصور حديثة ، وهى تحمل ــ من ناحية أخرى ــ عبير حكايات ألف ليلة عن السندباد الملاح ، والمسافر المغامر الذى يركب بساط الريح كطائر الرُّخّ الخيالى فى هذه الحكايا . ويوظف الشاعر هنا أيضاً أسطورة الغيلان البحرية ، وهذا الاستيحاء من عوامل الجمال الفنى للقصيدة ، إذ يسهم فى إبراز ملامح مدينتنا الجميلة على ساحل البحر المتوسط ، ويستحيى عبق التاريخ والأساطير .

ونلتقى بالأساطير عند كمال نشأت مرة أخرى كمفجر للرؤيا وأداة للتعبير الفنى بالإيحاءات فى تضمينه قصيدتيه (العاصفة) و (أقدم خوف للإنسان) صورة الجِنِّيات ساكنات الآبار والبحار ، مع ربط الخيال بالواقع بيئةً وشخوصاً وأحوالاً نفسية واجتماعية ، ومن شأن هذا التضمين أن تتوهج أجنحة الرؤيا وتتداعى لمحات شكسبيرية حيث مشهد الساحرات والجِنِّيات فى مسرحياته ، وأطياف من الميثولوجيا الريفية المصرية حيث خرافة الجِنِّيّة (النَّداهة) التى تسكن فى أعماق الترع النيلية .

وقد يعمد الشاعر فى بعض قصائده إلى تضمين مأثورة من الشعر يتخذها افتتاحية يلج منها إلى الفكرة أو الإحساسة التى يختلج بها قلبه والتى قد تخالف إلى حدّ المناقضة معنى تلك المأثورة ، ومن ثم يُعَدُّ هذا التضمين (تيمة) لمواصلة الأغنية وربط أجزائها بعضها ببعض كما رأينا فى توظيفه نداء (يا بنات اسكندرية) . ومن هذا القبيل استعارته من الشاعرين الخيام وأبى ماضى تلك الفكرة الميتافيزيقية فى مأساة الوجود البشرى المقهور بقوة الدهر الخفية المتسلطة ، بعد تحوير فى قصيدته (وجودية بلا يأس) التى يفصح عنوانها عن معناها المترتب على موقف شاعرنا من الحياة كما عبر عنه منذ البداية فى عنوان مجموعته الشعرية (النجوم متعبة والضحى فى انتظار) وإن كان يقترب من حافة اليأس فى قليل من أشعاره ولاسيما المراثى ، حاملاً بذلك أهم خصائص الشعر الغنائى وهى التعبير عن خواطر الشاعر وتأملاته بين الشجن وبين الفرح وغيرها من الخوالج الشعورية ، دون أن يتسم بالمبالغة فى نبرة الحزن والمرارة التى يتميز بها الشعر الرومانسى فى طابعه العام بوصفه شعراً ذاتياً لا يستمد ماءه من نبع الواقع ، ونابضاً أيضاً بروح الشخصية المصرية الريفية فى صبرها على معاندة الأقدار القاسية واستبداد الطغاة الحاكمين ، وعشق الحياة فى ظلال السلام مهما قل نصيبها من مباهج العيش ومسراته .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومثلما يوظف نشأت الأساطير والأغاني الشعبية فى شعره ليسقطها على الواقع فى نسق متآلف رفّاف ، يمزج أيضاً اللغة التراثية بمفردات وصيغ من لغة الحديث اليومى والحكم والأمثال المتداولة ، مرة على علّاتها ، وغالباً بصَبِّها فى قالب الفصحى قاصداً من ذلك مقاربة الجو المحلى فى عفويته وبساطته ، ليكون النص مرآة صادقة للواقع ، وروحاً متوهجة بأنفاس الحياة ، ويتم بذلك التوحد بين ذات الشاعر وبين الجموع ، فلا يصدر الشاعر عند أحلامه وآلامه وهواجسه الفردية ، بل يمتح من بحر الشعب الصاخب .

ومن الطبيعى أن يكون الاقتباس من قاموس اللهجة العامية فى القصائد المستوحاة من شخصيات أو أجواء شعبية لإضفاء نكهة محلية عليها . فهو يستعمل لفظ « الدوار » المقصود به دار عمدة القرية ، ولفظ « بدرية » كصفة لحبة القمح ، فى قصيدته (محمد الدماطى) ، وكلاهما يقتضيه عنصر الملاءمة للمشهد القروى ، ويذكر الشاعر (شيخ الخفراء) ، فى روايته لمعابثات الأطفال إذ يدقون بابه المهيب باعتباره رمز السلطة ثم يختفون ، ويعدِّد مسارح اللهو ومناظر الطبيعة من نخيل وجميز وترعة وبلابل يصيدها الصبية ويقيدون أجنحتها . وفى قصيدة (فلاح مصرى اسمه محمدين) يستعمل عبارة فتى « عليه القيمة » للدلالة على العز والسؤدد عند أهل الريف والأحياء الشعبية وفى قصيدة (إلى مودى) يذكر عنوان بيت المغنى الراحل طبقاً لمنطوقه فى الواقع المعيش : نسج حياة كانت فى « ٣٠ فخر الدين شبرا مصر » .

أما الاقتباس من معجم الأمثال والحكم الدارجة فى قوله (إنه إن غاب عنى وعن « الرمل » ، فللعمر بقية) من قصيدته (يا بنات اسكندرية) ، وتضمينه مقولة (اللهم لا اعتراض) المتداولة بين أبناء الشعب للتعبير عن تقواهم وإيمانهم بالقضاء والقدر كلما ندّت من أفواههم كلمة تحمل شبهة الريبة فى الرضا بالمقدور والمقسوم من الحظوظ ، إذ يقول بلسان (محمدين) فى القصيدة التى تحمل اسمه :

وامراتى بهية
أنجبت .. لم يعش لى ولد ولا صبية
هذا نصيبى .. لا اعتراض لى
أستغفر الله .. ومن أكون حتى اعترض
حكمته العليّه

وتتضمن هذه القصيدة أيضاً الجملة الدالّة فى المعتقد الشعبى على سبب النجاح وهى (دعاء الوالدين) ، والجملة التى تفيد غاية المراد فى هذا المعتقد ، وهى الدعاء للأهل والأحباب بالستر ولا تبـــدو مثل هذه المقتبسات مقحمة ، بل هى من خيوط النسيج الشعرى المضفور ، حتى فى القصائد التى يعمد الشاعر أن تكون سهلة فى الصياغة أقرب إلى تراكيب اللهجة العامية لتصبح فى متناول القارىء العام ، أو لتوائم المضمون ، وهو تصوير السذاجة الريفية أو الطيبة التى فطر عليها أبناء الشعب البسطاء عامة .

ومما يلاحظ فى هذا السياق أن كمال نشأت قد يفريه المقصد المشار إليه بالمبالغة فى إيثار سهولة الألفاظ والتراكيب والمعانى ، فتصبح القصيدة أجدر بالنثر منها بالشعر ، وأقرب أحياناً إلى القصص والأشعار المنظومة للأطفال لأغراض تربوية ، ولكن هذه الهفوات لا تشوب إلا بعض المقاطع إذ سرعان ما يرتفع المستوى فى المقاطع الأخرى ، أو تتخللها ومضات إبداعية .

ويستدل من النماذج السابقة على نزوع الشاعر إلى تصوير المعتقدات والعادات الشعبية السائدة دون الاكتفاء بوصف مظاهر الطبيعة والبيئة ، وهو يغوص أحياناً فى أعماق إنسانها ، فيسجل فى أداء شاعرى بعض القيم الأخلاقية التى يتمسك بها كخطابه فى قصيدة (يا بنات اسكندرية) للصبية التى تسأل أترابها عن حبيبها الغائب حتى تكف عن التفكير فى السفر إليه : (وأبوك الشيخ يحتاج إلى عطف الصبية) . وفى هذه القصيدة يَتَبَيَّن مدى ما أصابه الشاعر من توفيق فى التأليف بين أجواء تعبيرية ورؤى مختلفة ، فهو يراوح بين الحقيقة والأسطورة ، كما ينتقل من « الفانتازيا » بمعنى الجمال الخيالى إلى الشعبى الواقعى ، وتتنوع فى ذلك مصادره الثقافية .

ويبقى القول بأن ذروة ما يبلغه نشأت من إبداع شعرى تتحقق فى القصائد التى تعبر عن شحنة شعورية جاءت ثمرة تجربة امتلأت بها الكأس حتى فاضت ، فكانت المشاعر أكثر سيطرة من العقل والتخطيط مما منح العمل الفنى عفوية الحياة ودفئها . والنموذج الساطع فى هذا الشأن هو قصيدة (وداعاً باريس) التى تحمل خلاصة خصائص كمال نشأت الفنية والنفسية :

القط الأسود
يتمطّى
بجوار النافذة الوسْنَى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ورذاذ مثل دموع الفرح الطفل
يتساقط فى ورق الأشجار الممتدة
إسراع العمال على الأرصفة المبلولة
وصرير العربات المتثائب
وبقايا ليل باريسىّ من اكياسٍ ملقاةٍ
وكؤوس ورقية
عربات اللبن .. وصحف اليوم الطالعْ
اسماء مخازنْ وشوارع
تتوالى فى إيقاع لاتينىٌّ حلو
والتاكسى يحملنى تحت رذاذ الضوء الممطرْ
نحو مطار « ديجول »
ائتلفَت حولى مكسور القلبِ
أُوَدِّع باريس ...

القاهرة : د. حسن فتح الباب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الوتـد الأخيـر

بـدر تـوفيـق

فى كهف الليل الأوّابْ
فى القبو الخلّابْ
فى الصوت الهيّابْ
فى الشجَن الغلّابْ
فى الوَهَج المرتابْ
يسقط ذهبى وصراط أبى ،
وأنا ماء ، لهبٌ ، ريحٌ وترابْ ،
يا وجهاً يسْكننى ،
ماذا يغريكْ ؟
ماذا يفتننى !

* * *

كان لون الظلال بلون انفعالاتنا
وعواطفنا وانتظاراتنا والأمانى الجُدُدْ ،
كلّ ظلٍّ على الأرض كان بلون الشجيراتِ
لون الأخاديدِ ، أصحابها ، والغماماتِ ، فيضِ البَرَدْ ،
كان ظلّى إذا امتلأ القلب يأساً يصير رماداً
فإن فاض صوت المغنّى بطيف جميل تلاشت ظلال الكَمَدْ
كل ذلك حيناً فحيناً سرى وشَرَدْ ،
يا صفىَّ النهار الذى كان ظلاً حميماً ،
إذا البَرْدُ جاء وقلب المحبِّ ارتعدْ
أين ما كان بالأمس صوتاً ولوناً وشكلاً ومعنى ،
كيف تسلّل من أحبالى الوتدْ ،
وتهاوت فى أرجائى العُمُدْ !

* * *

ها هى ريح الحبّ من بلادنا غاضبة تَهُبّ
تصبُّ فى صدورنا الغضبْ ،
وفى عراء الحقّ أنت نخلة عالية جميلهْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تهبُّ فى ارتفاعها الريح العليلة الذليلهْ
فتنشر اللِّقاح فى عُقم الخميلهْ ،
وتنهض الرؤى فتنظر العينُ الكليلهْ
مهاجرين فى شرور الأرضِ أُمّاً وأباً وولدْ !

* * *

أيتها المدائن الفارغة المزدحمهْ
تَدافُع المناكب الهاربة المقتحمهْ
تنافُر الضفائر المحلولة الملتحمهْ
والكلمات المُحْرقات الناعمه ،
هذا الضياء الباهر اللافح ما أفحمهْ !
ما بين خيط الفجر وانسكاب ثوب الليلْ
مَرَّتْ وسَرَّتْ ثم كَرَّتْ واكفهرَّتْ
واستقرّت فى الكفوف الحمحمهْ
والغضب المُشِعُّ والإيثار والمصافحهْ ،
أيتها المدائن الدائنة المدينة الكريمة المسامحهْ
أيتها الرافضة المسكة المانحهْ
خنجر من هذا الذى أُغْمِدَ فى الأجنحه ؟
جئت إليك صاخباً كالريح فوق الأكَمَهْ
دم الحياة غائر تحت سطور المرحَمَهْ
وهذه الأضلاع من تبغ المخاوف الكِثار فاحمهْ
فيَا لَنا من الوجوه الصادِمه !
أيتها المدائن المباحة المحَرَّمَهْ
أيتها الكآبة المنادمهْ
أصواتَنا الذبيحة المدمدمهْ
والقُبَل المنصورة المنهزمهْ !
.....
معجزة كبرى ، ولغز كبيرْ
أن تتبقّى هذه الخيمة قائمه
بعد سقوط كل أوتادها . ! .

القاهرة : بدر توفيق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اعترافات عاشق

إلى الإسكندرية

أحمد سويلم

تقومين من ليلكِ السرمدى
عروساً
ومعشوقةً
ومُطاردةً من زمانِ المحنْ ..
قيل : كلُّ النساء يشاغلْن كل الرجال
فيُشهرنَ فتنتهنّ
ويُسقطن أعمارهن
ويُبعثن من ظلمات الزمنْ ..
قلتُ : لكنّ معشوقةَ القلب ليست ككلِ النساء ..
اشتياقُ العيون .. قديم
ولونُ الشفاه .. قديم
وهذا الشراعُ الذى سكنَ القلبَ .. لم يُمتهنْ ..
قيل : يَكثُر عُشَّاقُها .. تتعددُ أسماؤها
وعناوينُها
ومنائرُها ..
كيف تعرفُها بين تلك المدنْ . ؟
قلت : فى يدها خاتَمُ الملْك
فى بحرِ اعينها الفلْك
فى كأسِها يتناهى الزمنْ ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ إنها ظبيةُ العشْقَ .. والشوق ..
اذكرُ لُعبتَها المشْتهاةَ
اعُدّ انامِلَها .. واخُطُّ عليها الحكاياتِ
اذكرُ دمعتَها ..
والأغانى التى حين أُنشِدُها فى الصباحِ
تجدّدُ شمْسَ ابتسامتِها .. فأُجنّ ..
ثم حين استوى العودُ
واحتدَمَ الخَصْرُ ..
وانسَدلَ الليلُ
واستعرَ البرقْ ..
أقبل من زبَدِ البحرِ من يطلبُ العشق ..
ـ كان لساناً من الملح ..
سيفاً من الجرح ..
كان يخطو بهُدبيْه بين يديْها
وينثرُ كلَّ اليواقيتِ .. كلَّ الثمن ..
ـ يا هراوتَه اللؤلؤيةَ
ياتاجَهُ الذهبىَّ
وياشارةَ الجُرحِ .. والفتحِ
والصفحِ .. والفرحِ
ياللندى .. والمِنَنْ ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ ساعلتْه عن الحُلم ..
زلزلَ من أجلِها الأرضَ .. واتخذ الموجَ أحصِنةً
خطَّ أسماءها فى القفارِ .. السّهولِ .. المنائر ـ
فاتنةً ـ
صارت الأرضُ بين يديها الوطنْ ..

ـ ساعلتنى عن الحُلم ..
قلت : أنا .. وطنى فى عيونِك
ـ حين يَعِزُّ الوطن ..
وأنا .. قِبلةُ القلبِ صوبَ جبينِكِ
حين تهُبُّ المحنْ ..
وأنا المَلّك .. والصولجانُ بكفّيك
ـ ما غاب .. ما عاد
حين أريدُ السَّكَن ..
.....

ـ أقبلت طفلةُ الحبّ هائمةً
تملأ الكأس لى ..
تلبَسُ الآن زينتَها المُخمليّةَ
تُسْقطُ أحلامَها الوثنيةَ ـ
تفتح باباً إلى البحر ..
تُبعد عنى الوسَنْ ..

ـ إنها الآن تُقبلُ من ليلِها السَّرمدىّ
عروساً
ومعشوقة ...
وأنا .. فى هواها أُجنْ ..
فى هواها أجنْ !

القاهرة : احمد سويلم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصيدة التعب

• وليد منير

.. ولكني اسأل
هل حقاً ياريلكه
• قريبةٌ هى البلدُ التى يُسَمُّونها الحياة ، ؟ !

تنحنى
ثمّ تبسطُ راحتها
ثم تجلو مرايا السنين
وتسألُ وجهى عن الأَبجديةِ ، والحلمِ
تقطفُ من حوضِ أيّامها وردةً
وتُقَدِّمُها لى
تُرَتِّبُ أغنيتى
وتعيدُ الكتابَ إلى رَفِّهِ
وتقولُ : انتظرتكَ هذا المساء طويلاً .

على حَذَرٍ
بأناملَ مرتعشاتٍ
وعينين ذابلتين
تصبُّ بفنجانِ جارتها قهوةً
وتُحَدِّثُها عن فراشات أحزانها
وأمرُّ سريعاً
ولكنها لا تمرُّ سريعاً
أمرُّ إلى النومِ
لكنـــها لا تمـــرُّ إلى النـــوم إلا إذا
لملمت من حديقة روحى
الورودَ التى بعثرتنى هنا وهناكَ
وفى الصبحِ
تجمعها باقةً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتقدِّمُها لى
تُرَتِّبُ فوضى يدى
وتعيدُ السماءَ إلى عهدها من ينابيعِ زرقتها
وتقول : احترسْ

آهِ
كم أتعبتنى الورودُ
وكم أتعبتنى الأغانى
وكم أتعبتنى الكتبْ !

يا إلهى
أنا لا أريمُ
مراياىَ مكسورةٌ دائماً
ووجوهى مشتتةٌ
فى ثلاثين رعشةِ غصنٍ
وعاصفتى تترامى إلى حيث تخفقُ أجنحةُ الطير
بين النجومِ
ومن أصدقائى
كثيرون لا يفهمونَ
ومن أصدقائى
كثيرون يَنْسَوْنَ أو يتناسَوْنَ
وحـــدكِ
متعبةٌ بى
ووحـــدى

أمرُّ سريعاً
وياليتنى
لم أمرَّ إلى لحظةٍ
تركتنى لعينيكِ مثل شعاعٍ من الدمِ
ياليتنى
لم أُخَلِّفْ لذاكرتى شهقةً
عندما صعدتْ فجأةً من خطاكِ
إلى نَفَسٍ فى الضلوعِ
توقَّفْتِ عن لَمْسَتِى .
تُصبحين على خير
ها أنذا أتسلَّلُ من غرفةٍ فى شبابى
إلى غرفةٍ فى تباريحِ شيخوختى
سوف أترك فوضى يدى
فى الزوايا جميعاً
ولا . . .
لست أهتمُّ بعدكِ
أن تستقرَّ ورودى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا أن تـدورَ أغـانىَّ كـالكـأسِ
والأصدقاءِ بـين المنـازلِ
ولا أن ترافقنى كتبى فى حنانٍ
إذنْ
تصبحين على خير
كل شموسى كما هِىَ
مقسومةٌ بين نافذتى ودموعى
وكل دموعى كما هِىَ
مقسومةٌ بين حَظىِّ وحِظِّكِ يا أُمُّ
لن تجهدى نفسكِ الآن
فى طلبى
لن تَرُدِّى البهاء عن الحزنِ
لن تكثرى من عتابى
ولن تهمسى لى : احترسْ
متعبٌ بكِ
حتى نهايات هذا الفضاءِ
ووحدى
أنا متعبٌ بكِ
لكننى لن أسامحَ هذا الهواءَ الذى فَرَّ
من صوتكِ المتهدِّجِ دون رجوعٍ
ولا
لن أسامحَ هذى المياه التى هبطت أعمق البئرِ
لا
لن أسامحَ هذا الترابَ الذى أطفأ النارَ
ما أبعد النور ياأُمُّ
ما أصعب الطرقات
وما أجمل الحلم حين يرفُّ على جبهتى
فأقوم على حذرٍ
بأناملَ مرتعشاتٍ
وعينين ذابلتين
فأسكبُ فى كوبِ روحكِ قهوةَ أسئلتى
وأقولُ : لماذا ؟

القاهرة : وليد منير

إلى الصغار الذين نعقد عليهم كل الآمال

وإلى الكبار الذين لم نفقد فيهم بعد كل الآمال
أهدى هذه القصيده .

من أقوال الشاعر الذى دس أنفه

فى أنف حضرة الملك

نصار عبد الله

إنى أوْكَلْتُ عليك المائل والميّالْ
إنى أوكلت عليك الحالْ ...
أوكلت الحال فمَنْ سيكيل اليوم بمكيالين
ومن سيكيل بمكيالْ ؟
إنى أفصحتُ وصرّحت وأوضحتُ ، فإن كنتَ عنيفاً
كُنْ يا مولاى حصيفاً
لا تأمر سيّافَك يقتلنى
اسْفَلَ عرشك لا تدفنىّ
هل يدفنُ برغوث فى مقبرة الأفيال ؟
كِلْ يا مولاى بمكيالْ
الشعراء براغيثٌ .. هذا وصفك لا وصفى !
فإذنْ .. هل تقدر تُبْصر لى نصفينِ ،
لكى سيّافُك يقطع نصفى ؟
الشعراء براغيثٌ .. حسنٌ ... فلأدسس فى أنفك
أنفى
أَرِنى ماذا تفعل .. تهرش عبثاً
أم تجدع أنفك حتى تنجو ؟

عبثاً يا مولاىَ .. فهأنذا أتسلّل عبر دروب الأنفِ إلى
الأذنين
أسكب فى قنوات السمع صراخ الأجيال
كِلْ يا مولاى بمكيال
وتذكَّرْ أن الشعراء الفقراء .. ،
وأن الفقراء الحقراء
هم أغنى من فى الدنيا .. !
هم زانوا رأسك بالتاجِ ،
ووشّوا عرشك بالعاجِ
وهم فرسانك .. خلّانك أعوانك حين تضيقُ الحالُ ،
وهم حكّامك سادتَك الأعْلوْن .. قُضاتك إن شئتَ ،
وجلّادوك ومُلْقوك إلى دركٍ ،
فيه ملوك من قبلك غرّهمو طيبُ العيشِ ،
فكالوا الناسَ بمكيالين
فكالهمو الناسُ بمكيال .

أسيوط : نصار عبد الله

قصيدتان :

● كأنا التقينا !

●● كأى دمية يكون ذلك الوطن !

ناجى عبد اللطيف

١ كأنا التقينَا . !

كأنَّا التقينا على حافّة ..
من فراقٍ جديدْ .
تردُّ إلى العين خُصْلَة قلبىَ .. ،
ثم تروحُ .. ،
فلا يُبْصِرُ القلبُ غير الحنينِ ..
وغير الحنين ..
وغير الحنينْ .
كأنا افترقنا على حافةٍ ..
من لقاءٍ حزين . !
تدورُ ..
أدور ..
فتهربُ كل الفصولِ من الحقلِ .. ،
تهرب كل التواريخ ..
والأغنياتِ ..
تراود ساعى البريدِ عن القلبِ .. ،
كيما تعود إليهِ الرسائلُ ..
والأسئلهْ . !
كأنَّكَ تمنحُ عُمرىَ هذا السرابَ ..
السرابْ .

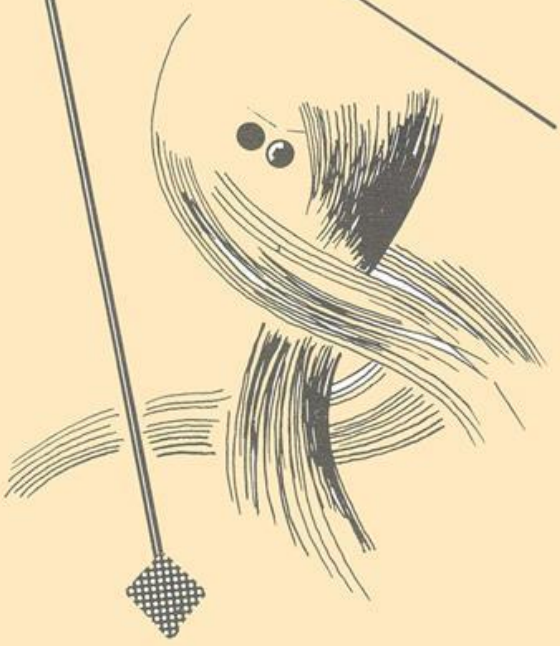

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أُحدِّقُ ..
ما اسمُ الجوادِ المسافرِ .. ؟
ما اسمُ الرحالِ التى عبرتْ أمسىَ ..؟
خارطة القلبِ .. ؟
ما اسمُ الغريب الذى راودتهُ المسافاتُ .. ،
حتى أقَلَّتْهُ تلكَ القوافلَ عنَّا بعيداً ..
بعيدْ . ؟
أُحدِّقُ ..
لكنَّ ..
وحْدِى معى .. ! ،
(ليسَ لى فى الرحالِ مكانْ أخيرْ)
أحدِّقُ ..
لكنَّ ..
شيئاً أخيراً تبقَّى لنا ..

٢ كأى دُمْيةٍ ..
يكونُ ذلك الوطن . !

كأىِّ دُمْيةٍ .. ،
يكونُ ذلكَ الوطنْ .
بينَ الأصابعِ الفؤادُ ينْكسرْ . ،
فيرحلُ الغريبُ عن بلاده الغريبهْ . ،
مُخلِّفاً وراءهُ الضَّجَرْ .
يدورُ فى رتابة السؤالِ .. والسَّفرْ . ،
كيما يعود للوطن .
(يا أيها الطريقُ رُدَّنى إليهِ ..
ردنى إلىَّ ..
لا أنا ارتضيتُ أن أفارقَ الحبيبَ ..
لا .
ولا الوطنْ .
لكنه العفنْ . !
فها أنا .. ذا . ،
والفؤادُ يُعْتَصَرْ .
ياأيها الجرح الذهبْ .
من يا تُرى بـالأمس قـد ذهب .؟)
يدورُ .. لكنْ .
فى آخر المطافِ .. ،
فى المطاراتِ الحزينهْ .
تراهُ عائداً ..
يفتشُ الحنينُ فى جوازِ ذا السَّفرْ .
عنْ بهْجَةِ الوصولِ ..
الفةِ المكانِ ..
فى عيون من حَضَرْ .
تراهُ شارداً .. ،
يعانقُ الخطرْ .
حُطامَ دُمْيتهْ . ،

اسكندريه :
ناجى عبد اللطيف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جسد

منير فوزى

سلام علىٰ كلِّ شيءٍ أراهُ ،
لأن الحبيبةَ ماضيةٌ لاختراقِ الفصولْ
ستُرخى عنانَ فراشتِها ،
وستسدل جَنْحَ يمامتِها ،
وتمرُّ علىٰ جسدٍ من نخيلْ
تقولُ له : أيهذا الجسدْ
ترفَّقْ بقلبى ،
لأن حبيبى سيمضى إلىٰ حَتْفِهِ
فوق صدرى ،
وفوق نشيد الحقولْ .
لمستُ يديْها ،
فحطَّ العبيرُ علىٰ وجنتىَّ ،
وطار الحمامُ .
وهدهدنى طائرُ البَرْقِ فَى شفتيْها ،
وحلَّق صوب السماء البعيدةِ ،
ثم تناثر فى الأفقِ محتمياً
بالغمامْ .
فقلتُ : أحبّكِ ..
يا من وهبتِ العصافيرَ ألفتَها ،
واختيارَ البلدْ .
وقلتُ : أحبكِ .
يا من تُعيدين للقلبِ سقطتَهُ
وانكسارى ،
لأن البلادَ التى اشتهيها : بدد .
وكنتِ تمرّين من ساحلِ النيلِ
حتىٰ الأصيل
وتلتفحين بنافدة الإنتظار الملول
وتستودعينَ الزبدْ .
وكنتُ أُعرِّى الزمانَ الجميل
وأفرش عمرى بمقدار ما يحتويه الجسدْ
لأن الحبيبةَ ماضيةٌ لاختراقِ الفصولْ
ستُلقى بكاملِ ألفتِها فوق صدرى ،
وتكسِر كلَّ الضلوعِ التىِ قدْ
تبقَّتْ ،
وتنسج من شوق قلبىَ : ذكرى ،
تطاردها فى صباح الأحدْ
وتدخلنى بُغتةً ،
وتردُّ الفراشةَ لى ،
والحقول
وعُمْراً .. شَرَدْ
سلامٌ علىٰ كلِّ شيءٍ يغيب ،
لأن الحبيبةَ ماضيةٌ فِى اختراقِ الجسدْ

منير فوزى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ماثل فى التوافق

مشهور فواز

هكذا كانَ من غير زينته
رائقاً كالنسيم على شاطىء النيل
هانئاً بمحارته
زاهياً فى جلابيب من يعشقون ولا يكتمون
ليس يغلبه الغالبون
ولكنه ــ شأنَ نرجسةٍ ــ ماثل فى التوافقِ
مُدَّرِعٌ بالغصون
رُبَّما أفزعته البلاد التى تطمئنّ لرقدتها
والرؤوس التى لا تفتِّشُ عن غيرها فى الصُّحفْ
والبيوت التى نسيت فى العواصف أعضاءها
رُبَّما استدرجَ الموتُ نافذةً فى الجدارِ
فطار عن العُشِّ طيرٌ

وأنكرت الأرض ميعادها
واختفت فى السكون
ربما ..
ولكنه .. سوف يشرب قهوته
وَيُسِرُّ لِنَأْدِلِهِ ؛ أن بعضَ الملامح غائمةٌ
غير أنّ الصباح له موعد ــ ليس يرجئه
والغناء له سمْت جُمَّيزةٍ
واكتمال ظنون
إنه الآنَ ..
لَمَّا يزل صافياً كاعتراف المحبّين
بينما الخيل ترتاد أوردةً
وتعيد الدماء إلى النبع ..
مِنْ غير زينتِهِ الآنَ
ليس يفكُّ انتباك دماهُ
ولكنه ..
سوف يبقى لديه دليل على أن للأرض دورتها
والبلاد التى تحت جلد المحبين
قادرةٌ أن تكون .
.. ..
.. ..
إذ أرى زحمة العابرينَ
أحتمى بالضجيجِ
وأدخل مملكة الماءِ
وَبَلاْ وجلٍ
أتقَمَّصُ هذا النماء .

القاهرة : مشهور فواز

محمد أبو الفضل بدران

الثلج المتساقط فى أعماقىَ
يُنبىء أنى لا أهواك ،
لكنّ القمر الثلجىّ يُسافر بين ضلوعى ،
يُقسم أن الليل سينفض أجنحة الطير المبتلّة .
آه .. لو أغدو طيراً يتطهر فى « نيلك » من أوزار الفسق الغجرىّ ،
ومن أدران الحلم المتهالك شُهباً والمتساقط فوق نيازك هذا الليل المذعور ،
فمن يتجلّى فى ذاتى ،
أو أتجلى فى النورس كى أُبحر نحو النيل ،
فيبتلّ جناحى فاكهةً ، أبًّا ..
وأحلّق فوق « الأزهر » كى أنفض أوزارى أو أرتاح قليلاً مما حملته يداىَ ،
فظلّى لا يعرف للنوم فؤاداً مُذْ أُغلق باب الهرم وقلبى لؤلؤة نائمة فيهِ ،
ومهما سافرت فإنى ذاك النورس ؛ مَنْ إذْ تسأله عن عُشٍّ فيؤلّف وطنا
من أسفار التكوين ويبنى من ظلّى وطناً فأنام بظلى ..
كى أُبعث يوماً فى وطنى !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحرف الأول :

هذا صوتٌ عربىٌ ..
يمَّمت لأُلقى مجدافى فى شاطىء ذاك الصوت ،
فمذْ رحل الصيف ببلدتنا وتناسى الناس الحلم المتراقص فى أوردتى ،
وأنا أسأل عن صوت عربىٍّ ..
هذا صوت عربىٌ مرسوم بين شراييني ،
آخذ وجعى مُستنداً فوق جدار يوشكُ أن يُبنى ،
لكنّ عيون الصوت تسافر فىَّ وتَبنى منتجعا
فأسارق طرفى كى أتقمّصَ شفتىّ فألثم هذا الصوت المتنامى عبر يدىَ ..
فألمسهُ ، آتى مقترباً فوق « سجاجيد » الهمس وأسألها :
مَرْحى .. من أى بقاع الأرض أتيتِ ؟
فتجيب بصوت عَجمى :
ــ ماذا كنت تحدث نفسك ، إنى لم أنطق منذ رأيتك حرفاً !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحرف الثانى :

هاأنذا فوق « الراين » ملتحفاً بالحزن ، أغنّى فى أغلفة الصمت الثكلى ،
أجمع شمل حروف اللغةِ ،
وفوق الرّمل ــ صبيّاً ــ أبنى منها بيتاً
يأتينى الموج فيسرق حرفين ،
فأركض إثر الموج فيُلقى ما قد سرقَ
أضمّد جرح الحرفين وأرجع لكنْ أُلفى ما قد جمّعت تلاشَى
إذ حفرت كل حروفى سرداباً نحو النيل ، وتمضى
ألقى بالحرفين إلى الموج وأغدو حرفاً !

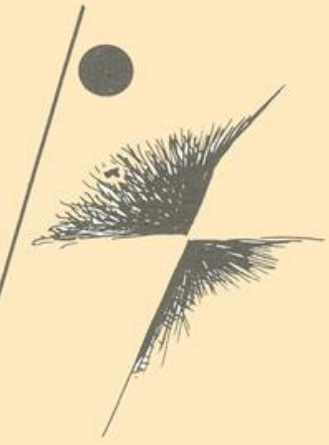

الحرف الثالث :

ماذا يتبقّى فى ذاكرتى غير حروف شتى
تتجمّع كى تتلاقى وتؤلّف من هيكلها إسما لحبيبى

أبصره ..
نتجاذب أطراف الحرفِ ، ونلعب فوق حروف الصمت ،
نؤلّف حرفاً لم يُكتب فى لغةٍ بعدُ ..
فيتمدد ذاك الحرفُ المخلوقُ وينجب فى الأرض حروفا
آخذ حرفى أُلقيه فيغدو حجراً يلقفُ ما أفكوا
لكن يرتدّ إلىّ .. !

الحرف الرابع :

هذا وطنى فاكتبْ ما أُمليه عليك
« إنّ الساعة آتيةٌ لا ريب » ،
وإن القمر الثلجى سيغدو تفاحاً كى يُطعم جوع الجِنطة والأرض المثمرة بنخل الأشواق
وزيتون الحزن المتقاسم عبر حروفى ما زلت أحبّك يا وطنى ..
لكنْ هل ما زلت كما كنت تؤلّف حرفاً يغدو عسسا
كى يكتب ما أنسجه حباً لعيونك
يتقاسمُ ظلّى ، يتلصّص عن حلمى ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويزوِّر ما أكتبه خوفَ « الهكسوس » إذا مرّوا يقتلون الأوتادَ الموءودة فى الأحجارِ بمعبدك القدسىّ ، وهل مازلت عصياً أم أنّ الأكفان المُملاة بحرف الزيف تلاشتْ إذ ينخز فيها الشوق .

فتركع تلك الغربةُ فى محرابك وتقبّل أقدامك كى تعفو ؟
إنا مُنتظروكَ .. وإنا عشاقكَ فاصفحْ !
وافتح مايتيسّر من حلمِ أصابع وجدك كى ندخل فى حضرة قدسك
آهِ ... لونغمض أعيننا إذ مُلئت بالنيل وما أدراكَ ؟ ! ،
فيا أبتى : إنى أبصرت الشمس حروفاوالقمر تشكّل صوتاً ونجوماً
أضحت ظلاً لحروفَ فوقَ الأعتابِ سجودا لكَ ياوطنى
فامنح جسدى فى أرضك قبراً
لكنْ .. لاتدفن حرفى !

ألمانيا الغربية : محمد أبو الفضل بدران ـ بون ـ

العـــــودة

صابر عبد الدايم

تعودين دافئةً من زمان الغيوم إلىّ
تعودين فاكهةً مشتهاةً إلى ساعدَىّ
تعودين أمواج شوق تهبُّ عَلَىّ
فتوقظنى من سبات الخريف
وتبذر فىَّ اخضرار الربيع
فأولد نجماً من الوجدِ ....
يعبر كل المداراتِ
يرسم أحْلى الدوائر
يطلق كل العصافير
يجرى وراء السحَابات
يغمر كل الدروب بضوء هواكِ النَّدِىّ
وأرجع عشراً من السَّنواتِ
وأطرق بابكِ ... ألقاكِ فوق النوافذ أحلى يمامه
ويقفز قلبى .. يعانق فى وجهكِ الحلو أشهى ابتسامه
وأنت قرنفلة فى عيون الصباحْ
تبث شذاها .. فتطرد كل الجراحْ
ولكن جرحى يعلّقنى فوق سور من الذكريات
وألقاك فوق رمادٍ من الأمنيات
تغيرَّ كل الذى كان حتّى صدى الهمس والأغنياتْ
تعودين بالرىّ .. والحقل تهرب منه الجذور
تعودين .... خلفكِ غابة سحر وخصب وأفْقِى قد هجرته الطيور

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعودين فارعة فى زمان الضمور
فكيف السبيل لما تشتهين ؟
ودربى محاط بسور القيود
وقد أحرق المرجفون بحقل رؤاه الورودْ
ومن مقلتيه ومن شفتيه .. ومن رئتيه
أزالوا رواء الوجودْ
فهل تعبرين المسافات بينى وبينكِ . ــ هل تنسفين الحدودْ ؟
وهل تُقْبلين ؟
كما كنتِ دافئةً فى زمان الغيومْ
وكانت بعينيك تنمو حدائق عمرى
وفى أمسياتى تغرّد كل النجومْ
ويرحل فيها اخضرار الزمان .. ائتلاق الليالى ...
... انْهمار الرؤى ... وانحسار الهمومْ
ــ أجيبى ... ففى مقلتيكِ يطوِّفُ عطر الحنينْ
وفى داخلى النار تأكل حُلْم السنينْ

فقالت :
سأقبل فى رحلة النهر .. أغسل ظل رؤاك الحزينْ
أعيد الشموس إلى راحتيكْ
لنغزُوَ بالضوء ليل خطاك الغريبْ
وأزرع لون الحدائق فى مقلتيكْ
وفى أفْق دنياك أسرى ..
أشكّل لون الوجود الحبيبْ

فقلت :
وهل تقدرين ؟
وقد أجدب الحقل والأفق .. لا شىء إلا دخان الحرائق
وكيف تعود الخطى اليابسات
إلى خضرة الأمن ؟ كيف يضوع الزمان الجديبْ

فقالت :
على حافَّة اليأس يغدو كيانك أطلال ذاتٍ وأشلاء أمسٍ نحيلْ
فروِّ جذوع الزمان لتخضَرَّ فى راحتيك حقولُ النخيلْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وألْقِ عصاك لتلْقَف ما يأفكون
وشُقَّ بها الموجَ واضرب بها البحر .. لا ترهب الريح ....
... فالبحر موعد من يعشقون
هنا البحر .. والموج .. والأفق ... والفلك .. والحوت ..
والشطُّ ...
كوْنٌ جديد لمن يعبرونْ
وأبوابه غلِّقَتْ في وجوه الأُلى يحذرونْ
ومن ضوء هذا الوجود انبثقْتُ
ومن ذعر طوفانه قد نجوْتُ
وجئت مع النَّهرْ فاكهة مشتهاةً إلى ساعديكْ
وأمواج شوق تَهبّ عليكْ
وكانت نجاتك من سرطان الخريف
ومن رحلة التيه عاد إليك زمان الربيع
وغرَّد في ناظريكْ
وعدْتَ كما كنْتَ تهوى ...
براقاً من الوجد يرحل في كل أفْق قصىّ
ويعبرُ كل المداراتِ
يَرْسم أحلى الدوائر
يطلق كل العصافير
يجرى وراء السحاباتِ
يقطف زهر النجيماتِ
يغمر كل الوجود بضوء هواى الندىّ

الزقازيق : صابر عبد الدايم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من حديث عن أبـــى .. والدلـــتا

أحمد عبد الحفيظ شحاته

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كنتُ فى حضنها قطعةً من بشاشتها الناعمة
وهى تذكرُ لى :
أنَّ كلَّ الخُطى لا تجيبُ ..
وكلَّ الخطى لا ... تخيبُ .
وظلَّتْ تحدِّثنى عن أبى :
كان من يَفتح الأرضُ من أوجُهِ الدَّمعِ
طلْعاً من الآوناتِ اليبابِ
يمامَ خُطىً تستحيلُ حضوراً ،
إذا لملمَ الدَّربُ أحجارهُ ،
فى اشتعالِ الغيابِ ...
يُضاحكُ فى رقَّةِ الطِّفل حزنَ النَّوارسِ
فى بحْرةٍ للسَّحابِ ...
أباً للنَّوازلِ ،
كلُّ الظُّبا تتَّقيهِ ،

ويُعرضُ عن كلِّ طائشةٍ
من نبالِ السَّفيهْ ...

* * *

كان ليلُ القرى ميّتاً ،
والنهارُ المطاردُ لا يستقيمُ
يُوزّعُ بهجتَهُ للنَّخيل ويسقى الفسائلَ
ماء الرَّدى ...
بينما .....
يحملُ النهرُ دلتاهُ فى قبضةٍ لا تُفيقُ ،
وطيرُ الملالِ المرقَّشِ فى وجهها ،
تحتويه الشّقوقُ ...
ينامُ بها الصّمتُ ، تكبُو الرِّياحُ المواقيتُ
فى نبضها ...
ثمَّ تُرسلُها مِرَّةً فى الرَّبيع ،
تُمسِّحُ ركبَةَ سيِّدها فى المساءِ ،
فيتركُها للغلام الذى لا يلامُ
فيربطها بالحزام ويدفعها
للظَّلام ... الظَّلام .. الظَّلام
فتُولهُ سبعةً من مثانٍ
عليهنَّ فاض العقيقُ ..
.....
وقالت وهْى ممسكتى من يدى :
إنَّ من يعدمِ السّيفَ ميْتٌ ..
طليقُ ...

شبين الكوم : أحمد عبد الحفيظ شحاته

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

● مـــــوت

فراج عبد العزيز مطاوع

صورةٌ فى جدارْ
(كم جُلِيتُ وقُبِّلتُ وابتسمَتْ جبهتى)
صورةٌ ..
مرَّت البنتُ ذاتُ الضفائرِ قالتْ : أبِى ،
ولمحتُ الدموعَ بعين الكبارْ
صورةٌ ..
وتوالَى هسيسُ الغبارِ ،
الغبارِ ،
الغبارْ
صورةٌ ..
وانتُزعتُ من الحائط / الروح ؛
(نازعتُ حتى تكفَّنتُ إذْ خَرَجَتْ سحنتى من زوايا الإطارْ)

* * *

صورةٌ ..
(كم جُلِيتُ وقُبِّلْتُ ..)
لكنَّنى ــ الآنَ ــ فيما زفافُ الصغيرةِ ذاتِ الضفائرِ ،
فى البيتِ ،
أُلقيتُ ــ مستسلماً ــ فى انكسارْ

◇ كُرّاسة

كنتُ فى البدءِ كرّاسةً ،
يكتب الطفل فيها دروسَهْ
كنت فى البدء أمتلكُ الورقَ الأبيضَ المستطيلَ
أحبّ انسكابَ المِدادِ على صُحُفى ،
.. ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كنت .. لكننى حين صرت عجوزاً ،
رَمَتْنى يدُ الطفل آخر العام ــ ،
أدمعتُ حين انقلبتُ ،
التقيتُ بأمثالىَ ــ المبعدينَ ــ
تَمزَّقْتُ ، فرَّقْتُ بين البيوتِ وبين الشوارعِ ،
طرتُ .. انكمشتُ جوار الرصيفِ أُنازعُ ..
فى الصيفِ جاءوا يلمُّوننى ..
(وَرْقَةً .. وَرْقَةً
لُعْبَةً .. لُعْبَةً ..)
صرتُ مركبَ بحرٍ صغيرٍ أشيلُ الدقيقَ إلى الضِّفَفِ الدَّائرهْ
صرتُ طائرةً ــ يلجم الخيطُ شِدقىَّ ــ ،
أملكُ ذيلاً طويلاً ،
أصافحُ وجهَ الهواءِ ،
أرى الناسَ من فوق .. ،
ظلَّ الرؤوسِ ، الأكفَّ التى تمسكُ الخيطَ ، ...
من فوق كنت أُشاهدُ ..
مُزِّقتُ فى هجمةِ الريحِ وانقطع الخيطُ
ــ تلك العلاقة بينى وبين أصابع ذاكَ الحزينِ ــ ،
التصقتُ بصفصافةٍ نبتتْ فجأةً فى الفضا
.. ..
صرتُ صفراء .. صفراء
وسط اخضرارِ المدى

* * *

كنتُ فى البدءِ كُرَّاسةً ،
يكتب الطفلُ فيها دروسَهْ
وانتهى الورقُ المتمزِّقُ منِّى على صفحاتِ الشوارعْ
لست أدرى لماذا يؤدِّى الزمانُ طقوسَهْ ؟ !
ولماذا يصرَّ الرجالُ ، التلاميذُ ،
أحذيةُ الجندِ ، العجلاتُ الثقيلةُ فى سيرها .. ،
أن تدوسَهْ ؟

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

◇ مسافة

نقطةً .. كنتُ ،
فوق حروفِ الكتابةِ أُرْسَمُ ،
أو تحتها .. أتبسَّمُ ..
كان يحطُّ جوارى ،
بمنقاره اللولبىِّ الدفءِ ،
يحدِّثنى عن ضجيجِ المِدادِ الحبيسِ فَأَفْرَحْ
إلفَ التوحُّدِ كانَ ..
وكانت تصير الحروفُ ــ التى كنتُ أتبعها ــ
لحروفٍ أُخَرْ
وأنا وصديقى شبيهانِ مقتربانِ
وحين اشتبكنا ــ نريدُ التصافحَ باللثمِ .
أزَّت عصاهُ المخيفةُ
قالَ ــ المدرِّسُ للطفلِ ــ : باعِدْهُمَا ..
فرَّقتْنا العدوُّ اللدودةُ ممحاتُهُ
صار ذلك ــ أن يأمرَ الطفلَ ــ أستاذُهُ أن يفرِّقَنَا ــ
هو أول درسٍ يُلقَّاه من شتاه أن يمتهن الغلطْ

* * *

يا شبيهىَ .. يا شُبهائى
متى نستريحُ ، فلا تُستباحَ لقاءاتنا
ولْيَتُه معنىً .. أو يختلطْ !
قال : مادام تلك العصا فى أكفِّ الأساتذةِ الطيبينَ
ستبقى حدودُ المسافةَ بين النُقطْ
ــ فمتى نلتقى مَرَّةً عند خطّ ؟
فَمَتَى نلتقى مَرَّةً عند خطّ ؟

المحلة الكبرى : فراج عبد العزيز

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فنـاء ما.. حنين ما

عبد المنعم رمضان

إنها ردهةُ الوقتِ .
تنشعُ بالملَكاتِ القديمةِ .
والحجبِ الأوّليةِ .
تنساب تحت ذراعين .
ثم تجرّ الذبائح .
والعاشقين .
إلى غيبةٍ .
تحبلُ الأرضَ بالضائعِ الآن .
لا يتوقّفُ فيها النسيجُ .
عن الرَّوَغانِ .
وتدخلُ كلَّ الأزقّةِ .
فى طرقٍ لا حدودَ لها .
ويبيتُ الكلامُ على حمأةٍ .
يستبدُّ بما فيه من خجلٍ .
ويرصُّ على الأرض .
كلَّ تعازيهِ .
ينفرط الشّعرُ من ثقبه الأبدىّ .

يكاد يراقص أنسجةً .
من رسومٍ .
يرفرف تحت جناحين .
منتهيين .
إلى أفقٍ شاء أن يتفرّقَ .
أو شاءت الريحُ .
أن تدّعيه قداميكما .
الغوايةُ .
تصبحُ قنّينةً .
من سقوفٍ .
ويصبحُ فوق السقوفِ .
قراصنةً .
تحت أجفانهم غيمةٌ .
تدعكُ الدمَ .
كى يتساءلَ .
عن صلةِ العالمِ الغُفْلِ .
بالملكوتِ القديمِ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعن أحجياتٍ
تخطُّ على الأرضِ .
خطّين مستوحشين .
وتمحوهما .
وتقيمُ على ما تراكمَ .
من حشراتِ الجسورِ .
وأخشابها .
خيمةً .
سوف تفقسُ فيها البويضاتُ .
تخرجُ بعضُ الفراشاتِ .
هائمةً فى الظلامِ .
وبعضُ الفراشاتِ .
فوق رفوفٍ من النورِ .
مذعورةً .
فإذا ما توكّأت الأرضُ .
مالَ عليها الدراويشُ .
أحنوا لها قفصَ الصّدرِ .
فانسدلت حزمةٌ من أخاديدَ .
وانفجرت كرةُ الكونِ .
تجرى أمام الجميعِ .
وتلمسُ من كلّ نبتٍ .
جِرَاً .
عارفاً نفسَه .
وكأنّ عناقيدَ بعضِ الذكورِ .
هى النورُ .
أو ربما الأرضُ تخلعُ قفطانَها .
تضعُ اليودَ جنب السواحلِ .
والحزنَ تحت اللسانِ .
وآنيةَ الاغتسالِ .
بعيداً عن الليلِ .
ثم تغطّى المصابيحَ .

بالعَرقِ البشرىِّ .
وتسحبُ أحشاءها باتجاهكَ .
إن صادفتكَ .
ستحسبنها جَرّةً .
فوق رأسِ الفراغِ .
وتبحثُ عن صفةٍ .
والصفاتُ تكاد تدِقُّ .
ولكنها قبل أن تتجسّدَ .
تمرقُ .
كالطفلِ فوق الحروفِ .
فتصبح غمغمةً .
ليس يدركُ إيقاعَها .
أحدٌ
يتملّكُ إيقاعَه .
ها هنا .
سوف تنبسطُ القبضةُ الأمُّ .
محشوّةً بالتراب .
وليس لها أن تحلّقَ عاليةً .
كان جيشُ العصافيرِ .
يعرفُ قنطرَةَ الروحِ .
يعبرُها .
ويصبُّ عليها دماً .
يشبهُ الماءَ .
ما بين تلك التفاصيلِ والريحِ .
عائلةٌ تتصالحُ .
تُسلمُ مزلاجَها للفضاءِ .
وتمضى على طرقٍ .
بينها والطريقِ الرئيسىّ
ذاكرةٌ .
مُلئت كلّها بالوساوسِ .
وامتلأ الكونُ منها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بأعشاشهِ .
واستردَّ الأمومةَ .
هل تفركُ الأبجديةُ هذا الزحامَ .
وتنفذُ منه إلى رغبةٍ .
تنطوى رغبةً .
وتسرِّبُ من يدِها أوّلَ الحرفِ .
تمسكُه
يتفلّتُ .
تبحثُ عن سرِّه .
فيبوحُ لمن لا يبوحُ .
ويكشفُ عن عالمٍ .
فوق بشْرتهِ ظلمةٌ
كانت الشمسُ تلسعُها .
فتجفُّ .
وتهبطُ تحت الأصابعِ .
فى ذيلِها طرقٌ .
ليس فيها الطريقُ الرئيسىُّ
ليس وراء هواجسهِ .
غير أن تنحنى .
لتمرَّ على رأسِك الكلماتُ .
ترى سِيلها المترجرجَ .
يحشدُ ألويةً .
عرفت كيف تسطو على الحلمِ .
كيف تعلِّقُ رُقْيتَه .
وتصفُّ له .
بِركاً للنبيذِ .
وأوعيةً للرفاقِ .
وكيف إذا انسلَّ .
عاجلها السيلُ .
بالكلماتِ الجديدةِ .
لا تتنفّضُ إلّا من الريشِ .

تصبحُ بيضاء .
يصلحُ أن يتمشّى بها الحلمُ .
فى ردهةٍ .
ويسارِرُها .
خفيةً .
تخرجُ الأدواتُ من الظلِّ .
رقطاء .
غامضةً .
كلما أوغلت .
سقطت قطعُ الظلِّ .
عن جسمِها .
فإذا سقطت كلُّها .
برزت شهوةٌ للخفاءِ .
هنا تستحيلُ الرباعُ لِواقحَ .
والكلماتُ ذكوراً .
تباركُ أعضاءها .
فإذا انتصرت .
أولجتْ فوق أرجوحةٍ .
وإذا أولجت .
شربت من حرارةِ أنفاسِها .
واكتفت أنها سوف تصْدعُ .
سوف تخرُّ .
وينبتُ فى جسمِها الريشُ .
تنخرُها رغبةُ الاغتسالِ .
تطيرُ إلى البئرِ .
سوف يلاحقُها نفرٌ .
كلما غسلوا ريقهم .
كان يبلغُ مبلغه .
ويحشرجُ .
يوصلُ بين اللّهاةِ .
وآلاتِها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يفتِلُ الحرفَ .
كى يتملكَه .
ويكون الصدى لغةً للصدى .
غيبةً .
تُحبلُ الأرضَ .
بالضائعِ الآن منها .
وتستترُ الأدواتُ .
تصِيءُ الأجنّةُ .
تستترُ الأدواتُ .
ينامُ على الجسرِ بين الحمامةِ والرّخِّ .
هاويةً .
وشتاءانِ .
تستترُ الأدواتُ .
تمارسُ رغبتها .
فى عكوفِ المحبّين فوق صناديقِها .
وتمارسُها فى الركونِ .
إلى طرقٍ .
تعرفُ الخاضعين .
وتنظمُهم فى عوائلَ .
صالحةٍ للرحيلِ .
إذن سوف يألفُ بعضُ الدراويش .
سطوةَ أن يخلقوا .
جسداً من رميمٍ .
وأن يخلعوا فوقه .
كسوةَ الظلِّ .
أن يلحقوه بأسلافهِ .

غير أنّ بريقاً من الحلمِ .
ينسابُ .
يفتحُ خرطومه .
ويؤذّن فى حيوانِ المنيّةِ .
يأمرُهُ .
أن تقبّلْ ــ إذا شئتَ ــ أعمالَهم .
واتّخذْ بعضها شركاً للمصيرِ .
وضعْ فوق ما يتبقّى .
ذراعيكَ .
رجليكَ .
وافردْ قوامك .
غامرْ بما ضاعَ منك .
فإن جاءك السيّدُ القطبُ .
سوف يكونُ الوحيدَ .
الذى يستحى .
فيُميلُ انامله ورؤاه .
يهشُّ بها فى اتجاهِ الخضوعِ .
هنالك .
يُعطيك جلبابَه .
وعصاه .
ويُعطيك خُفّيه .
حاجتَه للعشاءِ .
وللنومِ .
إدمانَه للجماعِ .
كتابَ الفتوحاتِ .
والصلواتِ التى تتدحرجُ .
فى جوفهِ .

يتقدّمُ نحوك .
أطرافُه كالثمارِ .
تساقطُ عريانةً .
والهواءُ يلملمُه .
بعدها يتوارى .
الجناحانِ .
والقدمانِ .
العجيزةُ .
والصدرُ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنسجةُ الوجهِ .
والشفتانِ .
ولا يتبقّى سوى الصوتِ .
حرفان يندمجانِ .
حروفٌ تُبقبقُ كالغليانِ .
دمٌ من سريرِ الفضاءِ .
ينزُّ .
وتهبطُ منه الأساورُ .
والخُوَذُ الخوصُ .
والأغنياتُ الحليفةُ
تهبطُ رائحةُ الله .
تعرفُه .
إنه القطبُ .
سوف يقابل عصبتَه .
واقفين على سلّمِ الكونِ .
فيما همو .
يقنصون من الخوفِ .
لذّةَ أعمالِهم .

القاهرة : عبد المنعم رمضان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قبل أن يهبط السقف

عبد الله خيرت

من الصعب أن يجذب الروائى ، فى هذه الأيام ، قارئه ، وأن ينقله إلى عالمه المتخيل ويظل مستحوذاً عليه حتى النهاية : ليس فحسب بسبب أن الناس كلهم يلهثون ولا يجدون وقتاً لالتقاط انفاسهم ، ولا لأن من يجد منهم بعض الوقت ينفقه مقيداً بخيوط عنكبوتية أمام التلفزيون ، وإنما كذلك لأن الأحداث اليومية على اختلاف انواعها تفاجىء القارىء — لم تعد تفاجئه — فى كل لحظة ، بحيث يحتاج كاتب الرواية أو القصة أو حتى قصيدة الشعر القصيرة إلى قدرة كبيرة ليلفت نظر القارىء .

وهكذا يبدأ فؤاد قنديل روايته « السقف » بحادثة مستحيلة مفزعة : فصاحب البيت يستسقط مذعوراً بعد منتصف الليل على صوت انفجار هائل ، يكتشف بعد أن يتنبه هو وزوجته ، أن سببه هو تحطم زجاج الباب فى غرفة نومهما ، ثم تتوالى الانفجارات مدوية ، يعقب بعضها بعضاً فى توقيت محدد ، حتى تأتى على كل أبواب ونوافذ هذا البيت الشامخ المتميز بقدمه وقوته ، والذى يقع على النيل وتفصله عن الشاطىء الأشجار الباسقة والنباتات .

إن أول ما يخطر فى ذهن الرجل ، والقارىء كذلك ، أن وراء هذا العبث المدمِّر لصوصاً ، ولكن بعد تفقد التحف الثمينة التى تملأ البيت تزداد الحيرة : فكل شىء فى مكانه لم يمس ، وفى هذا الوقت المتأخر من الليل لا يمكن أن يكون أطفال الشارع هم الذين قذفوا الحجارة ، وليس الوقت وقت حرب .. إن الأمر يبدو كما لو كان الزجاج يحطم نفسه ، وبعد أن يتم هذا يعود الهدوء إلى البيت من جديد .

تلك هى الحادثة المستحيلة التى تبدأ بها الرواية ، وسيظل القارىء مندهشاً بعد أن يتعرف على أفراد هذه الأسرة : زوج وزوجة وأطفالهما ، يعتصمون ببيتهم الجليل الذى ورثه الأب عن آباء وأجداد أقوياء محترمين ، أسرة لا تبدأ أحداً بعدوان ولا تتوقع الشر من أحد ، إنهم أناس هادئون مسالمون يتحركون وفق العادات التى طبعت حياتهم بحيث تحول بينهم وبين أى خيال أو تفكير مستقل : إنهم يقضون الكثير من وقتهم أمام التلفزيون ، ويتركون نوافذهم مفتوحة لتدخل منها قطط الليل الجائعة ، ويفكرون ، ولكن لا ينفذون ، أن يحكموا إغلاقها حتى لا تزعجهم تلك القطط . والأب يتذكر بعد أن تتحدد المشكلة أن السبب هو أن أولاده لا يصلون فيعلمهم الصلاة ..

وينقل المؤلف هذه الحادثة من المستحيل إلى الممكن ، بل والسائد والعادى الذى لا يدهش أحداً ، حين يأخذ بطله إلى مكاتب الإدارات الحكومية ليصطدم باللوائح والروتين والتسويف والموظفين الذين لا يجدون سبباً لانزعاجه وتعجله : المياه تسللت إلى أساس البيت لذلك فهو يهبط إلى أسفل وسيظل يوالى هبوطه حتى ينزل السقف إلى الأرض .. الحل سهل — هكذا يقولون له — وهو أن يترك البيت ويحاول الحصول على شقة من شقق الإسكان .. وهذا كله يحتاج إلى معاينة وكتابة تقارير وتوقيع موظفين ومديرين .. وعليه أن يبدأ .

* السقف — رواية : فؤاد قنديل — هيئة الكتاب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد ظن الرجل ان الدنيا ستنقلب : لان إنهيار بيته — وهو متين البناء — سيؤدى إلى انهيار منازل اخرى ، ولكن لا احد يصدق مبالغاته ، بل إن القضية حين تتعقد بعد رفضه إخلاء البيت ، تتحول إلى تسلية وتعليقات ساخرة : فحين كان يدور على المكاتب ذاهلاً غارقاً فى همومه ، لم يكن يعدم من يستوقفه ويطلب منه ان يقص عليه آخر اخبار الانهيار ، وقد يجد نفسه وسط مجموعة من الموظفين والمهندسين الذين يتذكرون معلوماتهم ضاحكين ويجعلون من وجوده سببا للضحك وقتل الوقت الثقيل . لقد وصل به الأمر ان احد المحررين النشطين وصل إلى البيت ومعه مصورون وطلب منهم ان يحاولوا دخول البيت الذى كان قد بدا يهبط ، وصورهم ينحنون ليتمكنوا من الدخول .. وكان هذا المحرر بادى الانفعال حتى ان الرجل تصور ان المشكلة ستحل عن طريق الصحافة .. ولكن لم يحدث شىء ، فلم ينشر الموضوع ، ولم يعد له ذلك المحرر المتحمس .

ولكن احد المهندسين — ولم يكن يشارك زملاءه فى الضحك — اقترح عليه حلاً لهذه المشكلة وهو ان يمنع هبوط السقف باعمدة قوية من الحديد ، وليس عليه ان يطلب من إدارة الإسكان المساعدة ، فالمسالة بالنسبة لهم قد انتهت حين طلبوا منه ترك البيت ، ونفذ الرجل هذه النصيحة :

« .. فى اهتمام مضيت اراقب الحديد والسقف ، يحدونى امل كبير . إلى ان كانت ليلة ، سمعت خشخشة .. أصخت السمع ، مددت اذنى فى الصمت . تبين لى ان اسطوانات الحديد بدأت تغوص وان السقف يدكها فى الأرض ، واصر السقف على هبوطه غير عابىء بشىء ، رفض الحديد كأنه جسم غريب فى البيت ، بل دخلت انه من قبيل التحدى قد زاد من معدل هبوطه .. وتوالى نقص الفراغ امتاح لنا ، ولم يعد بإمكانى الدخول إلا منحنياً جداً .. كلنا كنا ندخل الحجرات زاحفين على اربع كاننا نهبط إلى خنادق . كل حركتنا داخل البيت انحناء .. وكل يوم يزداد هذا الانحناء .. ونهبط كلما ضغط السقف وهبط . »

لا مفر إذن من ترك البيت .. وهكذا تحمل الأسرة كنوزها الثمينة وصور الآباء والأجداد ، إلى كوخ قريب على الشاطىء .. ولولا ان البيت يلوح امامهم متهاوياً ولولا هذه الكنوز التى يكومونها فى الكوخ لظنوا انهم هكذا عاشوا بلا بيت وبلا تاريخ .. عليهم ان ينتظروا حتى يتقوض هذا البيت فيمكنهم حينئذ ان يبنوا بيتاً جديداً على انقاضه كما نصحهم قريبهم الذى يعمل استاذاً للعمارة فى جامعات امريكا .

وهكذا يزداد قلقهم وهم يعدون الايام حتى يهبط السقف ، ولكن السقف يتوقف فجاة عن الهبوط ويترك فراغا صغيراً لا يمكنهم من دخول البيت ولا يمكنهم كذلك من بنائه .. وكانه يتعمد ذلك ، وعليهم ان يظلوا فى الكوخ مع كنوزهم التى لم يعد لها قيمة . إن الرجل يراقب ماء النيل بهلع .

« .. حدّقت فى مياه النيل كانى اسالها عن حظى ، الفيت النهر قد تجمد وتحجرت امواجه ، ولم يعد ماؤه يصلح للشرب ولا للصيد او الإبحار »

هكذا تنهتى هذه الرواية المتشائمة دون ان يلوح فيها بصيص من النور ، لان كل الاحداث التى اعقبت الحادثة الرئيسية لم تحرك احداً ، ولم تفض إلا لمزيد من الانحناء لبطل الرواية واسرته ، ومزيد من التجاهل والسخرية من قبل الموظفين والمهندسين .. فكان لابد ان نصل إلى هذه النهاية .

إن الفرد او الأسرة او الجماعة بحاجة — حين تحل نكبة كهذه — إلى اكثر من البكاء والشكوى والانكماش ، حتى لو كان الماضى مجيداً وشواهد مجده ملموسة وظاهرة .

ولان الرمز فى هذه الرواية ليس غامضاً ، والاحداث تكاد تكشف نفسها ، فلم يكن المؤلف بحاجة إلى إثبات هذا النص الطويل من قصيدة اخناتون بالخط الأسود الكبير ، لان هذا النص وكذلك النصوص التى كان يقدم بها الفصول من شكسبير وطاغور وصلاح عبد الصبور ، كانت تزيد الموضوع البسيط غموضاً ، وهذا ليس قصد المؤلف بالتاكيد .

كذلك لابد من التوقف عند هذه التشبيهات الكثيرة التى اغرام بها فؤاد قنديل فى هذه الرواية ، واتذكر الآن قول استاذنا يحى حقى وهو يتحدث عن احد المبدعين مادحاً إياه « إنه عشماوى التشبيه » بمعنى أن لا يسمح لهذه الحيلة البيانية ان تتسلل إلى كتابته .. ان الكتابة فى هذه الرواية تمضى بسيرة وبسيطة وممتعة إلى أن يفاجا القارىء بتشبيه او استعارة هكذا :

« تعوى الظلمات بأمعاء روحى » .

« امامى النيل يمتد كثعبان ضخم يتلوى يزحف فى صمت من لجنوب إلى الشمال كانه بهيمة تدور فى الساقية » .

« تلقانى الطريق فضيع خطواتى »

« كلنا ندخل الحجرات زاحفين كاننا نجتاز أبواب القبور »

وكثير من هذه التشبيهات التى تجعل القارىء يحس أن القراءة تصبح صعبة او على الأقل لم تضف هذه المحسنات جديداً ..

والمؤلف نفسه هو الذى ينساب أسلوبه بهذه الطريقة المتميزة فى كثير من صفحات الرواية ، فحين بدا السقف يهبط هبطت الصور أيضاً :

صورة جدى التى كانت تعلونى بمتر على الأقل أصبحت امامى ، وغدت عيناه فى عينى ونظراته تندس فى نظراتى تكاد تلومنى وشاربه المنتصب فى إباء يحتقرنى ، فاتضاءل واخبىء نظراتى تحت اهدابى المنكسة »

وحين يزور محرر الجريدة البيت يقول لبطل القصة بحماس :

« هنا سنضع صورتك ، وهنا صورة المدام ، اما هنا فعنوان بارز .. ثم عنوان فرعى .. وهنا سهم يشير إلى المنزل وهو فى نصف حجمه .. ما رايك ان يكون عنوان الموضوع : اغيثونا .. المنزل يغوص ؟ »

إن هذه اللغة البسيطة الموحية لا تحتاج إلى تعقيدات لفظية تحول دون فهمها والوصول إلى معناها العميق .

القاهرة : عبد الله خيرت

الجديد فى النقد

عبد الحكيم قاسم

هذا كتاب « الرواية الجديدة فى مصر — قراءة فى النص الروائى المعاصر » للدكتور حلمى بدير — الأستاذ بكلية الآداب جامعة المنصورة صدّره مؤلفه « بمدخل » لابد منه يذكر فيه أن الرواية المصرية تمثل على مدى عمرها فى قرن من الزمان أو نحوه صورة واضحة لحركة المتغير الإجتماعى والحضارى للمجتمع المصرى . تعبر عنه بصدق وتنوع وتكشف عن عناصر تكوينه منذ البداية حتى الآن .

هذا كشف جدير بالالتفات . وإذا كنا نردد خلف الأقدمين أن الشعر ديوان الأمة ، فإن هذه الحقيقة تحدد بوضوح أن الرواية هى ديوان حركة المجتمع وأنها استلهمت مضامين فنية تستقى مادتها من الواقع الاجتماعى بدرجات متفاوتة ، وتحاول التعبير من خلال تطويع أشكال فنية متعددة : « ولقد سبق أن أشرت إلى أنه على الرغم من تعرف الأدب الحديث فى مصر على هذا الشكل الفنى متأخراً بالمقارنة بالآداب العالمية الأخرى فإنه استطاع خلال هذا القرن أن يتفوق على بعض أشكال الرواية العالمية بل ويخوض تجارب متنوعة لا تقل ، على جميع المستويات ، عن تجارب الآداب العالمية المختلفة » .

وهذا كشف ثان كبير ينبغى أن نعرفه وأن نتشيع له : إن الرواية العربية لها مكانة مرموقة فى آداب العالم يغمطها دأب رجال الأدب الأوربيين على اهمال تعلم اللغة العربية رغم أن بعضهم يجيد لغة أو اثنتين غير لغته الأصلية ، وبذلك يحرمون من قراءة آدابنا ويفوتون على أنفسهم فرصة الاطلاع على الفكر العالى لأمة ذات أدب عريق وإبداع عصرى مرموق . وبذلك ظل نقل آدابنا للغة الأوربية جزءاً من عمل المستشرقين وهم على درجة كبيرة من عدم التخصص . لذلك تبقى صورة أدبنا عندهم غير كاملة .

تلك هى الروح المسيطرة على كتاب الدكتور حلمى بدير ، روح جديرة بأن نحييها ونحيّى فيها اهتمامه بجيل الستينات الذى خصّه بكتاب كامل يدرس فيه أعلامهم دراسة جادة رصينه لا يتجنى فيها عليهم ولا يدللهم تدليلاً ، بل ينتقل إلى موضوعه وهو واع بقضية هذا الجيل الذى قاربت أعمار أعضائه الخمسين ومازالوا بعيدين عن دائرة الضوء ، بعيدين عن اهتمام النقاد . وبرغم أن المدخل بالغ التأثير حتى يوشك أن تكون له ظلال عاطفية لكن هذا الظل لا يمتد على المعالجة .

وجدير بنا أن نلتفت إلى تنبيهه على أنه « قد يفهم خطأ أن هذه التسمية — جيل الستينات — تتيح الفرصة لتسميات مشابهة فى جيل السبعينات أو الثمانينات أو نحو ذلك » . إن فى هذه التسميات شيئاً يثير الضحك ، وهكذا إذا أشير إلى واحد أو آخر من هؤلاء أو أولئك على

انه واحد من أبرز أعضاء جيل السبعينات أو الثمانينات . لماذا لا يتسمى الواحد بكنيته الأصلية وهى انه كاتب مصرى دون أن ينسب إلى عقد أو آخر بحيث يتحمل عبء ما كتبه سواء كان جيداً أم رديئاً » . الأمر فى ذلك يا سيدى الدكتور حلمى بدير هو خطأ فى حسبان جماعة الستينات ــ أو هم جماعة « ريش » ــ بأعمارهم ، فمن كان فى سن مقاربة وحمل القلم فهو فى ذلك من جماعة الستينات . وهكذا ذكرت أسماء جمال الغيطانى ومحمد يوسف القعيد وإسماعيل ولى الدين ويحيى الطاهر عبد الله وصنع الله إبراهيم ومجيد طوبيا وإبراهيم عبد المجيد ، وكل من ذكرت هنا لا ينتسب إلى جماعة الستينات أبداً .

منشأ التسمية جاءت من التفاف الجماعة حول « جاليرى ٦٨ » ، تلك هى السمة الإنسانية فى هؤلاء . السمة الثانية هى تجمعهم فى مقهى « ريش » ، بحيث لا ينفصل تاريخهم عن هذا المقهى . ومن تجمعهم معاً وانتهاجهم فى الكتابة نهجاً جديداً . ومن تآصر هاتين السمتين نشأت بينهم عادة التوجه بحديثهم لا إلى أوسع الجماهير بل بعضهم إلى بعض أو إلى حلقات ضيقة ، بذلك نشأت مجلة جاليرى ٦٨ تضم انتاجهم ، ونشأ عزوفهم العميق عن الشهرة ، هاتان هما السمتان اللتان تميزان الفئة التى اصطلح على تسميتها جيل الستينات عن غيرهم ممن طلبوا المجد بالكتابة أو الشهرة .

وقد قيدت أسماء الذين أشهد لهم من كتاب جيل الستينات وهم عبد الحكيم قاسم ، بهاء طاهر ، محمد البساطى ، إبراهيم أصلان ، محمد الصادق روميش . ها هم هؤلاء الذين أشهد أنهم من جيل الستينات وقد كبروا وعرفوا وكبر الكتاب الآخرون وعزفوا واشتهروا ، فلماذا التمحك باسم جيل الستينات ؟

إننا نعتمد هنا الذوق الفنى للناقد الذى يقدم دراسة لأربعة كتّاب ، بل « لابد من احترام الذوق الشخصى للناقد الذى ربما يتدخل ــ وهو لابد فاعل ــ فى الاختيارات الأولية » . لكننا لابد أن نجزم بأن الخصائص المتوافرة فى كتّاب الستينات يندر أن تتوافر عند كاتب آخر أبداً . . . لغة تقارب الشعر ، تدنو من التراث دون أن تغرق فيه ، وهى لغة ملائمة للموضوع والموضوع بالغ البساطة والتعقيد فى آن واحد . وهناك فوق ذلك روح فى الكتابة يصعب وصفها هى الروح التى أزعم أنها ترتفع بالكتابة العربية إلى المستوى العالمى .

إن كتابة جيل الستينات بقيت على طول سنين حافظة الرواية والقصة من الاسفاف والانحدار فى مهاوى السخف ، فلما غابوا فى سنين سود فشت الكتابة الرديئة بين جيل السبعينات والثمانينات وظهر كتاب أصدق وصف لهم أنهم لا يعرفون العربية .

تلك هى ملاحظتى بعامة عن الكتاب ومنهجه الجيد . والآن أتحدث عن الكتّاب الذين تناولهم . وأبدأ بروايتى « قدر الغرف المقبضة » وأقول إننى لم أفرح بكتابة عن كتاب لى مثلما فرحت بكتابة الدكتور حلمى بدير . ذكرنى بفرحة بمقالة الدكتور عبد المحسن بدر عن « أيام الإنسان السبعة » فى كتابه « الروائى والأرض » لكننى أعجز عن تناول هذا القدر من كتابته عنى بالتقدير المنصف فأكتفى بأن أسجل فرحتى هنا وأعتذر عن تناول ذلك الجزء من الكتاب الخاص بى .

أما الجزء الخاص بنجمة أغسطس رواية الكاتب صنع الله إبراهيم فيحتفل احتفالاً شديداً بالرواية وكاتبها وأنا أشاركه حماسته ، لكن يراودنى خاطر يدفعنى إلى التساؤل عن جدوى الكتابة . أليست رغبة تثور فى قلوب الجماهير حتى ينبعث من بينهم كاتب يحمل الرغبة ويصوغها فى شكل كتاب ؟ الكتاب إذن يحمل عواطف الجماهير ومخاوفهم وبلبلتهم وطموحاتهم ووضعتهم وسموّهم . ويظل الكتاب ملجأ للناس إذا ما حركتهم عواطفهم منبعثة بأى من الصفات التى سميتها ، يظل الكتاب إذن على حدود الشوق وعلى حدود الرغبة .

السد العالى قضية مشكلة . قامت ببنائه سلطة متعسفة ، بنى السد بالقهر وقد أفسد ماء النيل . هذا جانب ، وجانب آخر هو تلك الفوائد الجمة التى عادت على مصر ، تلك إشكالية يعز على عقلية الجماهير أن تواجهها فتبقى ممزقة إزاء بناء السد العالى . هل أوضح الكتاب تلك الاشكالية التى تعيشها الجماهير ؟ أما بعد فذلك ما افتقده عن الكتاب أما ما عدا هذا فقد أوفى الكتاب بحق الرؤية وحق صاحبها .

« رسالة فى الصبابة والوجد » كتاب الغيطانى الذى خصص له الفصل الرابع من الكتاب « الرواية الجديدة فى مصر » يسجل المؤلف خاطراً لا ندرى أهو لصالح جمال الغيطانى أو هو ضده « فلقد أشعرتنى أعماله بأنه يمر بلحظات صحو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولحظات غيبوبة . فى الأولى يعيش بيننا ، وفى الثانية يتعامل بكثير جداً من الرمز والتكثف . وأشهد أن أعماله الثانية أعظم وأكثر دلالة . فى الأولى مباشرة ووعى وتقريرية ، وفى الأعمال الثانية أسطورة وحلم وألم كبير وأمل » ويقصد المؤلف بذلك ما يكتب الكاتب بلغة العصر وتلك يسميها لحظات الصحو . وتلك التى يكتبها بلغة عصر المماليك وهذه يسميها لحظات الغيبوبة ، ويجدها أعظم دلالة .

إن مؤلف الرواية جمال الغيطانى يقع فى حب ڤاليريا ـ وقد أخبر أنه يعنى ليلى بالعربية ـ فكيف تكون مشاهد الحب أكثر تعبيراً حينما تكتب بلغة كتاب العصر . المملوكى كيف يكون ذلك ؟ أليست تنعزل اللغة عن موضوعها بحيث تتحول إلى عبء

على مشهد الحب ؟ وإذا كانت البنت روسية تكلمه بلغة أفرنجية أيا كانت تنقل إلى العربية فى لغة مملوكية أليس الأمر كله بالغاً فى إثارته للجيرة

كتب جمال الغيطانى قبل ذلك عن « المقشرة » وتقبلنا لغته لأنها كانت

قطعة منقولة من عصر المماليك ويربطنا بها ودلالاتها المنعكسة على

عصرنا ، أما إذا كتب لغة حب عصرية بلغة مملوكية فذلك محير .

وفيما عدا ذلك فقد وفّى الناقد المؤلفين حقهم تماماً وأجاد ، أحييه على كتابه « الرواية الجديدة فى مصر » .

القاهرة : عبد الحكيم قاسم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقـــع أقـــدام

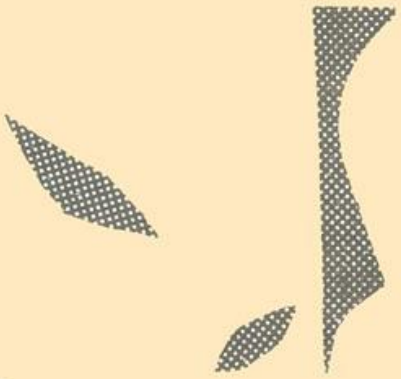

فـــاروق خورشـــيد

لم يحدث من قبل أن حموده خلف ميعاده .. فبعد أذان العشاء بقليل يقف عند المنحنى ويهمس :

ـــ أنا هنا يا ابنة الحلال !

ويخفق قلبها له قبل أن تسمع كلماته ، (تدغمس) اللمبة الجاز قليلا ، ثم تنظر حولها لتتأكد أن كل شيء في الحجرة مسوّى ومنتظم ، ثم تهرع لتقف عند شباكها الصغير وتهمس :

ـــ أنا هنا يا ابن الحلال !

ويتنحنح حموده في قلق ويقول :

ـــ وأبوك ؟

فتهمس في ضجر :

ـــ يصلّي العشاء ، عاد بالعربة المحملة بالجوافة قبل الغروب ، وصلى المغرب هنا ، ثم ذهب يصلي العشاء ، ويعود بعد قليل ليشعل الكلوبات فوق العربة ، ويسوق عربة الجوافة ، المضيئة المنيرة إلى حافة الشارع ، لينتظر الرزق الذي يقسمه صاحب الأرزاق .

ويقول :

ـــ ننتظره حتى يعود ، ويخرج .. فأنا أخاف أن يلمحني هنا عند المنحنى .

وتقول سنية في عنف :

ـــ إلى متى هذا الخوف ياسي حموده ؟

وضحكت في دلال وعادت تقول :

ـــ اتعرف كلما سمعت في الراديو أغنية (حمودة فايت يا بنت الجيران)أحس بالخجل ، وانتلفت حولي خوف أن يحس أحد أن النار تشتعل في وجهي ؟

همس في انفعال :

ـــ سلامة وجهك من النار يا ست سنية ، اتعرفين أنا حين أسمع هذه الأغنية أقول لنفسي (سنية في الشباك يا ابن الجيران)

همست سنية وصوتها يهتز في انفعال صادق :

ـ سلمت كلماتك يا ابن الحلال .

قال حمودة الذي لم يخلف ميعاده أبداً :

ـــ وسلمت لي يا بنت الحلال .

ثم صمت وهو يقول :

ـــ صوت أقدام أبيك عائد من أول الحارة .

وكانت الحارة مظلمة لا ضوء فيها إلاّ شعاعـــات قليلة تبص من لمبات غاز مضاءة في بعض النوافذ ، والصمت يسود ـــ ووجف قلبها ودق في ارتياب وخوف وهي تقول في صوت مرتجف :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ من قال إنه أبى ؟ ربما كان هو ..

همس حموده وقد انتقل خوفها إليه فهز كلماته :

ـ من هو ؟

قالت :

ـ هس ..

ومضت تتسمع فى إصغاء شديد وترقب ، ووقع الأقدام ظهر جلياً ومضى يقترب . وقالت فى خوف متزايد :

ـ لا ، إنه هو ، الشبح الذى يأتى كل ليلة ، يسير من أول الحارة ، ثم ينحنى عند المنعطف ، ويسير ، ويسير ، وسط الليل يسير ، ثم يدخل البيت المهجور ، ويصعد السلم سلمة ، سلمة أسمعه كل ليلة ويرتجف قلبى وأرتجف كلى ، حتى يصل إلى شقته فى الدور الثانى ويفتح الباب ، أسمع حركة المفتاح فى (كالون) الباب .. ويدخل ، ويسير فى الشقة المهجورة ، ثم يشعل شمعة ، ألمحها كل ليلة ، أراها تتحرك رائحة غادية ، حتى يجلس إلى جوار النافذة ويضعها هناك ، ويصمت كل صوت ، كأنه يجلس وحده وسط الظلام إلا من ضوء الشمعة ، ويستمر الصمت ، حتى تنطفىء الشمعة ويسود الظلام ، وأهرع إلى فراشى أجرى ، وأتغطى باللحاف ، وأغطى عينى وأذنى وأرتجف ، وأنا أتصوره هناك وحده وسط الشقة الموحشة مع شمعة تظل تتآكل وتدمع حياتها حتى تموت .. وهو وحده وسط الظلام والصمت الموحش المخيف !

كان حموده يسمع وقد شدّته الكلمات ، واستغرقت انتباهه ، وكان يرتجف مع كلماتها ، ويتخيل (الشبح) فى حركته مع وصفها لكل ما يفعل حتى انتبه مع توقف صوتها ، فاهتز جسده فى عنف ، ورفع رأسه فى حيرة ، وقال :

ـ أنه الأستاذ ..

صاحت سنية فى عنف يجارى عنفه :

ـ بل هو الشبح .

وكان وقع الأقدام قد ازداد اقتراباً حتى أصبح صاحبه واضحاً فى العتمة . فهمس حموده فى وجل وحذر :

ـ بل هو أبوك .

وبالفعل سمعت سنية سعلة أبيها التى تعرفها جيداً ، فأسرعت تقول :

ـ أراك بعد أن يخرج بعربة الجوافة .

ولم تنسَ أن تنهى كلامها قائلة :

ـ تركتك بعافية يا سى حموده .

همس حموده :

ـ تركتك بعافية يا بنت الحلال .

ثم اختفى شبحه وابتلعه الظلام .. ومضى ينتقل بحذر من باب إلى باب ومن دكان إلى دكان حتى وصل الناصية فانحرف فيها ليختفى تماماً عن الحارة وعن عيون أبى سنية وعن عيون سنية ، وعن عيون كل الأشباح .. وحين دخل القهوة وطالعته أنوارها الساطعة وأصواتها المألوفة .. الراديو العالى بأغانيه المتكررة ، وصرخات الواد بلية : واحد شيشه حامى واثنين شاى ميزة ، وواحد قرفه للمعلم جاد وصلّحه ، وضربات أقشطة الطاولات المتعددة ، وصرخات لاعبى الورق ، وتهديدات المعلم فتيحة التى لا تنتهى لعماله على (النصبة) ، ودقات ماسحى الأحذية على صناديقهم الخشبية ، ونداءات الباعة ، وتوسلات الشحاذين .. حين لفحه كل هذا بحيويته نسى حكاية الأشباح ، ونسى رعبه ساعة قالت سنية : إنه الشبح .. فلا شبح هناك إلا بنى آدم ، وابتسم لنفسه وهويقول : والشبح طلع ابوها !

وجاءه صوت الأسطى عطوه المرح المتموج حياة وشباباً يقول فى تحد حبيب وأليف :

ـ عشرة على المشاريب يا سى حموده ؟

ضحك حمودة وقال :

ـ تمام يا أسطى عطوه ، عشرة على المشاريب ، وعشرة على العفاريت .

صمت الأسطى عطوه ، وهو (يفنط) الورق بين أصابعه المدربة ، ثم انحنى على المائدة ليهمس فى أذن حمودة :

ـ أنت لا مؤاخذة الليلة ممسوس .

ضحك حموده ، وقال :

ـ فرق يا عطوه ، وسأجعلك الليله أنت الممسوس وراس الحسين !

تنحنح وبسمل وحوقل وتفل وهو يدخل الدار ، وقال :

ـ دستور يا أهل الدار ، بسم الله الرحمن الرحيم ، والسلام عليكم .

وضحكت سنية وهى تمسك بيدها (اللمبة) نمرة خمسة تنير عتبة الدار حتى لا يتعثر وهويخطو داخلاً ، وقالت فى صوت مرح :

ـ يابا إنت أهل الدار ، الدستور دستورك ..

مد المعلم أبو دراع يده الوحيدة ليأخذ المصباح منها وهو يقول :

ـ الدستور واجب يا سنية ، فالدستور لعامر المكان بسم الله

الرحمن الرحيم جعل الله كلامى خفيفاً عليه ، والسلام عليه حتى لا يؤذيك ولا يؤذينى .

ومد يده يأخذ منها (اللمبة) وسار أمامها يضىء له ولها الطريق إلى الحجرة الوحيدة فى الدار ، ووضع (اللمبة) فى مكانها على القاعدة المثبتة فوق الجدار ، وتلفت حوله ليجد كل شىء فى مكانه الأليف إليه ، فتنهد فى ارتياح وهو يقول :

ـــ العشاء يا سنية حتى أخرج إلى الميدان بالعربة ، ورزق الله موجود ، وهو الرزاق فى كل حين .

قالت سنية وهى تسرع إلى (الطبلية) تضع عليها العيش المقمر والطبق الذى سخنته له حين حان موعد مجيئه . :

ـــ العشاء جاهز يابا .. ودقية البامية كما تحبها ، هل أحضر لك طبق الأرز ؟

قال المعلم أبو دراع وهو يجلس مرتاحاً أمام (الطبلية) ويمد يده إلى العيش الساخن يتحسسه فى استمتاع :

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم أدمها نعمة ، واحفظها من الزوال .. هاتى الأرز يا سنية .

ولم يقصر الرجل فى حق العشاء الموضوع أمامه ، فقد كان جائعاً .. الوقفة طوال النهار أمام عربة الجوافة تهد الحيل ، وأكواب الشاى المتتالية لا تسد جوعاً وإنما تزيد الإحساس بـه ، والبيت هادىء ودافىء ، والطعام شهى ، وزينب زينة البنات وسيدتهن .. كانت سنية ترقبه وهو يأكل ، وتستمتع بصدق شهيته لما طبخت من طعام .. كم تحب اقباله على طعامها ! وكم تحب تذوقه لهذا الطعام الذى صنعته بيديها ! ستأكل هى بعد حين . بعد أن يفرغ من طعامه ويشبع تجلس هى إلى (الطبلية) لتتناول عشاءها . أبداً لم تجلس معه منذ ماتت أمها .. كانت هى مكان أمها ، تقف على خدمته حتى يفرغ ، ثم تأكل ما تبقى من طعامه برضاء كامل وسعادة . يكفيها أنه اشتهى طعامها وسعد به .. جائزتهاالكبرى أن يجهز على أكبر قدر من الطعام ، فهذا يعنى أن ما صنعته بيديها يلقى لديه ما كان يلقاه طعام أمها الراحلة التى كانت تصنعه . ومد يده إلى صحن الأرز يجذبه أمامه ، ورفع رأسه ، وقال :

ـــ هل كان أحد يزورنا الليلة يا سنية ؟

اضطربت سنية ، وتلعثمت ، ولم تعرف ماذا تقول ، فلاذت بالصمت . ولم يلحظ المعلم أبو دراع وجوم ابنته وصمتها ، فاستأنف حديثه قائلاً :

ـــ منذ دخلت الحارة وأنا أسمع أقداماً ناحية بيتنا ، وكنت أنتظر أن أجد ضيفاً فى انتظارى هنا ، أحد الأصحاب أو الأقارب ، ولا أكتمك الحقيقة يا سنية ، ارتحت حين لم أجد أحداً ، فأنا أحب دائماً أن أخلو إلى عشائى .

وارتفعت ملعقته ملآنة من طبق الأرز ، وسكت صوته ، وسنية تفكر ، وتحتار ، وتتمالك نفسها ، وتسكت اضطرابها ، وتطمئن نفسها أنه سينسى سؤاله بعد حين ـــ ولكنه حين ابتلع الأرز الذى حشا به فمه ، عاد يقول :

ـــ وأدهشنى ـــ نعم أدهشنى أننى لم أجد أحداً .. فهل سأل عنى أحد وانصرف ؟

لم تكن سنية تحب أن تكذب ، ورغم أنه سألها بحيث أتاح فرصة الكذب ، فإنها لم تجد فى نفسها القدرة على الكذب عليه ، فظلت فى اطراقتها وصمتها وقلبها يهتز فى قلق .. ثم وجدت مخرجاً لكل عذاباتها حين قالت :

ـــ سمعت من جديد صوت أقدام الشبح تخترق الحارة إلى هذا البيت الخالى المتهدم الذى لا يسكنه أحد .

كفت شدقاً المعلم عن الحركة ، وسكنت حركة يده الممدودة بالملعقة إلى صحن الأرز .. وأطرق برأسه ، ثم قال :

ـــ اذن هو الصوت الذى سمعته .. نعم .. نعم .. هو الشبح .

قالت سنية وهى تتنفس الصعداء :

ـــ هل سمعته أنت أيضاً ؟

لم يجبها ، وإنما ظل فى مكانه كأنه لا يجد القدرة على الحركة ، ثم وضع الملعقة فى طبق الأرز فأحدثت صوتاً حاداً وسط الصمت ، وابتلع ما فى فمه فى صوت مسموع .. وقال وهو يدفع صحون الطعام من أمامه :

ـــ لقد اكتفيت ، أو أنسدّت نفسى ، فقط ارفعى هذه الصحون من أمامى .

ساد الوجوم ، ودفع الرجل الصحون من أمامه ، ومضت سنية ترفعها فى بطء وتثاقل ، تغدو بين الصالة والمطبخ تنقل كل شىء فى صمت ووجوم .

وعاد الرجل بجسده إلى الوراء ، ثم أخرج علبة السجائر المبطنة ، يخرج منها سيجارة صغيرة ويشعلها فى صمت ، وينفث دخانها فى سكون ، ولا يتكلم .. وامتدّ دخان سيجارته أمامه حلقات ، قبل أن يستريح جسده ، ويتنهد فى عمق ، ثم يقول قاطعاً الصمت الطويل :

ـــ لكم سمعت الشبح ، يسير عبر الحارة ، ثم ينحنى إلى الزقاق ، ثم يقف ، ثم يصعد السلم فى بطء ، ثم يقف عند الشقة فى الدور الثانى ، الدور الثانى تماماً .. وتكف أقدامه عن الحركة ويسود الصمت .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كانت سنية قد عادت من المطبخ ، ووقفت إلى حذاء كتف ابيها ، وقالت كأنما تؤكد لنفسها شيئاً تريد ان تقتنع به فى أعماقها :

ـــ هذا ليس شبحاً يا أبى ، هذا هو الأستاذ يعود إلى البيت القديم ، ويشعل اللمبة ، ويظل يكتب حتى الصباح ، ولا يؤذى أحداً ، ولا يحدث أحداً ، وليس هو بشبح ، انا لا اخافه ، بل إنى انتظر عودته وأرقبها واحسُّ بها ولا اجد فيها ما يخيف .

نفث المعلم أبو دراع دخان سيجارته فى بطء وهدوء ـــ وصمت ـــ ثم قال وهو يحرك ذراعه السليمة طالباً منها السكوت :

ـــ أنت لا تعرفين ، هناك شبح ، وهناك شبح .. الشبح الذى لا تخافينه شىء ، والشبح الحقيقى الذى يخيفنا جميعاًشىء آخر .. شىء آخر .. خوف حقيقى آخر .. سأحكى لك فاسمعى .

كان فى لهجته ما دفع سنية إلى أن تنصت فى إصغاء ، وقد تسلل خوف ما إلى قلبها ، فضمت شالها إلى جسدها ، واقعت إلى جواره وهى تقول :

ـــ من زمن أريد أن أعرف الحكاية ، فكلما سألت لا يجيبنى أحد .. فقط إشارات وهمسات وخوف ، ولا أحد يريد ان يحكى الحكاية .

جاء صوت المعلم أبودراع وئيداً حزيناً ، وهويقول :

ـــ كان شاباً ولا كل شباب الحى هذه الأيام .

قالت :

ـــ ثم .

قال :

ـــ حكاية هذا الولد لا تجعل فى العقل ولا القلب مكاناً لشىء .. ارفعى باقى صحون الطعام واسمعينى . وحنت سنيه رأسها ، ومضت لتستأنف رفع صحان الطعام ، والمعلم يشعل سيجارة جديدة وهو يتابعها بنظراته الساهمة .. التى كانت تنظر الى أمام فى تطلع كأنها تشهد منظرا بعيدا وغريبا .. وكان فى صوته جرس غريب ، جعله مجوفا عميقا وهو يقول :

ـــ كلنا كنا نحبه ، وكلنا كنا نرقبه فى صمت ـــ الأدب الكامل ، كان يحب أمه وإخوته ، وكان كل شىء فى حياة أمه واخوته ـــ وكنا نحب أباه . الرجل الطيب الذى يلتقط رزقه فى (بين الصورين) ، وكيلا يكتب كلمات فوق ورق ، و (مشهلاتى) يحمل ورقا الى مكان ، لينجز شيئا فى مكان آخر ، و (عتالا) يحمل ما يطلبه صاحب العمل من بضائع من مكان الى مكان .. ولكن (عبد العزيز) كان عندنا محترما ـــ فى ابتسامته الشاحبة ، ووجهه المعروق ،وجَلَدُه الغريب فى حمل أعباء عمله الردىء ، فى صمت وسكون ورضاء كامل ـــ كيف كان يمكن لهذا الرجل ان يعول هذه الأسرة المستورة ؟ لا أحد منا كان يعرف ، ولكنه كان دؤوباً وصامتاً وحازماً وضاحكاً فى آن واحد .. وكان يمضى فى إصرار وصمت ـــ وكانت هذه العائلة تعيش فى ستر ورضاء ، وكنا نجل وجودها ونحترمه فى اعتزاز وتقبل .

قالت سنية :

ـــ موعد خروجك حان ، فلا داعى لكل هذه الذكريات .

فتنهد المعلم أبو دراع ، ورفع رأسه وكأنه يستخرجها من جب عميق وقال :

ـــ هذا الولد فى عز أكتماله مات !

قالت سنية ، وهى تعدل وضع (اللمبة) بعد أن نظفت (الطبلية) من الطعام :

ـــ أجله يا بابا .

ثم انزلقت من أمامه ، تحمل الأوانى فى صمت وهدوء وتنهد المعلم أبو دراع ، وأخذ يعبث بملابسه وهو يقول :

ـــ العمر الطويل لك يا سنية ـــ هذا الولد لم يحتمل ، فمات

فوقفت سنية عن الحركة ، والتفتت إلى أبيها وهى تقول :

ـــ كيف مات ؟

همس المعلم أبو دراع :

ـــ الله ستار على عبيده ، مات والسلام .

أصرّت سنية وبدا فى صوتها حزم غريب وهى تسأل :

ـــ لا يابا ـــ كيف مات ؟ هذا دائماً هو السؤال ؟

نهض المعلم أبو دراع من جلسته ، وعدل ثيابه ، والتفت يميناً ويساراً وهو يقول :

ـــ دستور يا سيدى ـــ هذا حكم الله ، ولا اعتراض .. أبداً لا اعتراض .

قالت سنية :

ـــ وكل ليلة أتابع شبحه وهو يدخل الحارة ، وهويسير فى الحارة ، وهو يتجه إلى الدار ، وهو يصعد السلالم .

صاح المعلم أبو دراع :

ـــ دستور .. دستور .. كفى يا سنية كفى .. حين ترين هذا أدخلى بسرعة ورددى اسم الله ، وأستعيذى من الشيطان .

قالت سنية :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ وهل هو شيطان ؟

وقف المعلم أبو دراع .. وتمالك نفسه وقال :

ـ الشيطان لبسه ذات يوم فقفز من النافذة إلى بلاط الحارة وتحطم جسده . وصمت واجماً ثم تنهد وقال :

ـ أخرج إلى الميدان بالعربة الآن ، فاذهبى وأشعلى الكلوبات .

قالت سنية فى إصرار :

ـ ركبه الشيطان ومات والشيطان فى داخله ؟

بسمل المعلم أبو دراع وحوقل ، ثم قال فى خفوت :

ـ علم الناس عند الله ، واتركى الخلق للخالق .

وذهبت سنية فى صمت إلى الكلوبين ، ترفع (الراتينة) وتشعل كل واحدة حتى تتوهج ثم تغلق الساتر الزجاجى ، وتحمل واحدة إلى مقدم العربة ، والثانية إلى مؤخرتها ، وتعود إلى أبيها لتقول فى هدوء :

ـ الكلوبات اشتعلت ، والعربة جاهزة .

وكان المعلم أبو دراع فى كل هذا الوقت قد أنهى هندمة الجلباب الأبيض الطويل ، وعدل اللاسة واستعد للخروج ، فقال :

ـ تركتك بعافية ، ولا تتركى شيئاً يزعجك ، أنت تحفظين الصمدية ، اقرئيها عندما يظهر لك شبح من هذه الأشباح .

ضحكت سنية وقالت فى عنف وهى تهز رأسها :

ـ أى أشباح يابا ؟ ليس هناك أشباح .

قال المعلم وهو يسوق العربة أمامه بيده الواحدة :

ـ الله ستار يا سنية ، وعلم كل الأشياء عند الله .

ثم فتحت سنية الباب ليخرج المعلم أبو دراع بعربته ، والكلوبات تضىء ثمار الجوافة اللامعة المرصوصة فوق العربة بعناية ، وهمست وهويبتعد عنها :

ـ فى رعاية الله يابا ..

ثم وقفت تمسك رتاج الباب حتى انحرفت العربة بحملها عند الناصية ، واختفت أنوارها عن ناظريها ، فردت الباب فى رفق ، وأعادت الرتاج إلى مكانه ثم مضت تكوم الصحون لغسلها ، وبالها مشغول بحديث أبيها الأخير . وفجأة سمعت الصوت ، صوت أقدام تضرب أرض الحارة فى ثقة ، وتتقدم خطوة خطوة إلى أمام ، ووجف قلبها ، وأحست بالرعب فتركت الصحون أمامها وتجمدت .

الأقدام تمضى فى بطء وثبات ، خطوة خطوة ، من أول الحارة حتى حاذتها ، وكاد قلبها يتوقف ، ولكن الخطوات تعدتها ومضت تسير من جديد ، خطوة خطوة حتى ابتعدت عنها تدريجيا ، وهى تحس بها كأنها تسير فوق رأسها .. ثم انفرج صوت الأقدام عند ناصية الحارة الداخلية ومضت مبتعدة مقتربة نحو باب البيت المقابل الذى يقع بابه فى الحارة الأخرى ـ وظل صاحبها يتقدم ويتقدم حتى حاذى الباب .. هو فى حذائها تماماً من الناحية الأخرى ـ ثم صمت الصوت ، وكاد قلبها يكف عن الخفقان . وتوقف كل شىء للحظات ، ومات قلبها .. ثم عادت الأقدام تتحرك من جديد صاعدة هذه المرة ، هذا السلم المهجور ، سلم البيت المهجور .

إلى أين سيصعد ؟ إلى الطابق الثانى ، ويستقر . هذا رجل حى ، تعرف أنه يجىء هنا ليكتب بعد لحظات يصمت كل شىء إلا صوت الموسيقى ، ولا خوف .. أم تصعد الأقدام إلى الطابق الثالث الصوت يعود يعلو بخطواته ويستمر .. هذا شىء آخر ..إنه .. الشبح

ولكن الصوت ، صوت الأقدام كف عند الطابق الثانى . وسكت وسكت قلبها معه .. هل يدخل الشقة الخالية ، هل يملؤها حياة ، هل ينبعث صوت الموسيقى ، هل يكتب ويكتب حتى ينام كل شىء ؟ .. أم ..ولكن صوت الموسيقى جاء ..

وهدأت نفسها واستقرت ، هذا ليس الشبح ، هذا هو الشبح الآخر الذى يجىء هنا إلى البيت المهجور ، إلى مكانه القديم ، إلى الدور الثانى ، حيث يسمع الموسيقى وحده ، ويكتب وحده ..

وجاءتها أنغام خافتة بعيدة هادئة ـ وتحركت سنية ، وتنهدت ، ومضت إلى المطبخ وحين انتهت من غسل الصحون ، وتنشيفها ، حملتها كلها إلى الدولاب ترصها فى حرص ، وقد هدهدت الموسيقى من خوفها ـ وقالت سنية لنفسها :

ـ ممّ تخافين يا بنت ؟ . هذا إنسان يعيش فى دنيا قديمة .. ولكنه إنسان ، وحى . لم يحط نفسه بالموتى ..

ـ هو حر ـ مالنا وماله ؟

ـ وكادت تغنى حين انتهت من عملها .. لولا أنها سمعت صوت الأقدام من جديد ـ من أول الحارة هذه المرة .. لا شك .. هذا هو الشبح .. الموسيقى تأتى من الدور الثانى لا تقف ولا تتوقف ، ووقع الأقدام من أول الحارة ثابت وقوى ، يرجّ الحارة رجّاً ، يرجها هى رجاً ، كل شىء فيها يرج ـ فالأقدام تقترب ، وتقترب ـ ثم تتوقف عند بابها تماماً ، تتوقف وتوقف وجيب قلبها . وفجأة سمعت صوتاً حبياً يقول :

ـ هل أنت صاحية يا بنت الحلال ؟

وكادت تصرخ ، كادت تبكى .. فجأة اندفعت نحو الباب ، ترفع متاريسه ، وتفتح ضلفتيه وهى تقول :

ـ حموده .. ادخل يا حموده .

وفوجىء حموده بهذه الدعوة الغريبة التى لم يتوقعها من قبل ، فوقف أمام الباب مرتجفاً حذراً ، وهمس :

ـ ما هذا يا بنت الحلال ؟

قالت وهى تشده من ذراعه ليدخل من الباب فى عنف وتدفع المتاريس الداخلية دون وعى ، وهى تضحك وتبكى وتمسك يديه فى عنف وتقول :

ـ ادخل يا حموده .. أدخل ..

وفجأة وجد حموده نفسه فى دنيا من الأذرع والأنفاس والقبل .. ولم يعرف حمودة إلا أنها بين يديه وأنه يضمها ، وأنه يقبلها ، وأن أنفاسه متلاحقة ، ومخيفة وسريعة ، وللم نفسه وهو يقول فى حيرة :

ـ ما هذا يا بنت الحلال ؟

استكانت على صدره ـ هدأت ، واعتدلت أنفاسها ، وهمست :

ـ الشبح يا حمودة ، الشبح !

وازدادت دخولاً فيه ، ومد يده يحتويها ، فاهتز جسدها بين يديه ، وثارت فيه كل كوامن الرغبة ، وتصاعدت روائح عبقة من شعرها ، فربت على رأسها ، وقال فى تحرج :

ـ يا بنت الحلال ، ليس هناك شبح

قالت وهى ترتجف بين ذراعيه :

ـ سمعته ، يدخل الحارة ، يدور حول المنعطف ، يصعد السلالم ، يدير الموسيقى ، ألا تسمعها ؟وكانت الموسيقى الخافتة تصل إلى أذنيه وهو يضم جسدها إلى صدره ، وعطرها يملأ أنفاسه ، ولكنه كان يحاول أن يتماسك وهو يقول :

ـ ليس فى هذا خطر ، إنه يحب ما عاشه فهو يعود إليه بين الحين والحين ، وليس هو شبحاً بل هو إنسان يحس بالغربة فى عالمه ، فيلجأ إلى الغربة فى دنياه القديمة ، ولن يجد سلام نفسه أبداً .

ودخلت سنية فى جسد حمودة فى عنف ، كأنها تريد أن تخترق الجسد ليحتويها ـ وأحس حمودة أنه يحمل فوق أذرع مجهولة إلى عالم مجهول ، ومد يديه يريد أن يبعدها عنه ، وفجأة ارتفع الصوت من جديد ..

وقع أقدام .. وتشبثت به سنية وهى تقول :

ـ أسمعت ؟ هذا هوالشبح .

وأخذ حمودة يربت على جسدها لتهدأ ، فإذا هويثور ، كل جزء يمسه من جسدها يبعث رسالة مخيفة صاخبة إلى كل جزء من وجوده وكيانه ، وهمست وهى فيه كلها :

ـ أسمع .. هو يتقدم إلى داخل الحارة ـ كالمعتاد كل ليلة يريد بيته القديم ، وهويدور .. كان الصوت قد وصل إلى حافة البيت ، ثم أخذ يتحرك إلى أمام ، ثم يدور ، ويتجه إلى مدخل البيت بعد المنعطف ، واهتزت بين ساعديه ، وتفتحت وقالت :

ـ أبعده عنى ..

ثم صاحت فى رعب ورغبة :

ـ اقترب منى ، التصق بى ، خذنى كلى .. حمودة ، أمسك يدى ، حمودة ..

وقال حمودة :

ـ ضعنا يا بنت الحلال .

ومن بعيد جاءت وقع أقدام وهزة عربة تتحرك فوق بلاط الحارة ، تتحرك فى رتابة واستمرار ، نحو البيت ..

وهمست سنية :

ـ ماذا نفعل يا ابن الحلال ؟

همس حمودة وهو يلهث ، وقال :

ـ نقول له الحقيقة ..

همست سنية :

ـ غداً نتزوج .

همس :

ـ أضاعنا وأحياناً وقع أقدام

ودست وجهها فى صدره ، ووقع أقدام المعلم أبو دراع تقترب ، وقعقعات العربة واضحة فى الحارة .. وفجأة غطى عليها وقع اقدام يعرفانها جيداً ، وهمست :

ـ يعود :

ـ قال :

ـ بل نحن نعود .. وغدا فى هذه الحارة نصبح وقع أقدام .

القاهرة : فاروق خورشيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

موسيقى الملح لا تذوب

إدوار الخراط

كيف ينحسر الزمن ! لا يوجد ولم يكن موجودا قط . والبراءة الأولية هى القانون .

فى جوهر من الكينونة لا أثر فيه لما مضى ، للآن ، وللمستقبل ، أنا معها فى قهوة على الكورنيش ، البحر الأزرق النقى وزبده الأبيض الهادىء بلا صوت ، كالصبا ، حتى لم يندثر ولا انقضاء له، وصاف مثله ، ليس فيه إيماءة لما جاء بعده ، وليس قبله شىء .

ليس فيه عودة ، ذلك البحر ، وتلك التى معى . هما البدء الذى لا يزول ولا تدور به دورةٌ ما . والبدء أصلاً قائم دون ان يكون ماضياً ولا حاضراً وليس له مستقبل .

هو الآن . فقط . دون أدنى حِسّ أنه الآن .

عصا سحرية قد محت عنه المستقبل الذى أصبح ماضياً فيما بعد والذى لم يطرأ قط بعد .

كانت معى . وكان هناك سلام ، ونور الصبح الرائق .

وكانت ملامحها غير واضحة ، كأنها تسبح فى سحابة مشعة صامتة الضوء .

لم يكن مهما — ولم أتساءل قط ، ولم يخطر لى أن أسأل — أبداً ، مَنْ تكون .

أعرفها تمام المعرفة ، مطمئناً وراضياً ، وساجى الروح .

ليس للحلم زمن . ليس حلما . ليس هناك زمن .

عندما هبّ الهواء فجأة ، منعشا وأميلَ للبرودة ، كان أدعى للتحدى .

وعندئذ تخلل نورُ شمس الشتاء شعرَها الأصهب المصفر ، وسقط بوضوح على خصلة خفيفة منه مرفوعةٍ على جبينها المدور ، فاشتعلت بالنار . كان حاجباها عميقى السواد ، وكانت العينان فاتحتين وصُلبتين فيهما شكّة تَخِز القلب ، تفيضان بإيحاءات استفزاز .

« وأيضا جعلت الأبدية فى قلبك »

فى ساحةِ محطة مصر الفسيحة كانت عربات الحنطور السوداء المنتظرة تحمل معنى معلّقا غير محسوم ، مواكب الوصول والرحيل معاً ، الأفراح والمآتم معا ، ورائحة بول الخيل النفاذة من البِرَك الصغيرة لونها أصفر راكد فى الشمس .

كان صوت المطبعة اليدوية يأتى إلىَّ وأنا اذرع شارع محرم بك ، صلصلة الذراع الحديدية السوداء التى ترتفع وتنخفض بدقات مكتومة رتيبة ، أراها من وراء الواجهة الزجاجية التى عُرضت فيها كتب الهندسة والحقوق وفجر الإسلام وضحى الإسلام والاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية من ترجمة راشد البراوى وعند قهوة الإسكندرانى انحرفت وليس فى ذهنى هدف معين ، قلت أطلع ربما أرى حسن محمد حسين وربما نزلنا وذهبنا إلى سينما بلازا فى شارع فؤاد ، وعددت القروش القليلة فى جيبى ، ونسيت فورا كم كانت .

عينان ذهبيتان فى محطة أوتوبيس وهَيَاج من الشعر المخضلّ بنار شقراء محمرة .

« الليلة لم أستطع أن أنام . انتابنى أرق عصبى مرهف ملىء بالأوهام والخيالات التى يخفق لها القلب بعنف ، ويتصبب العرق . فى عتمة البيت الليلية كائنات مبهمة تملأ علىَّ الجو ، ووقْع خطى مسترقة ، وأنفاس خفية تتردد . كأننى ما زلت ذلك الطفل الذى يرى أشباحه رَأىَ العين ، بأشكالها المروِّعة ، فى قلب العَتمَة ، الرؤوس الحيوانية الضخمة الطويلة الجماجم ، والأجسام الهائلة الكتلة ، هوائية مع ذلك كأنها دخان متطاير . أ ذلك الطفل كان يحيا بالمخيِّلة وحدها ؟ صرخة واحدة مدوية يرتج بها جسدى الذى لم يعد مِلْكى ، لم يعد يطيق احتمال الرعب . والليل يتمزق بَددًا ، يأتى أبى ، وامى ، جرياً ، وتستيقظ أخَواتى ، فَزَعا ، وأنا ما أزال أحدق ، أحس نفسى ، على الرغم منى ، ثابت العينين مبهور النَفَس ، غارقا فى عرق بارد ما زلت أعرف كيف يتصبب منى ، حتى الآن . وتتلاشى الأشباح مرة واحدة حالما ينطلق الرَوْع فى صرخته التى لا عقل فيها . تلك الوجوه الغريبة الشائهة ، نصف حيوانية ، نصف شيطانية ، تحدق إلىَّ ما زالت ، من قلب الليالى ، لا تطرف عيونها الضخمة الجاحظة ، وجوه لا ملامح لها ، لا معنى فيها ، أشياء لا آدمية ولكنها قريبة جداً أعرفها ، أشكالها جامدة عجيبة تُوقف الدماء لكنها اليفة عشت معها عيشة حميمة . بقايا ذلك الرعب قائمة لا تركُ ورسيسها راسخٌ فى أصل النفس . الليلة خفق قلبى بعنف ، أكثر من مرة ، كما اعتاد أن يخفق فى تلك الظلمات الطفلية ، بمقدم الأطياف المُلمةً المُحِيقة . أنكر واسخر واجمد ، والخيالات هى هى التى تسيطر على الروح . ألم أسمعها ؟ سمعتها ، أكثر من مرة سمعتها ، لا شك عندى ، خُطى مسترقَة وأنفاساً تتردد وأقداماً خفية ترتطم بالارض ، بكوب زجاجى يقع ويتدحرج له صلصلة الزجاج ولا ينكسر . »

قالت لى ان المخبأ الواسع الكبير فى عمارة التركى أمام كازينو كليوباترا كان بارداً بالليل ، وقالت إن تيته كانت ترفض أن تنزل للمخبأ وتقول إن العمر واحد والرب واحد ، وكانوا يُحضرون لها البطاطين ويلفونها حول جسمها الصغير الرقيق فكانت تهز رأسها الشفَّاف الأبيض وترضىَ أن تذهب معهم فقط حتى لا تتركهم وحدهم . وقالت إن الست تيريزا الطليانية وأولادها : البنتين والولد ، كانوا يبكون بصوت مكتوم عندما تدقدق المدافع المضادة للطائرات ، وإنه عندما يشتد الضرب كانت « أبانا الذى » تختلط بآية الكرسى ، والدعاء باليونانية والطليانية يختلط بيا لطيف يالطيف ياخفى الألطاف نجنًا مما نخاف ، وانه عند انتهاء الغارة بالصفّارة الطويلة المتصلة البهيجة كانت الناس تضحك ، وتصعد سلالم المخبأ وهى تكاد تسقط من النوم .

« أغمض عينىَّ بشدة ، أتمالك أنفاسى ، أهدىء ضربات دمائى . أقول هذا الهواء يهب فى الفَسحة ، فأر يجرى ربما ، شىء من هذا القبيل . لا أقتنع ، لا أقتنع . هاهى ذى الأقدام من جديد ، والأنفاس ، والخطى . الأرق العصبى — أقول لنفسى — شىء مرهق ولا يُحتمل . وفى خلال ذلك كله أحلم بها . حلم يقظة آخر أم حلم منام ؟ هنىء ، على مرارته . لماذا أخدع قلبى ؟ هى . هى التى توقظ أشباحى ، وآلامى . أحلم باستمرار وبيأس منها . هى التى تسيطر على أحلامى . ولا تعلم بشىء على الاطلاق من ذلك كله ، بطبيعة الحال . لعلها لا تحس بوجودى أصلاً ، على أى وجه . وماذا فى ذلك ؟ حالة كلاسيكية من حالات الحب من طرف واحد . معروفة وموصوفة ومألوفة جدا . ما أشدّ رُخْص ذلك ! ولعل جمهرة منا — فيلقاً جحفلاً — يحلمون نفس الحلم ويتنهدون أيضا فى نفس اليأس . ياعينى ! شدَّ ما تبدو الحكاية جافة وهزيلة . كيف بدأت ؟ »

قالت إنه عند سيدى جابر تقوم صخرة كبيرة بعيداً فى البحر وكانوا يسمونها « صخرة مالطة » ويتسابقون فى السباحة إليها ، وكانوا يعودون إلى صخور الشاطىء العالية البرّية الشكل ، ويصطادون أبو جلمبو الصغير الأبيض الجسم الشفَّاف الأرجل بأن ينقروا على الثقوب الصغيرة التى يأوى اليها فى قلب الصخر ، يدفعون إليها بعصا رفيعة تُرغم الحيوانات المذعورة الدقيقة على الهرب الى الخارج ، وإن مِنْ كان يجمع أكبر عددٍ منها كان له الحق فى أن يكون سلطان اللعبة أو سلطانتها ، وأن يملى شروطه .

« كان يوم أحد . تانى يوم ، تماما ، لبدء الدراسة فى الجامعة ، لم أذهب للكلية أول يوم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لماذا ؟ ما أهمية ذلك الآن ؟ المهم أننى دخلت المدرجَ ثانى يوم للدراسة ، وفى آخر محاضرةٍ أيضا . فتحتُ باب المدرج . كان مزدحماً على الآخر . وكان الدكتور عمر ممدوح يبدأ كلامه عن هندسة الإنشاءات ، فسكت وأنا أدخل المدرَّج . وفوجئت بها . رأيتها فى الصف الأول ، فى أول مقعد جانب الممر الصاعد الدرجات فى وسط القاعة الفسيحة . كان الصمت كاملاً . وكانت فاتنة ، ناضرة ، متألقة . البلوفر الأخضر الداكن ، خفيف النسيج ، يرفع صدرها الناهد المتحدى ، وشعرها مضطرب فيه هَيَاج ضارب إلى الصهبة ، وجهها مشرق فى جو المدرج الذى يتطاير فيه غبار متطاير لا يكاد يُرى ، ونور العصر . ألقت ، بطبيعة الموقف ، نظرةً عابرة على هذا الطالب الجديد الذى يدخل متأخراً عن بدء المحاضرة ، متأخراً فى كل شىء صعدتُ المدرج ، وحدى فى الزحمة ، وجلست فى آخر صف . نظرة لا معنى لها . لكنى أحسست بقلبى يغوص ، وبالدم يندفع إلى رأسى . عرفت عندئذ الشعور الذى لم يفقد قوته لحظة واحدة طيلة أسابيع وشهور لا نهاية لها . نصاعتها وسطوعها وتوهجها وحيويتها الدافقة الحارة الجسور ، وظلمتى وصمتى ووجود كمنير منطو على عذابات غير ضرورية وغير مفهومة يترشّفها فى جمود مرير .

وأقول لنفسى : يا أخى والله عيب عليك . أهذا كلام ؟

فى اليوم نفسه ، ذلك الأحد بعد الظهر ، تركت هى المدرج فى العشر دقائق بين محاضرة الإنشاءات ومحاضرة الرياضيات العليا فاقتربتُ ، وأنا خارج ، من مقعدها الخالى . ووقفت عنده لحظة . كان اليوم حاراً فى أكتوبر ، وكانت قد تركت جاكتتها على المقعد ، وكتاباً . انحنيت ، بجرأة ولا مبالاة ، وقرأت عنوان الكتاب . « مختارات من أشعار لا مارتين » بالفرنسية .

قلت لنفسى : كأنما فى ذلك رسالة لى أنا . وقلت : قال يَعنى .. ! شعرت بنظرات الطلبة حولى متسائلة ومتطلعة ، فمشيت خارجاً فى تثاقل مقصود ، ونوع من استهتار اليأس . قال يعنى .. ! الأمل لم يساورنى فى أية لحظة ، ولا لحظة ، لماذا ؟ كان أى نوع من الأمل منفيا ، بعمدٍ ، من البداية . وبديهى اننى لم أحلم بشىء غيرها طول يومى ، طيلة الأسبوع ، والشهر ، والسنة من العبث أن أقول عن هذا الحلم . معروف وموصوف بلا مزيد عليه . فقط ، كان فيه — ومازال — نوع من الظلام ، والصمت ، الصمت ، الصمت . كيف يكون هذا الصخب الجياش المتصل صمتاً لا تنكسر شوكته ؟ الوحدة مع هذا الصمت كانت — ومازالت — باهظة .»

كان على الحائط ، تحت السقف مباشرة ، بُرص كبير ، فى طول نصف ذراع ، أزرق رمادى مغبَرّ ، يقف ثابتا صامتا ومهدِّدا . ولاأستطيع أن أحول بصرى عنه ، وكأنه هو أيضا يترصدنى ، من فوق . وفى الصبح طرقَ رجالُ الدفاع المدنى البيت ووزعوا علينا الأقنعة الواقية من الغازات السامة ووقّعتُ لهم على إيصال باستلام عدد (٥) أقنعة ، وكانت رائحة المطاط نفاذة والبلاستيك الشفاف السميك أمام العينين لم يكن صافيا ، والخرطوم الغليظ فيه حلقات دائرية مضلعة وضعناها فى السندرة ، ونسيناها وبعد الحرب اكتشفنا ان الفيران قرضت منها أجزاء كبيرة ، وأن زبل الحمام الجاف قد تصلّب عليها .

" قلت لنفسى هذه نوبة شغف ، مثل كل النوبات السابقة ، فقط ربما كانت أشد حدة وعنفا وروعة . كل هذه الفتيات أحببتهن أيضا ، بصمت ، قلت :" من صومعتى الموحشة كما يحب الراهب الله " قلت : " ليس حبا إنسانيا ، إذا صح أنه حبّ على الإطلاق . أشبه شىء بموكب من الأحلام الجميلة ، رغم كل شىء ، ومن الكوابيس أيضا ، من التآكل الطويل الذى لا يتركز فى شىء ، سهوم عذْب ومرير معا ، ويأس كأنه مطلوب ، ونجوى كأنها ضرورة ، ولهب مدفون فى الروح . موكب كأنه مستقل الإرادة ، كأنه مستقل ومنفصل عنى.. عذابات وأشواق وتمردات ، تتمزق فى النهاية ، دائما ، وتسقط على حاجز من السخريات والابتسامات التى أتصور أنها مريرة ومن الدموع التى أعرف أنها مريرة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلماذا لم أبادر بأية خطوة ؟ ألسنا زميلين فى فصل جامعى واحد من كلية واحدة فى نهاية الأمر ؟ مجرد بادرة نحو إقامة علاقة صداقة ، مثلا ، مجرد الإغواء البرىء ، مجرد ،العَرْض البرىء للذات ؟ لا ، طبعا لا . ماكنت — مازلت — أريده شيئا آخر ، لاشىء غيره . هو المنح الكامل للذات . تبادل الهبة ، حتى لا يصبح ثم تبادل ، ولاهبة . وحتى أصبح أنا هو أنتِ ، وأنتِ أنا . قلت : " أى عبث . أية صبيانية " . قلت : « أى قربان .. أية ذبيحة .. » . قلت : « هبة الا ستحالة ، عطيةً مستحيلة » . وكان هناك مع ذلك سبب آخر . كنت بالفعل قد بادرتُ ، على طريقتى ، وعرفت الحبوط . لماذا أتكلم الآن ، بعد كل هذا الصمت بعد انقضاء العمر ؟ لأن ذلك لا ينقضى . »

فى عشية عيد القيامة القبطى ذهبت الى مسرح " الجلوب " فى تقاطع شارع السلطان حسين وشارع صفية زغلول . كان صديقى جورج قد قال لى أنه سيكون هناك على الساعة التاسعة . كان الزجاج السميك الدائرى الذى يحيط بالقاعة الفسيحة منذًى ببخار الأنفاس من زحمة العساكر والضباط من كل صنف وجنس ، ورائحة البيرة تختلط بزعيق الموسيقى الصاخبة حقا . والبيتُ الخشبى مكتظا بالعسكريين يراقصون الفتيات السمراوات الجَعْدات والشقراوات وبنات البلد النحيلات والممتلئات بزُواقهن الفاقع والانجليزيات من بنات الـ.A.T.S الصافيات البشرة كأنهن أبيات شِعْر مصفًى ترفرف فى ضجيج الخمرة والقذارة والعرق والاحتفال الشرس بانتظار الموت الوشيك فى صحراء العلمين وطبرق وبير حكيم ، وكان وجه سيلفانا الطويل بشعره المفروش كجناحى مَرْوحةٍ بُنّية الخصل يطفو فوق الغمر . وكان العساكر يخرجون إلى الحوش رأيتهم وأنا داخل يتقيأون ويتبولون دون تورع تحت العراء ويعودون متساندين على بعضهم بعضا أو حتى على نسائهن اللاتى ينتظرن غير بعيد ويصرخن لمرأى الرجال يبولون أويقذفون ماقى أجوافهم ، بأصوات ثاقبة ، من السكر وانطلاق العربدة الحسية فى الأوصال الجافة الجائعة . وخيل إلىَّ أننى رأيت ، فى غَيَام قادم لم يحدث بعد ، نظرة اليأس النهائى بلا نجدة فى عينى سيلفانا — هل هى هى ؟ — وأن الموج على شاطىء ستانلى بيى كان متلاطما ، والرياح تهب باردة تخبط صدورنا ، والمأوى الزجاجى الدفىء بعيد وملتبس ، ونحن نرجع من أبراج عالية مدورة مظلمة على صخور البحر .

" وكنت أراها كل يوم أكثر تدفقا بالحيوية وانضر وأروع وأجمل . وبكثير من التسلى راقبت على حيطة ومن بعيد نشوء الحكايات ونسيج الإشاعات وضروب الاغواءات وأنواع الا ستشارات والمخاصمات والصداقات والانقلابات التى كانت هى محورها ومركزها . كان فى الفصل بنتان فقط . اما الأخرى فقد كانت ، تقليدياً ، مكبوتة متحفظة مترفعة ليست جميلة ولا حتى جذابة ولا تريد أو لا تستطيع أن تعوِّض ذلك إلا بالعكوف على الدرس . راقبت النظرات التى كانت نوريس هدفها ومحطَّها ، الطويلة والخاطفة الوالهة المحترقة الباسمة والمنسحقة المتضرعة والمتحدية والابتسامات الجامدة المنسية على الوجوه والحرجة التى لا تعرف كيف تنجاب والمتلهفة والعذبة والمغوية واللامبالية والمُزْوَرة والبريئة المظهر ، راقبت الوجوه المحمرة والمتصببة عرقا والتى نزفت عنها كماءها فابيضت والمقتحِمة والداكنة والمتجهمة والمتخذة قناع الحياد ، وتتبعت المنافسات الخفية والصَرَاح والتلميحات والادعاءات وخفىَّ اللمزات والغمزات ، وصنعت من ذلك كله حياة عجيبة بديلة اعيش فيها وحدى ، أما هى فطبعاً كانت تغذّى ذلك كلَّه ، بنظرة ، بكلمة ، بابتسامة ، أو بمجرد مشيتها الجريئة ، وبمكر كأنه عفوى أو فطرى تمد ذلك كله بوقود مضطَرم تؤرِّثه كلما أوشك ان يخبو قلت مرة لصديقى حسن محمد حسين ، كأننى أتكلم عن فتاة لا يعنينى من أمرها شىء : " هى خَطِرة . تنثر الحُبَّ حولها فى كل مكان ، دون أن تحصد شيئا . وضحكنا ، وكأنما نسيت أننى فى قلب تلك الحكاية . لكننى لم أنسَ لحظة واحدة تلك النظرات الطويلة التى كانت تخصنى بها — أو هكذا قلت لنفسى — أبدا . ذلك صحيح . مهما حاولت إنكاره أو تفسيره . لا يمكن إنكاره ولا تفسيره ، لكنه صحيح ."

قالت لى إنهم كانو يلتفون جميعا ، صبيانا وبنات ، حول الميجور الإنجليزى الذى كان يأتى الى شقة الست تيريزا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الطليانية فى الدور الثانى من البيت ، فى شارع بوباستيس . كان اسمه جيمى ، وكان يحرص على أن يحضر معه ، كل مرة ، شيكولاته نستله وبرادبورى محترمة ، من " النافى " ويوزعها على عيال الحتة كلهم .

كان طويلا ونحيلا فى ملابسه الرسمية من السيرج الكحلى ، أشقر الشارب وشعره مقصوص مشذب ومحفوف جدا . وكان يقضى الليل عندهم لأن الخواجا لافونتى رجل البيت كان غائبا ، كان معتقلا فى معسكر عمل جنب السويس . كان يلبس القميص الفاشستى الأسود وبنطلون الركوب الضيق عند الساقين ويركب الموتوسيكل القديم الذى يطلق دخانا كثيفا وقعقعةً كثيفة ، فى الشارع . وكانت مدام تيريزا ممتلئة الجسم وبطيئة الحركة وصموتا قلما تتكلم . اما البنتان والولد فقد كانوا مسقيين بميةً العفاريت ، ويعاكسون كل الأولاد فى الحتة .

مرة بالليل جاء صوت هدّةٍ قوية فى الجنينة الصغيرة التى تطل البلكونة عليها مباشرة . لازم حاجة وقعت . ماهى ؟ قنبلة لم تنفجر ؟ لا يمكن لأن صفارة الإنذار ما كانت قد ضربت . شلة الأولاد الذين كانوا نائمين صحوا ، ولوّا أنفسهم ، ورغم زعيق الكبار انطلقوا جريا بالبيجامات وقمصان.والشباشب ، وحافّيين أيضا ، إلى الجنينة الصغيرة . نطّوا من البلكونة ، ووجدوه على الأرض . ممداً . هادى الملامح . مغمض العينين قالوا الميجور جيمى خلاص ، مات . وصرخوا . جاء الكبار وعرفوا أنه فقط سكران طينة . نزل على الأرض اللينة المبلولة وأخذ معه فى وقوعه جزءا من سور التراسينة التى فوق . راحوا ينادون :

" ياست تيريزا .. ياست تيريزا الحقى جيمى . الحقى " واحتمله الكبار وهو غائب ووجهه سعيد صعدوا به إلى الدور الثانى ومددوه على سرير الخواجا لا فونتى ، حتى أفاق ثانى يوم الصبح

«منذ أول يوم حضرت الكلية قرأت قائمة الطلبة المقبولين فى السنة الأولى الإعدادية المعلقة على اللوحة . رأيت اسم " إحسان نصرى " فلم أتردد وسهرت ليلتها أكتب لها أول

خطاب غرامى فى حياتى . مهذباً جداً وحريصاً جداً على مشاعرها ودون أن أوقع باسمى ، كتبت فقط أنها ستعرفنى ، وأنها مادامت تقرأ الشعر فإنها تعرف كيف يحب الشعراء . فاض قلبى بكتابة الحب الذى يرتطم دائماً بحوافه وينسكب طاميا . وأرسلت الخطاب باسمها على عنوان الكلية ، والفصل وكل شىء . وبنيتُ تصوراتٍ معقدة وطويلة عن تلقّيها الخطاب وبحْثها الخفى عن كاتبه واهتزاز مشاعرها له ، وهام بى ا ٠ ـ ل كل مَهام . هل تسترق النظر إلى ؟ هل تعرف أننى هو ، ذلك المحب المجهول ؟ كيف يمكن أن يمضى كل هذا الحب عندى دون أن يلقى منها استجابة ؟ هذا دائماً أحد أوهامى الأثيرة — وحتى لو لم تكن قد عرفت بالتحديد فهى لاشك تعرف بالحدس ، بل بيقين أقوى من كل معرفة . الإيمان بالمستحيل ثم إنكار الإيمان ، مرة بعد مرة ، من غير التخلى عن عقيدته . كأن الحنث جزء من الإيمان .

وما لبثت ان عرفت أن « إحسان نصرى » هو زميل لنا فى الفصل ، عقدتُ معه بعد ذلك صداقة حريصة ، لكنه لم يحكِ قط عن موضوع الخطاب . وكم سخرت من نفسى وانحنيت عليها بالتمزيق وكم ضحكت الضحك المرير وضحكت على الضحك المرير . لماذا لم أرسل إليها ، باسمها الحقّ هذه المرة ، خطاباًآخر ؟ لماذا لم أحكِ لها الحكاية كلها ، وكنا بلا شك سنضحك معاً ، وسوف يتطهر الألم ؟ قلت : لا .. ليس عندى إلا وثبة واحدة ثم أسقط . قلت لا .. حتى عندئذ فإنها كانت تعرف ».

اما فى شقة شارع ابن زهر فقد كانت الساعة الثانية صباحاً وكانت النافذة محكمة الإغلاق علىَّ ، وكنت قد فرغت من « لزوميات أبى العلاء » وبدأت أستأنف ترجمة « قُبَّرة » شيلى ، وفى اللحظة نفسها التى انطلقت فيها صفارة الإنذار بصوتها اللجوج المتقطع الملحاح تمزق سكون الليل وتدقُّ القلب سمعت صوت الهدة المروعة واهتزت جدران البيت وسطع النور الأبيض خطفة واحدة ملأ منور البيت ودخل علىَّ فى حجرة النوم والمذاكرة التى يشغلها السرير الكبير المزدحم بأخواتى النائمات عايدة وهناء ولويزة ومع بَرقْ النور الضارب صوتُ انهيارِ أنقاض مقرقعٍ ومتلاحق وقريب جداً وخطر فى ذهنى أن البيت قد ضُرِب ، لكنى وجدت كل شىء كما هو ، لبست الجاكتة على البيجامة ونزلت بالشبشب ، وبعد قمة الشارع وجدت فى أول الحارة المتقاطعة معنا واجهةَ البيت الذى فيه بياع الفول والفلافل قد سقطت كأنها كُشِطت بسكين ضخمة ، وكومةً من الطوب والهَدَدَ فى الحارة ، والثلاثة أدوار بانت كلها فى ضوء الكشافات التى تجوب صفحة السماء الزرقاء الصحْو بين قرقعات مدافع الآك الآك الرفيعة الثاقبة التى تنفجر وتنبسط ورُودُ شظاياها القرمزية والخضراء كالألعاب النارية . كانت السراير والدواليب والملابس المعلَّقة على المسامير فى الحيطان وكراكيب البيوت وصور أصحاب البيت والآيات القرآنية وصور مار جرجس والعذراء الملونة بالأزرق والأحمر ، معووجة قليلاً ولكنها ما زالت ملتصقة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالجدران الداخلية التى لم تُمس . وكان على الباب مجموعة صغيرة من الرجال والنساء بملابس النوم والبنات الصغيرات يبكين ويصرخن بخفوت والأولاد يتعلقون بفساتين أمهاتهم بصمت ، وجوههم تبدو بيضاء فى الليل . وفجأة صفرت صفارة الأمان ، طويلة ممتدة سعيدة . ورجعت .

« لماذا العن دائماً كل ما أحبه ؟ العنها باستمرار . ألعنها لآلاف الأحلام الهنيئة التى ما زالت تغبش فىّ ، والتخاييل التى تدور حولها ، هى فقط ، والكوابيس المميتة التى تملأ وحدتى فزعاً وتعذيباً . العنها هى ، ليأسى أنا ، ومع ذلك فأى شأنٍ لها بهذا الضحك بهذا الضحك الهستيرى الدامع ؟ بالضبط . العنها لأنها هى البعيدة التى لا تدرى بشىء ، ولا جريرة عليها فى أنها لاتدرى بشىء ، ولن تدرى . ولن تحس . كأننى أقضى عصورا مظلمة " أوجدها لنفسى ، أو أغوص فى حمأة أرضٍ مُحَرَّمة . وحتى الآن ، فإن هذه السيدة لاتعرف شيئا عن هذه الحكاية كلها التى تبدو مبتذلة وشديدة الرثاثة ، وهى مع ذلك فريدة ومحلقة ولا نظير لها . أصبحت هذه السيدة مهندسة معروفةً فى الخمسينيات ، فى الإسكندرية ، ثم انقطعت أخبارها عنى ، وبالطبع لم تختف أبدا عن ذلك الكهل الذى ظل يحب على وجهها ترسبات مَحَبَّاتٍ كُثُر . وصحوت ذات يوم بعدها بثلاث أربع سنين ، فأدركت فجأة أننى ، على غير معرفة منى ، قد برىء قلبى من شَغْفته . مسير الحى يتلاقَىٰ . فلم لمْ نتلاقَ ؟ هل نحن نموت ، أحياء ؟ الحبُّ المتدفق الضائع سدى مسفوحاً ، من غير ضرورة ، ولا معنى . »

أما قبلها بسنة واحدة ،أو بسنتين ربما ، فكأنما قمت بطقس آخر من طقوس لَقَانة الرجولة ، بعد طقسِ الحريق ، وخَلُصتُ من محتويات مراهقتى ، فى الدور السفلىّ من " البترينة " الخزانة الخشبية ذات الدور العلوى الذى له واجهة زجاجية ، رصصت وراءها ما أملكه من كتب قليلة « التنين » للشعر الإنجليزى ، التوراة والانجيل ، والقرآن ، « الأدب والدين عند قدماء المصريين » ، « المنتخب من أدب العرب » ، « مختار الصحاح » وقاموس وست الانجليزى ، وقاموس بيلو الصغير الفرنسى ــ العربى الذى بللّته وجفّت عليه مياه المحمودية عندما غرقتُ ، لحظة ، وأنا أخرج من المعدية الى الشط ، وأعداد قديمة من مجلات الهلال « والمقتطف » « ومجلتى » و« أبوللو » اشتريتها من بياع الصحف الذى كان يضع فرشته تحت الجدار الرخامى لشركة ليبون فى آخر شارع صلاح الدين ، أجرى حافيا على أسفلت الشوارع النظيفة السخنة ، وصندلى تحت ذراعى ، بالبيجاما أو الجلابية ، عندما تنام أمى نومة بعد الظهر ، وأوصى أختىَّ عايدة وهناء أن يتركن باب الشقة مفتوحا حتى ادخل دون أن أدق عليه عندما أعود ، لاهثاً ، دماء الجرى والمغامرة واللّقيا تضرب جسمى ، ومعى غنيمتى ، دون أن تحس أمى أننى خرجت ورجعت .

لوحتان من الخشب ملصوق بهما صَدَف وودَع صغير وكبير مجلوب من رمل الشاطبى منذ الشتاء الماضى ، جمجمة حيوانية بيضاء هل هى لغزال أم لثعلب ؟ مفتوحة المحجرين لها رائحة جافة وليست سيئة ابدا ، مجلوبة من رمل الطريق الصحروای الذى كنت اشتغل فيه الصيف الأسبق مع خالى ناثان (كنت أحسب أجور عمال التراحيل المشتغلين فى رصف « طريق المعاهدة » بعد الرست هاوس بقليل ، وأسجل شكاير الأسمنت وحمولة لوريات الزلط كل يوم ، وأكتب كشوفات بذلك كله بالقلم الكوبيا من نسختين .) صليب مخصوف من سعف النخل مجلوب من كنيسة العذراء فى محرم بك من أحد الشعانين . ظرف خطاب به شرائط ورق مصمغ مطواة صغيرة نال الصدأ من حدها المثلوم عِدّة حلاقة قديمة محطمة ملتوية المقبض نتيجة للعام ١٩٤١ فى نصف صفحة هدية من مجلة « الأثنين وكل شىء والدنيا » إعلان مقطوع بعناية من « البلاغ » عن « أهل الكهف » التى اشتريتها من مكتبة صغيرة فى شارع راغب بمبلغ فادح وقدره عشرة قروش صاغ ظللت ألح على أبى حتى أعطانيه مبتسما وراضيا وحانيا وفخورا أيضا ، عملة فضية كبيرة عليها طفراء السلطان حسين ، صورة جنجر روجرز بالروتوغراف مقطوعة من مجلة « الكواكب » لامعة وزرقاء وشعرها منتظم الهياج كأنها إرهاص بوجهٍ محبوب فى قادم الأيام مقطوعتين من شعر بود لير مترجما للعربية ،كتبهما صديقى هانى محمود على ، بالقلم الرصاص على نصف صفحة مقطوعة بالطول من كراسة المدرسة ورقة نشاف نصفها غارق فى حبر أزرق جاف متصلب بالورقة قطعة من الطباشير الأبيض مسروقة من المدرسة سن ريشة مكسورة ومسودّ من الحبر والقدم ، مشط ما زالت فى اسنانه حبات رمل صفراء مترية مسمار ابرة خياطة قلم رصاص محبرة فيها نُقْرتان مدورتان بهما آثار حبر أزرق وأحمر جافتان الآن ليس فيهما الا آثار حبر عليها طبقة خفيفة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من العفن الأبيض الهش السريع التطابر وسدادة فلين مقطوعة وقوقعة كبيرة حلزونية ملتوية الحنايا كنت أعتز بها أيضا .

أذهبتْ كلها أرصدة الطفولة والمراهقة ؟

كنت قد أمضيت سنة كاملة — إلا أسبوعين — وقد اعتنقت مذهب النباتيين ، بعنف ودون دراسة ومن غير أية إمكانات حقيقية . كنت فقط أومن بأبى العلاء المعرى وجورج برناد شو وغاندى . وكان أبى لا يستطيع أن يقبل هذا الحرمان العنيد ، صلب الرأس وصبيانيا الذى فرضته على نفسى . كان حزنه عميقا وصامتا ومدمرا فى النهاية ، لم يكن يصرخ تارة أو يتضرع تارة كما كانت أمى تفعل ، وتدق صدرها تحسرا وحبوطا ، وهى تغرينى بالبطة التى عملتها على الكسكسى ريحتها ترد الروح وتستاهل بقك ، طب خد بُقّ لبن عَ الفطار ، طب بلاشى ، أسلق لك بيضة ، عشان خاطرى ياحبيبى ياضنايا .

لم أُسلِّم حتى قبيل عيد القيامة وشم النسيم . وكان الفرج فى البيت مزدوجا ولكن حسى بالهزيمة ، المزدوجة أيضا ، امام الحب النئّ الخام وأمام شهوة الأكل ، ممتزج كذلك بفرح التسليم وقبول صَغَار الواقع وحُكمه الغلاّب .

فى أول السنة كنت لابداً فى السرير متدثراً بلحاف وبطانيتين ، وكنت قد استقللت بغرفتى فى شقة شارع ابن زهر . وكأنّ البيجاما الكستور الثقيلة التى ارتديها تحت الأغطية غير موجودة ، وكان الفحم شحيحا فكان وابور الجاز يئز فى الغرفة وعليه كسرولة ماء يصعد منها البخار والدف والباب موارب قليلا جدا خشية الاختناق ، وأنا أقرأ ، وأنا تحت اللحاف ، « دليل المرأة الذكية الى الاشتراكية . بشغف كأنه رواية بوليسية ، وسمعت صفارات البواخر التى تصل إلىّ من الميناء الغربيّة حتى راغب باشا عبر سكون المدينة فى الليل ، تتجاوب ويرد بعضها على بعض كان جيراننا الأروام والطلانية واليهود والقليل من أهل البلد يقذفون ، مرة واحدة ، بالزجاجات الفارغة والقلل الفخار والاطباق الصينى المشروخة والأصص القديمة ، على الأسفلت ، فى تتابع بهيج ، سوف يصبح الصبح فنجد الشارع الواسع مغطى بحطام العام القديم . وكانت نوّة عيد الميلاد قد هبت منذ ٣ ايام فى ٢٣ كيهك ، والهواء يعصف والأمطار نازلة كأنها ملاءات من المياه تقرقع وتصطفق بالشبابيك الموصدة ثم تعود ترتطم بالبيوت من جديد . ومنذ أيام قلائل ، قبل الكريسماس بيومين ، كنت قد نزلت فى أول الليل الى الشاطىء الذى يتسع عند الشاطبى وتصطدم الأمواج عنده ، إلى اليسار ، بأحجار سور السلسلة السوداء وتعود فى صخب مُزْبِدٍ مُدَوّ داكن الزرقة . كانت النوارس تزعق فجاة ، تنقضّ وتعلو .

« كنت قد قلت لا . هذا كفاية . لا يمكن أن يستمر هذا الألم . كفى .

وقلت هذه بداية المهزلة الحقيقية ، ربما أو ختامها ، لست أدرى .

كان فى جيبى ثلاثة قروش ، وفى روحى مرارة وغضب وعزم معقود .

قلت يجب أن أتحرر يجب أن أحطم الأسوار ، أسوار الحياة نفسها .

كان ماوراء ذلك كله عَدَماً كاملا يبدو لروحى راحةً كاملة .

قلت أنطلقْ إذن انطلقْ أُخرجْ من وحل الألم والحب المنكور ووطأة الصمت

ما أشد رهبة هذا اليمّ وما أقوى دعوته وغوايته . عذوبته لا تضارع . »

وسرت على الرمل المبلول متجهاً الى هذا القبر الطامى بكُتَل الماء الضخمة السوداء ، حتى وصلت الى الشط وكان تصميمى ثابتا وكأننى فى غيبوبة وكانت أمامى خطوة واحدة . وقلت إننى عندئذ بالضبط وجدت التنين صغيرا وخائفا بين أعشاب البحر اللزجة وأخذته الى حضنى وأدفأته وعدت به إلى حجرتى وكبر التنين وتضخمت زعانفه وضرب بها جدران بيتى ونَمَت له أسنان كثيرة حادة أنشبَها فى روحى ومازالت كلما انتزعت منها جيلاً نَبَتَ له جيل ، مرةً أخيرة بعد مرة أولى بعد مرة ، ومازال التنين ماثلا بينما البحر يفيض حوالى فى هذه الكهولة الجياشة العامرة بأطياف معاشق الصبا لم يَنَلْ منها شىء

وبنيت الأسوار فى مربعات حجرية ضخمة امتلأت عن آخرها بأمواج البحر المتلاطمة وأحصيتها فى الحلم وكنت يقظا غير نائم فكانت تسعة مربعات - أسوار عدداً . والمياه المندفعة فى كُتلها الداكنة تدفقت من على الحجر ومازالت تفيض لا تحجزها الأسوار . وفى قلب هذه الأسوار المربعة التسعة كان العشب الطرى قد غرق واضطرب الطين وكانت أشجار النخل السامقة تترنح فى مهب الرياح الهوج والعاصفة الغاضبة تصدمها وتسفعها ولها صوت قوى . فى داخل المربعات المتلاطمة بالموج هذه المخلوقات البحرية ، سمكية إنسانية ، حيوانات مائية مركبة من التنين الأنثوى والإنسان الأنثوى ، لها قشرة سوداء تبدو حادة وشائكة كورق الصنفرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكاشط ، تتخايل فإذا جلودها ناعمة خمرية ونهودها لدنة وقائمة متماسكة ورؤوسها تبدو جعدة الشعر خشنة العظام مدورة ، تتخايل فإذا هى تموج بغدائر منسابة وعيونها فاتحة ونجلاء وفيها حنو أنثوى مغو ونداء حزين كأنه دعوة للحب وطلب لفعل الحب لا أمل فى الاستجابة له ، وفى هذا الكيان المركب الجياش فى الماء الماء تسع مرات شحنة من الوحشية خفيفة ومخيفة كامنة تحت مخايل العذوبة والشعرية وأنا أجرى بين الأسوار الحجرية المغمورة بالماء الملح المضطرب ، أجرى باستماتة فى ممرات ضيقة مبلطة تترقرق على أرضيتها موجات صغيرة صافية ، وطول الوقت أحس فحة أنفاس هذه القروش النسوية عرائس البحر التنانين الجنيات السيرينات الحوريات ذات الأذرع المحتضنة والزعانف الضاربة المتينة الغضاريف ، البنات البجعات ذوات الريش المبلل المغمور الهولات النداهات الصامتات ، وطول الوقت أسوار المربعات الحجرية تهدد بالانهيار تحت ضغط طوفان البحر أجرى أريد أن أخرج من متاهة الممرات المتقاطعة المتشابكة التى لا مخرج منها التى تغرق رويدا تحت دفقات الماء لا أرى أبدا المأوى ولا الملاذ الجاف المشمس ولا أجد أبدا طريق الخلاص من هدير داخلى خارجى مضطرب ولا من عصف الريح المفتوح على آخر الأفق .

ولما صحوت وجدت ما نشيت الأهرام سقوط أسرة محمد على ، إعلان الجمهورية ، جمال عبد الناصر نائب رئيس الوزارة ووزير الداخلية وكان شبه مجهول وربما كان أيضا مكروها قليلا يومها فى ١٩ يونيو ١٩٥٣ ولم نكن نعرف أنه سيأتى يوم نتحسر فيه على أيامه بكل ما فيها من أمجاد ومحن . وكانت الصفحة الأولى تقول داخل إطار أحمر إن الرئيس اللواء أركان الحرب محمد نجيب رئيس الجمهورية المصرية قد أصدر فى الساعة الواحدة من صباح اليوم أول أمر جمهورى بترقية الصاغ أركان الحرب عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة الى رتبة اللواء ، وكان هناك ، يومها ، للإيجار ، شقتان بجوار حديقة الحيوان ٤ غرف و ٦ غرف ٥, ٨ ج و ٥, ١٠ ج ت ٩٧٨٢٦ ، وكانت أسعار القطن الخام أمريكى ميدلنج ١٥/ ٢٦ حاضر تسليم أغسطس بانجلترا ٣٢,٠٠ ومصرى كرنك صنف ١٥٥ ، ٤٢,٨٠٠ وكان تايل الذهب واحد ونصف أوقية فى هونج كونج ٢٧٠,٦٢٥ دولار ، وقيمة الدولار فى هونج كونج ثلث شلن وكان الدكتور اسماعيل القبانى وزير المعارف قد تسلم من المستر الفريد بوندز بالسفارة الامريكية شهادة المواطنة الفخرية لولاية أركنسّاس وتحددت الساعة السادسة من مساء الاثنين التالى لمناقشة رسالة الدكتوراه التى قدمها الأستاذ أحمد محمد الحوفى وموضوعها المرأة فى الشعر الجاهلى فى كلية دار العلوم بالقاهرة أما فرقة نجيب الريحانى فتقدم مسرحية " ابن مين بسلامته " وسينما مترو عندنا بالاسكندرية تقدم روبرت تايلور وجوان فونتين فى مغامرات إيفانهو بالألوان .

وأشواك الصبار خشب مُخَرَّم فى مشربية ملساء لدنة والجسد ملتبس ودانتيللا السوتيان موسيقى مصفّاة النَسَق اللحمُ البضّ المحجوز عن الانهمار ثمرة غضة الجسمُ المعتم المضيء معا متماسكُ القوام تهفهف عليه طيات النسيج السخن المشبَّك الملتحم عزْفُ أوتاره الرقيقة المنتفضة شبقى لا تسمعه أذن .

سألتنى سعاد السماحى : مالك النهاردة ساكت كده ؟

أجبتها : عندى شغل .

قالت : مسكين .

أجبتُ بشىء من الجفاف ، بلهجة خاصة ذات معنى ، وضحك :

ـــ إيه الحكاية ؟ أنا على فكرة ما احبش عبارات الشفقة دى ، من أى حد .

قالت ببساطة : طيب ، أحسن

أجبت بحدة : ولا عبارات التشفّى .

قالت : لا . دانت حرارتك مرتفعة صحيح النهارده .

فاضطررت ضاحكاً وخجِلاً أن اهرّج ، فى وسط المكتب ، أمسكتُ ، بجبهتى ، وعددتُ نبضى وانتهيت إلى نتيجة : صحيح . عندك حق يا ستى . حرارتى مش طبيعية .

كانت طفلتى التى أحبها بجنون ويأس تستمع ، صامتة .

ثم قالت فجأة : عارف بقى ، إنت عَدِتْنى .

قلت كأنما بفرح : صحيح ؟

ثم مستدركاً : متأسف أوى .

قالت سعاد السماحى : إيه التأسفات دى كلها ؟ إيه بس ؟ على مهلكم شوية .

قالت ، هى ، كأنما بشكوى : عَدَانى . بردْت . وحرارتى عالية .

قالت سعاد ، بمعنى : كده .. اشتريت خلاص ؟

ثم التَفتتْ إلىَّ قائلة، بضحك : بضاعة ماشية ياعم . ربنا يفتح عليك كمان وكمان .

قلت بحيرة ، وخيبة : مش عارف .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما هى فقد أعطتنى ــ كعادتها ــ أحد أعداد مجلة « كونفيدينْس » الفرنسية التى تقرأها بانتظام ، وقالت لى طب خد افتح نفسك عَ الحاجات الحلوة .

كان فى المجلة صور ملونة للقبلات العذرية المهذبةِ الشَفَتيْن ، وللعناقات العذرية المؤدبةِ الجسمينْ .

وكان صوتها الطفولى ، المداعب الشاكى ، عذب الموسيقى ما أعذبه فى مسامعى . وارتجف قلبى كالمعتاد .

ياغاليين علىَّ ، ياهل اسكندرية .

بين شَطَّين ومَيّه ، عشقتْكم عِينيَّه .

شفتاك القرمزيتان شفتاى أُحدِّق فى عينيك المكحولتين بسوادٍ غويط فأجد نفسى فى غورهما وحِسُّ شعرك الوثير على جانبى وجهى ثِقلُ النهدين وحجمهما المحسوس على صدرى والذراعان البضتان متملكتان تلتفان بى . وقد دفنتِ العمود الصلب المتوهج فى طينة النعومة السخنة المتلقية موتى وبعثى معا فى فى عمق الأنا الأنتِ أصغُو بكل ما لدى من طاقة إلى الفناء فى جسدك الى أن أكون أنا وأنت نهائيا ذلك الجسد واحداً بلاانفصام لا لحظة ولا طرفة عين أشارف حافة الاستحالة لا أسقط فيها أبدا الإيمان بالاستحالة حَتْ به : سوف يحدث . لم يحدث . حادث دائما . وغير غرضىَ .

وثانى يوم على باب الشركة ألقت إلىَّ حبيبتى بقبلة الصباح : « بونجور » وبنظرة خيل إلىَّ أن فيها ابتسامة ، وكأنها رسالة خاصة بيننا ، كأنما هى تعتذر عن صمتها ، وعن صمتى أنا فى الوقت نفسه ، طول نهار أمس حتى استحثتنا سعاد السماحى على الكلام ، وكأنها تقول : ما العمل ؟ قالت لى بشىء كأنه حنوّ خاص ورقة خاصة : إزاى صحتك النهارده ؟ خلاص الصداع بتاع امبارح ؟ « قالت لها سعاد السماحى بمكر : ليه هو كان تعبان امبارح ؟ « فردت هى كأنما تتآمران »: « اَللّه° . ما شفتيش امبارح كان ساكت وطول النهار مبَّوز ونايم على روحه كده ؟« قلتُ : وبعدين بقى ؟ « قالت بانعطافةٍ مميزة : « سلامتك ، سلامتك » . قلت : « مرسى اوى » وهاجمتنى نوبة سعال عصبىّ على الأغلب . قالت : « انت لسه ما بعتش البرد بتاعك ؟ « قلت : بمعنى : لا » . مش لاقى حد يشترى لحدّ دلوقت . « فردت ، بضحك وقصد : طب اعمله فى المزاد بقى » قلت : « لا ... أنا بايع خلاص . ولقيت المشترى . « ضحكتْ بخفوت وموسيقيةٍ خاصة بها . فمهما زعمت لنفسى الصرامةَ العقلية والجدَّ الجاد كان قلبى يرتعش لهذه الموسيقى ، كطفل .

وعشت بالأحلام الجديدة الغضة أتمنى فقط طلوع اليوم الجديد حتى أراها مرة أخرى وأتعجل النهار وأخشى مروره وأرتقب الأيام المقبلة بقليل من الرعب ولكن بشوق لا ردَّ عليه ولا مقاومة له . سلّمتُ بالاستحالة . لم أقبلها،ولم أتخلَّ عن طلب الكمال .

الشفافية الحارة الزرقاء فى قلب السماء القَفْرة هى قلبُ الغدِ الذى ينتظرك .خبز أيامى القادمة شفتاك إذ تحدق بى الآلة السوداء بعيونها الكثيرة قبراً صغيراً قديماً تنمو عليه تعريشة العنب العذب المزّ معاً وظَهْرك يبتعد فى الشارع المزدحم فإذا العالم خواء فجأة والأسفلت محرق أسود الوهج . وفى الغد تفدحنى السعادة فى غموضِ ضبابِ الصبح ، نعمتى غير محسوبة وهذه الأمواج خضراء ضَحُوك يهفو بها النَسَم بقلبٍ مشمس .

بعد غيبة سفر قصيرة ذهبت للشركة ورأيتها أمامى ، من وراء المنصة الرخامية الطويلة الدائرة بميل . قامت إلىّ وسألتنى : خِيرْ . مالك ؟ بون أريفيه . كان فيه حاجة ؟ قلت : أبداً كان عندى شوية« فيلْت شْمِرز » . قالت : طب كنت تقول . لوكنت عارفه كنت جيت سلّيتك . وكانت عيناها نديتين قليلاً .

قلت ، بمرارة غير مبررة : « لا ما اظنش . متشكر على كل حال » فقالت بسماحةٍ غير مفهومة : « معلهش اشتمْ على كيفك يا سيدى . الشتيمة برضو مقبولة منك . » فتدهور قلبى . وودت لو قبّلتُها علناً على المَلأ وليكن ما يكون . وظللت أجمع الكلمات اللطيفة ، والنظرات الخاصة ، كأنها قِطع من كنز . أى غِنىً . وأى ضوء . البشرة الناصعة الصافية تترقرق ، زهرة عبَّاد الشمس . دقات قلبى خطواتى تحت جدارك وازدهار الصبَّار فى شرفتك وابتسامة ــ متحفظة ــ ترسلينها عبر الطريق تحفرين أغوارا تحت قدمىّ تملئين السماء فى زرقة الظهر فى وهج ضاع فيه الزمن . موسيقى الموج الرتيب يفتح ذراعيه يسقط على الرمال . تعود ، ما زالت تعود ، ترمى بنفسها على صدرك .

درتُ حول البيوت القديمة ، حول ملجأ سان جوزيف ، ومدرسة نبوية موسى ، وأدركت فجأة أنها تبوح بأسرارها ، وأننى أستطيع الآن بسهولة ، حلَّ شفرتها ، وكان العساكرقد أقاموا خيامهم فى فناء مدرسة اسكندرية الثانوية فى شارع مِنَشَّة ، ونصبوا مدافعهم فيها . وكانت مظاهرات القاهرة صاخبة وعالية النبرة جدا وعرفنا بعد ذلك بكثير انها كانت مدبَّرة ومخططة ومدفوعة الأجر وكانت المدافع مسددةً إلى قلبى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ينساب الشوقُ مع صوت البحر من تشابيك المشربيّة العتيقة . كان جسمها الصغير الرشيق الرفيع الخصر ــ كان الطوق المعدنى الرقيق الذى يحيط برأسها يمكن أن ينطبق طرفاه فيلتف بوسطها ــ هو نفسه تلك الموسيقى الملتبسة من هسيس الأشواق المُلحَّة وانسياب النسيج وحصار السلاسل المعتصرة . والمطر ينثال على النهدين الصغيرين الدافِئَ . الشكل والأيدى الخشبية تمتد بنداءٍ موجع ولا يمكن أن يكون عليه ردّ . خيالات موسيقى المِلْح هى الوحيدة صُلبة القوام ومِلْحُ أطياف الألم والنشوة معا لايذوب . دقات قلبى أمس مَضىَ حُلماً موجعا .

الآن أحلامى تحبس أنفاسها . أفى العالم كل هذا الفرح ؟

تسكت الأصداء القديمة ، تماما .

" وَغَدُ حياتى هو وجهكِ اذ تنامين "

تسبح الشمس فى شَعرك ، ذهباً ، غصنَ شجرة ينحنى ، يتقطّر منه الندى .

أشربُ ولا أرتوى من خمرتك .

القاهرة : إدوار الخراط

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

● حكـاية
من الـزمان القادم

محمدجبريل

-١-

لم يكن قـد مضى على استضـافتـه لحظـات حـين اصرَّ الجنـودعلى اصطحـابـه إلى نقطـة الأنفـوشى . اقتيـد مـع العشرات . ملأوا غرفة التحقيق والصالة الخارجية . أودع آخرون غرفاً مطلة على الميناء الشـرقية وشـارع قصر راس التين . أحاط الجنـود بالمكـان ، لا يأذنـون لغير المطلـوبين بالدخول ..

لما وقف أمام الضابط ، كان التعب قد هده تماماً ، بالتزاحم والصخب والشمس اللاهبة ..

سـأله الضـابط عن اسمه ومهنتـه وعنـوانـه . واجهـه باتهامات ، يعود بعضها إلى سنوات بعيدة . أدهشه أنه تذكر كل ما حدث ..

قال الضابط :

ـــ سيرتك طيبة

تنهد بارتياح

أضاف الضابط وهو يغلق ملفه :

ـــ أوصى بك المعلم أبو خطوة

أظهر الدهشة

ـــ أنا ؟ !

ـــ تأثر لرفضك مشاركة الصيادين تمردّهم عليه فى حلقة السمك .. تولى المعلم أبو خطوة مشيخة الصيادين ، فـأذن لصيـادى السنارة والجـرافة بـالصيـد عـلى الشـواطىء . واقتصرت مناطق الـداخل وخـارج البوغـاز على بـلانسات المعلم ، لا يأذن لغيرها بالصيـد ولا يأذن بـالبيع فى حلقـة السمك ، إلا بما يأتى به أتباعه كل صباح . ولم يعد للمعلمين الآخـرين صيتهم القـديم ، ولا الفـرص التى كـانت لهم فحرضوا أعوانهم على التمرد . رفضوا الدخول فى مـزادات الحلقة ، وأظهروا الغضب ، وقلبوا الطبالى ، وسبـوا المعلم بكلمات قاسية .

رفض صيادوا السنارة والجرافة أن يشاركوا فيماحدث لم يكن أبو خطوة قـد ضايقهم ،ولامنعهم من الصيـد . من يرسوا عليه المزاد فى الحلقة ، يأمر أعوانه ، يصبـرون عليه حتى يبيـع ، ويوصى لهم بـالزكـاة والنـذور والصـدقـات ، ويستضيفهم فى موائد الرحمن ..

غلبه الانفعال ،فعلاصوته :

ـــ المعلم أبو خطوة ولى نعمتى

قال الضابط وهو يشير للتالى :

ـــ لهذا طلب استضافتك فى بيته

استطرد للدهشة فى ملامحه :

ـــ المعلم هو مسؤول الحزب فى قسم الجمرك !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ٢ —

سار مع آخرين — يصحبهم جندى — بمحاذاة شاطىء الأنفوشى . توقفوا أمام بيت المعلم أبو خطوة ، فى انحناءة الطريق إلى رأس التين . قدمهم الجندى إلى عم نعمان حارس البيت . استعاد أسماءهم من قائمة مكتوبة ثم أذن لهم بالدخول .

طالعه البيت من الداخل . ردهته الواسعة ، وصالة الاستقبال، والأثاث الأنيق ، والحجرات وتماثيل الرخام على الجانبين ، والأضواء الباهرة ، والخافتة ، والأرابيسك ، والزجاج الملون ، ونباتات الظل ، وأحواض أسماك الزينة ، وأقفاص الطير ، وروائح المسك والكافور ، والنافورة الهائلة تلطف المكان بما لا يتناسب مع حرارة الجو خارج البيت ..

قال عم نعمان وهو يمضى إلى مجلسه أمام الباب :

— غرفكم معدّة .. كل جماعة فى غرفة

— ٣ —

التقى فى الغرفة الواسعة بضيوف من أصدقائه ، وآخرين تذكر أنه التقى بهم فى مولد النبى ، أو حضرة أبى العباس .

أظهروا البشاشة لرؤيته . لم تتغير رواياتهم عما لقيه منذ صحا ، حتى استضافه المعلم أبو خطوة .

قدم له محروس المسيرى ، صياد الجرافة ، كأساً مذهبة من الخمر . قال المسيرى وهو يدنى الكأس من فمه :

— لا تخف .. هذه خمر حلال !

— ٤ —

صحبته الخادم . نزعت ثيابه لتحممه . أذهله غياب الخجل والشهوة . أسلم نفسه لها فى طمأنينة ، تدلك جسمه بالصابون ، وتصب الماء ، وتجففه ، وتضع عطراً طيب الرائحة . ثم تأتى له بجلابية من الحرير . أحس أنه قد أصبح فى دنيا غير الدنيا . بدا ، كذكرى بعيدة ، تنقله بين الشواطىء بـ « الغلق » والبوصة والسنارة والطعم . إن أخفق فى الصيد ، زايد فيما تأتى به بلانسات المعلم أبوخطوة . بالأجل ، حتى صباح اليوم التالى ..

— ٥ —

صحا أول أيامه فى البيت على صوت كأنه التسبيح :

ما ثم إلا ما أراد ... فاترك همومك وانطرح
واترك شواغلك التى ... شغلت بها .. تسترح

داخلته نشوة ، فتمنى كوباً من الشاى بالحليب . ما ألفه كل صباح فى القهوة المواجهة لحلقة السمك . سره أن الخادم أقبلت بالصينية ، قبل أن يفكر فى الوسيلة التى يطلب بها ما يريد . وأقبل الخدم بألوان لا حصر لها من الطعام والشراب . واشتهى طعم الطير ، فجاءت به الخادم قبل أن يعلن طلبه . واستكمل نهاره بسماع أغنيات لم يتح له — من قبل — سماع ما هو أجمل منها ..

قال لمن حوله فى سعادة حقيقية ::

— لو أن المعلم أبو خطوة ظل على استضافته لنا .. فلن نعانى — بإذن الله — من الفقر ولا المرض ولا الكبر ولا الموت ..

— ٦ —

فاجأته الخادم وهو يعاكس ببغاء بكلمات ، تعيدها

— إن لك عند سيدى موعداً

دهمه القلق :

— المعلم أبو خطوة ؟ !

قالت الخادم :

— بديهى أن يرحب صاحب البيت بضيوفه

عرف المعلم أبو خطوة منذ وعى ، يحبه ويخشاه . يظل — معظم أيامه — فى بيته . يصدر أوامره — بواسطة أعوانه — إلى أتباعه الكثيرين فى الأنفوشى والميناء الشرقية وأبى قير وادكو وساحل رشيد . سمع أنه كثيراً ما زار حلقة السمك . يغلق الباب عليه من الداخل . لا يلتقى بالصيادين أو الباعة ، وإن تعرف إلى مشكلاتهم من أعوانه . وكان يتردد على المرسى أبى العباس فى أوقات من النهار والليل ، يصلى ويزور الضريح ويوزع الصدقات ..

وقف — مع آخرين — أمام الباب . بداخله خوف ورجاء :

هل يأذن له المعلم أبو خطوة بالدخول عليه فعلاً ؟ .. وبماذا يلقاه وماذا يقول له ؟

حاول أن يتصوره بخياله ، يجسد صورته ، ملامحه وقسماته وزيّه وتصرفاته وطريقة حديثه . لم يصل إلى تصور محدد . حتى الأعوان والأتباع أخفقوا — لما سألهم — فى توضيح ما يعين تصوره .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ٧ —

طالعه المعلم بوجه يقطر جلالاً ووقاراً ونورانية . أهملت يده النارجيلة ، واتجه إليه بابتسامة هادئة . سأله عن أحواله . فاجأه بالتحدث عن رؤيته له ، يصطاد بالسنارة أمام المحكمة الكلية ، يصلى الجمعة فى البوصيرى ، يشارك فى حضرة أبى العباس ، يزور أضرحة الأولياء الاثنى عشر فى ميدان المساجد ، يجلس فى مائدة الرحمن بمسجد على تمراز ، يفاصل زبوناً على قهوة أول شارع الميدان .

قال المعلم :

ـ هل أخلص الخدم فى استضافتك ؟

لم يخف سعادته :

ـ أنا لا أصدق أنى هنا !

ـ لقد رفضت مشاركة صبية الحلقة تمردهم علينا .. ومن واجبنا أن نرد الجميل

ـ أرضيتنى بما لم أكن أحلم به

اتسعت ابتسامته ، فتألق البياض الشديد فى أسنانه :

ـ إن شئت .. أرضيتك أفضل من هذا

ارتفع حاجباه :

ـ كيف ؟

قال وهويمسح مبسم النارجيلة براحة يده :

ـ تظل فى ضيافتى .. لا تغادر بيتى أبداً

— ٨ —

توالت الأيام ، كأنها اليوم الواحد المتصل . ما يفعله فى ساعة ما ، يفعله فى الساعة نفسها من اليوم التالى . اتباع المعلم أبو خطوة لم يتغيروا ، والسحن ألف رؤيتها ، وألف الأماكن والأشياء . حتى أصوات الطير ، والأغنيات ، وحركة الخدم فى قاعات البيت وحجراته ، غلبت عليها الرتابة . ما كان يبهره لم يعد كذلك . ولم يعد يجد فيما حوله ما يثير التساؤل أو الدهشة ،وتعرف إلى الدقائق الصغيرة والتفصيلات .حتى عم نعمان الحارس ، شغل فى البداية بسؤال الداخلين عن أسمائهم ، وهل كانوا ممن استضافهم المعلم . ثم لم يعد يغير جلسته على الباب الضخم ..

تكررت استرجاعات الماضى ، والمناقشات ،فتمطى التثاؤب والأسئلة التى لا تشغلها الإجابة

— ٩ —

لمح باب غرفة المعلم أبو خطوة موارباً . تسلل فى غيبة من نظرات الأعوان والخدم

نزع المعلم مبسم النارجيلة من فمه :

ـ هل تريد شيئاً ؟

وشت لهجته بتوتر :

أنزل إلى البحر

تأمله بنظرة مشفقة :

ـ لماذا ؟

ـ للصيد

ـ هل ينقصك شىء ؟

ـ كل ما أطلبه أجده

ـ فما يدفعك للصيد ؟

ـ أسلى وقتى

ـ أتصور أن سبل التسلية فى البيت كافية

ـ أريد أن أشغل نفسى

ـ جالس إخوانك .. سامرهم

أضاف فى لهجة مداعبة :

ـ والبيت ـ كما ترى ـ يشغى بالخادمات !

— ١٠ —

لما طلب لقاء المعلم أبو خطوة ، ووقف أمامه ، كان زملاء الحجرة قد ناقشوه فيما انتواه ، لكنه كان قد اتخذ قراره . بدا خروجه للصيد قدراً يصعب مغالبته ..

قال المعلم :

ـ عندما استضفتك فى بيتى .. ألم تعلن فرحتك ؟

قال :

ـ مللت !

ـ هل ينقصك شى ؟

ـ لهذا غلبنى الملل

ـ هل كنت تقول هذا لو أنى دفعت بك الى سجن الحدرة ؟؟

ـ لم أرتكب ما أستحق عليه السجن .

قال المعلم بلهجة باترة :

ـ لن أعدم وسيلة !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ١١ —

كان قد مضى على أذان الفجر ساعة أو نحوها ، حين نهض — بهدوء من سريره . سار لصق جدار الغرفة الواسعة . اصطفت — فى الجانب المقابل — أسرّة الأتباع راحوا فى النوم ، فلم يلحظوا خروجه .

كان قد أعد الطريق فى ذهنه . لم يصطدم بشىء ، ولا التقى بواحدة من خدم البيت . حتى عم نعمان كان قد أغلق عليه باب غرفته ، ربما لأنه أطمأن إلى أن النهار على وشك الطلوع .

أدار أكرة الباب ، واستقبل نسائم الصباح المنداة بالملح ورائحة اليود . بدت الصخرة — فى نهاية الأفق — ملتفة برمادية شفافة كأنها الحلم . لامست قدماه رمال الشاطىء ، وبدأ السير فى طريق البحر .

— إلى أين ؟

أفزعه السؤال . ارتسم على وجه المعلم أبو خطوة — فى وقفته بنافذة البيت — غضب لم يعهده فيه من قبل . قاوم ارتباكه وخجله :

— أتمشى على الشاطىء

قال المعلم بهدوء حزين :

— أنت تكذب !

وهو يخفض رأسه :

— اشتقت للصيد !

قال المعلم :

ألم أحذرك ؟

قال بلهفة :

— سأعود ثانية

وهويغالب غضبه :

— غادرت بيتى .. فلا تعد إليه !

نهبه قلق :

— هل ..

قاطعه المعلم :

— هذا اختيارك

وأغلق النافذة ..

قاوم حيرته لدقائق . التفت إلى البيت السادر فى الصمت ، وغلالات الضباب تلف قصر رأس التين ، والكلية البحرية ، والحديقة المواجهة ، والشاطىء ، والبيوت على امتداد الطريق تنسل عنها الظلمة ، فتبين عن ملامح باهتة ..

ومضى فى اتجاه الأنفوشى .

محمد جبريل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

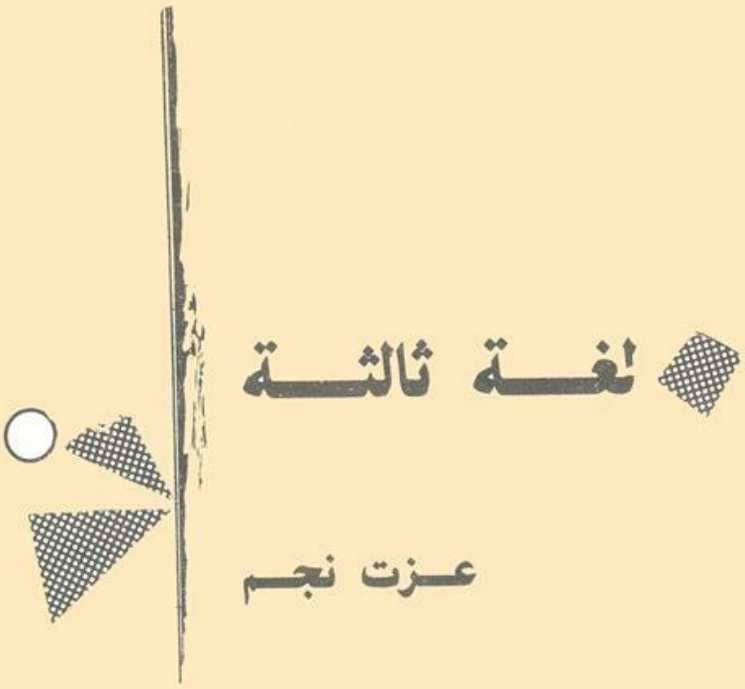

لغة ثالثة

عزت نجم

ما ان أقلعت بى الطائرة حتى شعرت بقلبى يهرب منى ، يتلمس أن يقفز إلى البيت حيث تركت أمى تقاوم آلام الفراق . لمحنى جارى أمسح دمعى ونصحنى فى حنان أب أن أفكر فى الساعات القادمة وأعدّ لها حصاد التفوق الذى حققته فى دراستى الجامعية التى أستكملها بالسفر للحصول على الدكتوراه . لم يكتف الرجل الطيب بالنصيحة بل طلب من المضيفة إحضار كوب ليمون دافىء ليريح أعصابى .

لم أستطع أن أرتب أفكارى ، فلم يزل الخوف من الغربة يستبد بى ، وحاولت أن أشغل نفسى فى كتاب مصور عن البلد الذى أسافر إليه وجامعتها التى تستقبلنى . دققت فى الخريطة الملونة بطياتها المتعددة أبحث عن المدينة التى أقيم فيها ، وجدتُها أخيراً بعد عناء على ضفاف الدانوب .

شدّنى الكتاب بجاذبية الطباعة وجمال العرض ولم أتركه حتى استوعبت كل ما فيه عن المدينة ومعالمها الأثرية . طقسها . نهر الدانوب الذى دخل التاريخ بموسيقى شتراوس وأخيراً حدائقها الشهيرة . استرجعت نصيحة أستاذى بالتردد عليها حيث الشيوخ والعجائز لا يبرحونها جلوساً على المقاعد الخشبية الخضراء يبحثون عن مؤنس من الرواد يخفف عنهم غربتهم فى الحياة ويدفع إلى الحطب ببعض الماء . هُمْ تاريخ البلد وجغرافيته كما يؤكد أستاذى . أطلس قديم ممزق لكنه متحرك . تذكرت كلمات الأستاذ وهو ينبهنى إلى أننى سأرى الابتسامة تعود إلى الشفاه الجافة المتشققة ، وشيئاً من البريق يزيح غبشة العيون . سأدخل المدينة عن طريقهم من أوسع أبوابها وهو لغة الناس .

استقر بى المقام فى « الهايم » بيت الطلبة وبدأت أنظم وقتى بين المدرج والمكتبة و « الميتزا » مطعم الطلبة حيث الوَجَبات الرخيصة ، والانفتاح على الموائد ، وأخذت أسيح فى المدينة أكتشف حدائقها وغاباتها التى تحيط بها فى سياج من الأحراش . كانت أول دعوة لى من زملائى الذين سبقونى أن أقضى ليلة قمرية فى الغابة . ظننت أننا وحدنا لكن ظهر المكان معموراً بالعشاق وأحباء الخلاء . يقضون ليلهم موصولاً بالفجر بكل مباهج الحياة مع فلسفات العصر الذى يحيونه ، مع الطبيعة أم الإنسان والكلّ فى حضنها واحد . تمرق بينهم الثعالب والأرانب البرية ويستيقظون على شقشقات العصافير والقمارى ، يفركون جفونهم ويرون ندف الثلج تغطى الأشجار والأغصان المتشابكة كالأذرع المتعانقة .

مع كل هذا الجمال آثرت أن أقضى يوم العطلة فى حديقة المدينة بمدرجاتها الخضراء على ضفة الدانوب . وعثرت على هذا النوع من الناس الذين أوصى أستاذى بالجلوس إليهم لأنهم باب المدينة إلى لغتها . هؤلاء العجائز بظهورهم المقوسة وأذقانهم على مقابض العصى . الأصابع معروقة مدلاة والعيون لم يبق بها غير بصيص حائر غير مستقر يتلمس طريقه خلف حجر النظارة السميك ، تاهوا فى أولادهم الذين هاجروا إلى عوالمهم الجديدة . البعض انشغل مع خيوط

التريكو دون أن تشعرن بانفلاتها تحت المقاعد .

مع الوقت صارت مسلاتى الوحيدة الجلوس إلى هؤلاء ، وكأننى فى أحد المعابد القديمة ، ويحتوينى جو أسطورى غامض . لم أضق بثرثرتهم ووجدوا فىّ صيداً ثميناً لفضولهم . من جانبى عثرت فيهم على أبى وأمى ، والعجائز هم هم فى كل بلد ، والشيخوخة لا تعرف وطناً غير فراغ المسافات بين زمان وزمان . كل همهم العثور على أُذُن تنصت إليهم دون سأم .

كان هذا اليوم الذى أعددت فيه طعامى من الشطائر والفاكهة واحتقبت بعض الكتب ثم ركبت الدراجة إلى الحديقة . لم تكن قد شَطَفَت وجهها بعد من بقايا الأنداء ، ولم تزدحم بروادها من الأطفال والشيوخ . أخذت أستمع إلى الموسيقى من الراديو الكاسيت الذى أحمله . مع الوقت استقبلت ضيوفها وتناثر الأطفال بين الزهور وأصبح صعباً أن يميز بينها وبينهم .

تذكرت فجأة خطاباً وصلنى من أخى الكبير كنت قد أرجأته لقراءته فى هوادة حين أفرغ من مشاغلى ولأستكشف ما اختبأ بين سطوره ، وأخفاه أخى إشفاقاً علىّ فى بلاد الغربة . وجدت لأول مرة أخى يشكو معاناته مع أمى ، والمتاعب التى تسببها شيخوختها ، ولمّح بمزايا دور المسنين التى تستقبل العجائز ، وجعل يشرح مزايا الإقامة بها وأنواع الراحة الميسرة لهم .

كانت أول رسالة لتصدير الهموم ضاعفت من قلقى على والدتى وزاد تعلقى بها ، بل راودتنى فكرة العودة فى لحظة ضعف يعرفها المغترب فى الأيام الأولى رغم ما فيها من ضياع لأحلام العمر . فى الوقت نفسه قدرت متاعب أخى وعجزه عن الوفاء بحاجات أمى بعد رحيل أبى ، وحالة الاكتئاب التى لازمتها بغياب شريك الحياة .

حاولتُ التخلص من الشحنة العاطفية التى فجرتها الرسالة بالتطلّع حولى والطبيعة ثرية حافلة بكل جميل ورائع ، وإذا بفتاة تقترب منى تسبقها ابتسامة ودود . قالت فى عربية مخلوطة بلكنة !

— تسمح لى بالجلوس معك ؟ .

ولأن ما فعلته لا يعتبر أمراً غريباً ، قلتُ مرحباً :

— جئتِ لى من السَّما فى هذه اللحظة . يعلم الله أنى فى حاجة إلى من يتكلم معى . ينتشلنى مما أنا فيه .

قَدَّمت نفسها فى بساطة شديدة :

— أنا « ساجى » أدرس الموسيقى فى سالسبورج . قل لى أولاً . لماذا معزوفة « الحزن » لشوبان تستمع إليها فى خلوتك ونحن الشباب فى حاجة إلى ما يبعد عنا هموم العصر ؟

دون أىّ ترتيب للكلام ، وباحساس الألفة التى تجتاح غرباء الوطن الواحد أجبتها بأن الغربة مُرّة ، وأن للأحزان عطرها أيضاً . بدا عليها عدم الاقتناع من هزة كتفيها وأخذت تفرد مقعداً صغيراً جلست عليه قدامى . سَوَّت الإيشارب الحريرى فوق رأسها وانفلتت بعض خصلات من شعرها الناعم . عزمت عليها بالقهوة لكنها سبقتنى بتقديم بعض الفطائر وهى تقول :

— عيش وملح كما تقولون فى مصر وعلى ما قُسم .

لم تكن ساجى جميلة بمقاييس الجمال المعروفة ، لكن يشدك إليها مجهول منتشر فى كيانها كله يجعل الانقياد إليها قَدَراً لا فرار منه . لفتتنى جاذبية نظراتها ، كانت جُمَلاً قصيرة ومفيدة . قَدِمتْ من سالسبورج فى اجازة قصيرة لزيارة والدها الذى يعمل فى سفارة بلده بالعاصمة . استأذنتُ لحظات كى أرد على أخى ببعض السطور وانشغلتْ هى بوضع فيلم فى كاميرا تحملها . فى هدوء كتبتُ أؤيد فكرة بيت المسنين .

أخذتُ نَفَساً طويلاً من الهواء البارد وقد توشّى بمسحة دفء إثر إطلالة سخية من الشمس خلف الغمام . رأيت ساجى توجه عين الكاميرا إلى سيدتين فى المقعد المقابل . الرأس مغطاة بشال من الصوف ذى خروم واسعة سَتَر الظهر والصدر وتجاوز الركبتين ، وما بقى من الساق أخفاه جورب أسود ينتهى بحذاء مزموم على القدم . كانتا تطرقان فى تجهم وانسراح ، ثم رفعتا بصرهما الكليل واعتدلتا لساجى وهى تلتقط لهما صورة بعد استئذان بإشارات من بعيد . ثم عاد انحناء الظهر من جديد وكان بينهما حديث وعيونهما ماتزال ترقب ساجى وهى توجه الكاميرا إلى مجموعة من الأطفال يمرحون . أخذت تقترب منهم وقد انفلت طفلان من المجموعة وجريا نحو السيدتين ... حدّقا فيهما وفى التجاعيد المنتشرة فى صفحة الوجهين . وامتدت الأيدى المعروقة تلمس خدود الوردتين الصغيرتين فى حنان أسر . لم يستغرق اللقاء غير لحظات عادت بعدها السيدتان تنقلان نظرهما إلىّ وإلى ساجى التى أخذت تصب لى فنجان قهوة . كان بينهما حديث ، الغريب فيه أنه دار بلغتين مختلفتين ، وظهر من الملامح أنهما تتكلمان فى موضوع واحد وَشَتْ به نظراتهما إلينا . لغة ثالثة قاموسها من ضفيرة المشاعر ودون إشارات غير إيماءة الرأس وارتعاشات الأصابع العقداء داخل الشال السميك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعد قليل دقت أجراس الكنيسة القريبة تعلن عن إقامة قُدّاس على روح ميّت. وأقبل رجل أشيب اصطحب السيدتين إلى هناك ، ثم شُغِلتُ عنهما فى أفواج الطيور المهاجرة وقد غطت سماء الحديقة الواسعة وهى تتنادى بشقشقاتها استعداداً للرحيل وقد أحاطتها مواكب الغربان فى ملحمة وداع مهيب يتكرر كل عام يحرص على مشاهدته رواد الحديقة .

عدت إلى أوراقى أكمل الخطاب الذى بدأته منذ أيام لأخى فى القاهرة ، والتفت إلى ساجى أستأذنها دقائق كى أنتهى من الرسالة لكنها لم تلتفت إلىّ فقد كانت مع السيدتين فى خطوهما الوئيد وظهرهما المقوسين حتى أخفاهما سور الحديقة .

استدارت نحوى تسأل :

ـ عرفتَ حديث السيدتين ؟

ـ ولا حرف .

ـ كل منهما تتكلم لغة لا تعرفها الأخرى ومع ذلك وصلتا إلى ما تريدان . تقولان عنى وعنك إننا حضرنا هنا بعد أن فرغنا من مشكلتنا الكبرى وبان على حركاتنا الانبساط والراحة .

تطلعت إليها أستوضح ما عرفته من حوار العجوزين . اعتدلت ساجى فى جلستها ورشفت قليلاً من القهوة من فنجان من الفخّار أمسكته براحتيها استمتاعاً ، واستطردت تقول :

ـ أسمعك الأول أغنية وصلتنى من أخى فى كندا وبَعْدِين أكمل لك الحديث .....

ولما لاحظتُه عليها من حركات الأطفال وتصرفاتهم البريئة تركتها تضع الكاسيت بالأغنية وانصرفت إلى أوراق خطابى لأخى أرتبها وأضعها فى المظروف . توقفتُ وصوت المغنى يجذبنى إليه فى نشوة غربية ويتسلل إلى قلبى همساً حزيناً . أحِنُّ إلى خبز أمى وقهوة أمى ولمسة أمى ، وأعشق عمرى لأننى أخشى إنْ مُت دمْع أمى . هزتنى الكلمات من الأعماق ، ولم يعد يعنينى إن كان ما أسمع شعراً أو نثراً أو حروفاً متناثرة .

التفتت ساجى نحوى ولمحت ترقرق الدموع فى عينى وفى محاولة من جانبها لإخراجى من ضغط المعاناة أوقفت الكاسيت وهى تعتذر ثم قالت :

٤ ـ نرجع للسيدتين .

ـ آه ... فاتنى أن أسأل .

توقفتْ عن الكلام لإقبال شاب نحونا بخطو حيى وبسمة مرسومة ، قدم نفسه بصوت خافت منمق على أنه موظف ببلدية المدينة ، والمسؤول عن المقاعد الخشبية الخضراء المنتشرة فى الحديقة . استأذن منا فى أن يلقى نظرة على مسند المقعد الذى نشغله وقاعدته وقوائمه ، وكل منها يحمل رقماً مسجلاً فى دفتر يحمله . دَوّن ملاحظاته بعد أن ملس براحته على المقعد ليطمئن إلى نعومة الطلاء . لحظات ثم انصرف وهو يعتذر عن اقتحامه خلوتنا .

لم تستمر دهشتى وقتاً حتى اعتدلت ساجى فى جلستها . شبكت الإيشارب الحريرى فى شعرها وقد تزحزح خلف رأسها ثم قالت :

ـ نعود إلى العجوزين قبل أن يحضر موظف آخر من البلدية ليستوثق من مكان المسامير فى المقعد . تصور أن السيدتين تعتقدان أننا أودعنا آباءنا دار المسنين لنتفرغ لشبابنا بلا منغصات أو وجع دماغ من وجودهم الغريب ، كل منهما تفهم ما تقوله الأخرى دون معرفة بلغتها . تفسر السيدتان الإيداع بدار المسنين تحفظا فى مكان أمين انتظاراً للنهاية التى تأتى بطيئة كسيحة ، وفى صمت ، بعيداً عن العيون ، كما تفعل الأفيال .

دون أن أعلّق على كلام ساجى قمت أجهز حقيبتى شبه تائه . ودعتها بكلمات باهتة على أمل أن نلتقى مرة أخرى ، ربما فى نفس المكان . بعد خطوات سمعت صوتها تنادى وتلفت نظرى إلى خطابى الذى كتبته لأخى ، لقد نسيته على المقعد ثم دحرجته الريح على الأرض ...

عدت أطويه خفية . دسسته فى جيبى وأصابعى تعبث به وعين ساجى لا تطرف وفوق شفتيها أكثر من سؤال .

القاهرة : عزت نجم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

زلزال مكسيكو

على محمد محاسنه

منذ عودة الدكتور سحبان الموصلى من غربته للدراسة والبحث فى بلاد العم سام وهو محور اهتمام الناس فى مدينتنا من أقصاها إلى أقصاها رغم الدوامة العريضة التى تدور بهم جميعاً ومجموعة الدوامات الصغيرة المتعددة المستويات والألوان والاتساع الخاصة بكل منهم .. وجاء الدكتور سحبان ليضيف إلى الدوامة الكبيرة ولكل واحدة من الدوامات الصغيرة بباطنها .

لقد سبقته إلى مدينتنا شهرته وبريقها الخاطف منذ أن ظهرت صورته فى صحيفة أمريكية بجانب تحليل ودراسة له سبق نشرها عن الزلازل تضمنت مؤشرات قوية بلغت حد التنبؤ بوقوع زلازل مدينة مكسيكو لتؤكد دقة توقعاته وتضعه تحت أضواء الشهرة على طريقة الأمريكان .. ولتمنح كل فرد من أهل المدينة مادة يتحدث بها متفاخراً .

طوال أشهر ومنذ أن عين الدكتور رئيساً لدائرة علوم الأرض فى جامعة البيرونى ظلت العيون ترمقه بنظرات الإعجاب والانبهار وتلاحقه الآذان تلتقط كل ما يتفوه به .. خاصة حول المآدب التى تعددت وتلاحقت احتفاء بالعالم الفذ العائد من بلاد العلوج الأغنياء الأقوياء ذوى العيون الزرقاء التى يراها أهلنا دليل لؤم وخبث ..

صباح الأربعاء وفى ركن « بعد غد » من صحيفة المدينة حيث تعود القراء أن يجدوا كل يوم محوراً جديداً للنقاش والجدل فى مسألة قائمة أو فكرة مثيرة للجدل تبعث موجة من الحركة والتصادم فى جميع الاتجاهات .. وردت بطريقة مثيرة « سيناريو زلزال مكسيكو .. هنا بعد غد .. كما يراه د. الموصلى » .

ما كادت تبلغ الساعة العاشرة من ضحى السبت حتى كانت المدينة كلها ترتعش وتهتز .. مدينتنا ستكون مسرحاً لحركة أرضية مماثلة لما جرى فى مكسيكو .. الموصلى يتنبأ ..

ويحذر .. ويعتبر .. ويتصور .. ويقدر .. ولا يستبعد .. ويتمنى لو .. ويأمل .. ويتضرع إلى ..وسيلتقى مع الجميع غداً .

الجامعة .. دائرة العلوم الأرضية .. د .الموصلى .. الأساتذة .. أجهزة الرصد والتنبؤ فى حالة ارتباك وتوتر .. خطوط الهاتف مشغولة والكل يسأل عن د . الموصلى وعندما لا يجده .. يريد توضيحاً من الأساتذة والمتنبئين .. والخبراء .. ماذا سيقول ؟ ماذا سيقع بعد غد .. ؟ واين سيكون مركز الزلازل .. ؟ اى المناطق اكثر اماناً ؟ واتجاه جريان النهر هل سيتغير ؟ هل سيحدث هبوط وانخساف وتتكون بحيرة .. وتغرق المبانى الفخمة .. والحدائق والبنوك والخزائن وما حوت .. والوثائق السرية والمحفوظات .. و .. مختبرات الأحياء الدقيقة والفيزياء والكيمياء وما فيها من الجراثيم والجرذان والمواد الخطرة .. وماذا لو .. ؟ وكيف إذا .. ؟ومتى .. ؟ وما .. ؟وإلى إين .. ؟ وكم .. ؟ وإذا افترضنا أن .. وماذا فعل محافظ المدينة لمواجهة ذلك .. ؟ وهل اتصل أحد بالمنظمات والهيئات العالمية لتنظيم .. ومواجهة .. خاصة ونحن نستقبل فصل شتاء تشير الدلائل إلى أنه سيكون قاسياً ؟ ؟

كان نصيبى أن أعيش معظم ساعات ذلك اليوم فى المدينة على غير عادتى فقد خرجت أريد المزرعة لتلتقطنى سيارة أمام مركز البريد حيث ينتظر الباحثون عن رحلة مجانية نحو الشمال .

سألنى عبد المؤمن قائد السيارة : هل قرات صحيفة المدينة هذا الصباح ؟ أرأيت ما فعلته تنبؤات د . الموصلى ؟ الكثيرون يتملكهم الخوف منذ الصباح . بعضهم خرج بنفسه وعائلته وسحب مدخراته من البنك ومضى إلى العاصمة وبعضهم إلى مناطق أبعد .

فى المسجد الحميدى رجع البعض يناقش تصاميم البناء ونوع المواد التى كان قد بنى بها المسجد منذ اكثر من سبعين عاماً .. وكيف أن احتمالات الزلازل لم تؤخذ فى الاعتبار عند انشاء المسجد .. وخاصة مآذنه السامقة فى عنان السماء .. رغم الشواهد على ما فعلته الزلازل بالمدينة منذ مئات السنين .

« حمدان » الراعى تصرف بهدوء .. فمضى بقطيعه من الغنم مبتعداً عن المبانى وعالم الخرسانة والفولاذ إلى الحقول حيث لا مبانى ولا ابراج تنهار متى زلزلت ومعه حماره وكلبه .. وقد حسده الكثيرون على القدر الكبير من حرية الحركة وسهولة اتخاذ القرار لديه .

« كساب » صاحب فندق ومطعم وملهى البرج « واقع الآن فى مأزق .. لا زبائن على الإطلاق لوجبة الغذاء واكثر النزلاء غادر الفندق .. كساب ذاته الذى لم يكن يغادر طاولة الصندوق عند المدخل لم يشاهد هناك منذ قرأ الصحيفة .. وأحلَّ أحد العمال الهنود مكانه وبالتأكيد لن يكون هناك رواد للملهى فى الدور العلوى هذه الليلة .

أحدهم جاء اليوم يعرض على (شركة التجارة والاستثمار العقارى) أن يبيع لها عمارته فى مركز المدينة لاضطراره إلى السفر للعلاج فى سويسرا من حالة فى القلب اكتشفها كما يبدو هذا الصباح فقط .. وعرض تسهيلات لا نظير لها فى الدفع .. فلا لزوم لدفع أى مبلغ فى الحال .. يكفى مجرد سندات بالمبلغ موثقة لدى كاتب العدل ! ؟

قبضت شرطة حى « القيروان » على أحدهم وهو يفك باباً خشبياً مشغولاً من أحد المبانى العامة بعد صلاة العصر ولدى سؤاله قال بأنه لم يكن يسرق بل كان يستخلص أشياء ستكون فى القريب العاجل حطاماً عديم القيمة .

أهل حى « وادى الرمان » انتقلوا من الوادى إلى منطقة المصطبة العليا فوجدوا معظم أهل المصطبة قد خرجوا ليمضوا الليلة الخريفية الباردة فى كروم وبساتين العنب التى لم يعد فيها سوى بقايا العناقيد اليابسة وأوراق نصف جافة تتلاعب بها الرياح .

(زعرور أبو دوكة) ظل أمام دكانه الصغير الذى تعود أن يبيع فيه الفحم وأدوات الشواء ويسحب نفساً على الشيشة مع فنجان شاى ثقيل من ابريقه التاريخى وكلما مر به أحد الخارجين أو الحيارى اصطنع كحة صغيرة وسحب نفساً متوسطاً على الشيشة وقال على مسمعه (يدرككم ولو كنتم فى بروج مشيدة) ..

ظل عبد المؤمن يسرد على مسامعى وأنا أعلق بين فقرة وأخرى ببعض ابتسامة أو قهقهة أو دعاء قصير أو حوقلة .. حسب المقام .

عند محطة « كفر خل » استأذنته لأنزل .. شكرت له صنيعه وسألت « وأنت ؟ » ابتسم ورد بلطف « سأعود بإذن الله بعد صلاة المغرب لأسمع ما سيقوله د . الموصلى فى « نادى العصر الحديث » فقد دعى جمهور المدينة عبر الإذاعة المحلية إلى لقاء مفتوح مع الدكتور الموصلى فى ساحة النادى ذلك المساء .. وهى ساحة فضاء واسعة على طرف المدينة منعزلة إلى حد ما عن المبانى .(وهنا لمعت ابتسامة أخرى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على ثغره) فهى مأمونة .. وأعتقد أن الكثير ممن بقوا فى المدينة سيحضر .

بدا من لهجته ونظراته كمن يسألنى أن كنت سأحضرام لا .. أو كمن يستدرجنى للحضور .

قلت « ذلك شىء مثير ولابد أن أحضر .. سأنتظرك إذن .. هنا فى رحلة العودة .. »

حسناً .. إلى اللقاء فى السابعة ..

فى ساحة النادى خارج المبنى المكون من دور أرضى فقط على طرف ساحة مكسوة بالنجيل بعيداً عن ازدحام المبانى احتشد جمع من أهل المدينة والكل ينتظر بتوتر .

من الداخل خرجت مجموعة أشخاص ذوى رؤوس فى الأغلب صلعاء أو قليلة الشعر .. وعلى عيونهم نظارات وفى أعناقهم ربطات متنوعة النقشات وبيد بعضهم ملفات أو محافظ داكنة الألوان .

سريعاً أخذوا مقاعدهم فى مواجهة الجمهور وراء طاولة على ظهرها مايكروفون وزجاجة ماء ووقف أحدهم فحيا الجمهور باقتضاب ومهد للحديث مقدماً د . الموصلى .

قام الدكتور الموصلى .. بعد تحية سريعة قال « سامح الله الأستاذ أمين سرور وأرجو أن لا يفهمنى الجمهور الكريم خطأ كما فهم ما كتبه الأخ أمين فى زاوية « بعد غد » هذا الصباح .. فكل ما فى الأمر أننى كنت سأكتب عن الزلازل وأساليب التنبؤ .. وما فعله الأخ أمين هو أنه ربط بين ما كنت سأتحدث به إليكم وبين واقعة زلزال مكسيكو .. ومثل ذلك الربط ..

وهنا توقف الدكتور الموصلى لحظة ومد يده إلى زجاجة الماء من على الطاولة الملساء أمامه وأخذ رشفة منها ثم أعادها وراح يمسح شفتيه بمنديل .. وفى هذه اللحظة والأنظار مشدودة إليه .. وقد أطلقت الصدور أنفاساً عميقة وثقيلة تريده أن يواصل .. لاحظ الجمهور الزجاجة التى وضعها لتوه على الطاولة أمامه تنزلق متمهلة على دفعات باتجاه الجمهور والطاولة تميد نحوهم .. نهض بعضهم من الصفوف الأمامية بحركة عفوية واندفع الآخرون إلى الوراء تلقائياً وخاصة الواقفون فى الصفوف الخلفية واختلط الأمر .. وبدت موجة بشرية تندفع تراجعاً إلى الخلف .. وطوحت بى مع آخرين إلى الأرض .. وسقطت الزجاجة لتتدحرج نحو الجمهور الذى ماج كحقل سنابل أو موجة واسعة فى عرض البحر .

وبحركة سريعة لحق الدكتور الموصلى بالطاولة يحاول الإمساك بها وهى على وشك السقوط إلى الأمام صوب الجمهور .. أمسك بحافتها وهو يغالب ضحكة يشوبها لون من حنق لكن الجمهور ظل يتدافع .. وبلا وعى تدوس الأقدام المتراجعة ما خلفها .. والبعض يسقط فوق البعض الآخر .. وتتلاقى وجوه مندهشة وأخرى باسمة وأخرى حائرة أثناء رحلة السقوط نحو الأرض التى لم تكن قد مادت بعد .. لتنفجر بين الأجساد المتراصة المتراكبة بفوضوية ضحكات قوية تختلط بخيوط وتمتمات من دهشة وخوف وأشياء أخرى. وتفغر الأفواه وتتسع الأحداق عندما يخرج بهدوء وعلى مهل من تحت الطاولة بعد أن أعادها الدكتور إلى الاستقرار أحد عمال النادى الذى اتضح أنه كان يصلح توصيلة أسلاك المايكروفون تحت الطاولة ودفعها بكتفه عن غير قصد وهو يحاول الخروج من تحتها ليحدث الزلزال .

قمت من المعترك انفض ما علق بثيابى وأصلح من مظهرى وعيناى هنا وهناك .. تلاحقان مظاهر القيامة التى تلت الزلزال واثنان من المصورين يلتقطان على عجل ومن جهات متعددة صورا لابد سيكون لها شأن آخر .. فى صحافة غد .. بينما بدا د .الموصلى يصلح باصبعه وضع نظارته فوق انفه وعلى وجهه وشفتيه ألوان متنوعة .

الرياض — على محمد محاسنه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

● رؤيا عيد الميلاد

● محمد سليمان

غداً عيد ميلاد صاحبتها « سلوى » سوف يحضر الحفل عدد كبير من الصديقات . يغنين ، يرقصن ، يمرحن ، يلتهمن « التورتة » وقطع « الجاتوه » بعد أن يُطفئن الشمع .سيكون الحفل بهيجا بلا شك وسوف يرتدى الجميع أبهى ما عندهم من حلى وثياب .

بالأمس سألت أباها بقلب واجف إن كان باستطاعته أن يبتاع لها فستانا جديدا تحضر به الحفل . ليت أبوها يفكر لبضع ثوان ثم افتر ثغرة عن نصف ابتسامة وهتف : طبعا طبعا .. ستجدينه عندك غدا بإذن الله . قبَّلاته شاكرة لكن لحظة الصمت التى لم تستغرق غير ثوان أثارت فى قلبها الشك . ترى هل تسمح له الظروف حقا بشراء الفستان ؟ تعرف سوء حالتهم المالية ، لا أدل على ذلك من نومها مع أختيها فى سرير واحد ، لكن ما ذنبها ؟ كيف يمكنها الظهورغدا أمام صاحباتها بهذا الفستان البالى الذى مضى عليه قرابة العام ؟ واستبدت بقلبها الصغير مشاعر القلق والحيرة طار النوم من عينيها حتى ساعة متأخرة من الليل .

واليوم أشرقت الشمس على المغيب . لم يحضر أبوها فى وقته المعتاد . بدأ اليأس يتسرب إلى قلبها . سألت عنه أمها فأجابتها باقتضاب أنه لا شك يبحث لها عن الفستان المناسب . استيقظ الأمل من جديد . حقا .. وإلا لحضر فى موعده.السوق مزدحم كعهده بالطبع ولابد أن يستغرق الشراء وقتا . لكن الساعة جاوزت السابعة مساء . هل يستغرق الأمر كل هذا الوقت ؟!

ومرة أخرى عادت مشاعر اليأس تزاحم فى قلبها بارقة الأمل . مضت إلى النافذة المطلة على الطريق . فى قلق يشوبه التوتر راحت تتفحص وجوه المارة . عن بعد لمحت وجها يشبه فى ملامحه وجه أبيها ، تهلل قلبها بالسعادة ، لكن جذوة الفرح سرعان ما خبت ما ان اقترب الرجل . غالبت إغفاءة مباغتة ترنح لها رأسها من جراء نسمة رقيقة لا لن تنام الليلة حتى يحضر أبوها وترى الفستان ويطمئن قلبها . اختلطت وجوه المارة فى عينيها وفجأة تواترت دقات قلبها كالمطارق . رأت أباها يدلف وسط المارة حاملا بين يديه علبه كبيرة . العلبة ملفوفة بورق مزركش وموثقة بشريط فضى لامع . الفستان الجديد بلا شك . فى ثوان كانت تفتح الباب . الابتسامة المشرقة تملأ وجهه . يقدم لها العلبة ويطبع فوق جبينها قبلة . بأصابع متوترة تتناول العلبة . تضمها إلى صدرها : الدنيا كلها بين أحضانها . تفتح العلبة وتخرج الفستان . تفوق روعته كل ما طاف بخيالها . وردات بيضاء فوق الصدر وسياج أبيض يحوط الذيل فى نسق أخاذ . حمدا لله .. الآن تستطيع أن تذهب إلى الحفل وتقابل صاحباتها منشرحة الصدر مرفوعة الراس . سوف تزهو به أمام الجميع وتمضى معهم وقتا ممتعا . عندما تعود سوف تعيده مطويا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعناية الى علبته . سوف تفسح له مكانا خاصا فى الدولاب الملىء بأكوام الثياب المهلهلة .

فى الصباح افاقت على صوت أمها توقظها لتشاركهم طعام الافطار وتذهب إلى المدرسة . تمطت فى تراخ واعتدلت تحدق فى وجهها . تناهى لسمعها صوت ابيها فى الردهة الخارجية تذكرت على الفور علبة الفستان . عادت تتطلع إلى أمها بنظرات تشوبها الحيرة والتساؤل . غادرت فراشها ومضت صوب المائدة . رأت أباها جالسا فى صمت . خيل اليها ان ثمة تقطيبة تعلو وجهه . بضع دقائق وتحلقوا جميعا حول المائدة . جاست بنظراتها بين وجه ابيها وأمها فى محاولة لتهدئة ثائرة قلبها . الأم مستغرقة فى إعداد « سندوتش » لأخيها الصغير . الأب لائذ بالصمت يدير الملعقة فى كوب الشاى . تثير أعصابها حدة الرنين الناجم عن اصطكاك الملعقة بالكوب . تتقلص أمعاؤها غثيانا من رائحة الفول .

يسألها الأب فجأة :

ـــ ماذا بك .. لم لا تأكلين ؟

تغمغم بشرود :

ـــ لاشىء يا أبت .. لا شىء ..

تتشاغل بنزع اللبابة من رغيف الخبز . تصّاعد فى قلبها وخزات الشك . علامة استفهام حادة تنبثق فى رأسها كسكين حاد . تفكر فى ترك المائدة والذهاب الى دولاب الملابس . تخشى أن يثير تصرفها الانتباه . تعصف بها الحيرة . تحاول جاهدة أن تقتنص الحقيقة من براثن الشك . مفغورة حولها الأفواه لا هم لها إلا الطعام . تتضخم فى رأسها علامة الاستفهام ، بالون على وشك الانفجار ، تحس بالاختناق . يعاود أبوها سؤالها عما بها . تتطلع اليه فى صمت لكنها لا تجسر على طرح السؤال .

القاهرة : محمد سليمان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آه .. زكـــية

محمد حيزى

فى رمشة عين رحلت ...
كما ترحل غمامة مسكونة بالمطر دون عودة ...
وأنت ... هل استطعت أن تقول نصف الحقيقة ؟ .. لماذا اعتراك ذلك الصّمت الخاوى ؟ ..
ـــ هل كنت مشلول الشفاه ؟

كان بامكان « زكية » أن تعيش ... أن تملأ ليلك البائس هذا برقّة صوتها العذب .. بابتسامتها الدافئة .. لو جازفت بشىء من راحتك لما انتهت « زكية » كفراشة ... لن تجد لنفسك مهرباً من هذا اللّيل الّذى يطوّقك ويحاكمك .. فى هذا المكان القابع بعيداً عن الضّجيج ستجد نفسك وحيداً مطارداً ... عيناها الجميلتان الغارقتان فى الألم ستراهما فى رواحك ومجيئك ... على الجدار الطّويل ... على الباب البنّىّ الكبير ... فى كلّ غرفة ...

سريرها الفارغ يدمّرك ... حيطان الغرفة رقم (٦) تزحف نحوك وتريد تهشيمك ... النّافذة المطلّة على الظّلمة تطردك ...
ـــ أنت متّهم .. !

ليس فيك ذرة من جراة ... عليك أن تدمّره ... أن تدوسه بحذائك الصّلب هذا كحشرة ... إنّه مجرّد كتلة من العظام المركّبة تتحرّك فى جفاف قاحل ...
ـــ إنّه نجس ...

قد تقول يا هذا إنما ماتت كما يموت أى مريض ... لعلّها تنعم فى حياة أجمل من هذه ... قد ترى أن الحقيقة مرّة ... ربما تجد نفسك مذنباً ... قد يسجن ... يطرد من العمل إلى الأبد ... لأيّام ويعود ... قد ترفت أنت لأنّك لا تسكت ... كم من واحد ضاع فى غُرفكم القاسية هذه كم من آهة قاتلة ! .
ـــ ما أبشع هذا المكان !

... كلّ يوم تراه يجوب الرّواق الطّويل فى منديله الأبيض ... تنظر فى وجهه المعفوس وتمرّ دون أن تنطق بكلمة ... ماذا تعنى تحيتك الصّباحية إذا احتفظت بها بالنّسبة له ؟ هو مستغن عنك تماماً ولا تهمُّه إطلاقاً ... هل تظنّ أنّه حزين مثلك ؟ قد تجلب لنفسك شبهة لو واصلت غضبك المخفىّ هذا ... قد تشعره بشىء ما فيكيد لك ... عليك أن تكون عادياً معه ... ازرع ابتسامتك من جديد على وجهك كلّما مرّ بقربك ... قد يفطر بك قبل أن يكون وجبة لعشائك ... حذار من هذا النّوع من البشر الأذكياء ... استعمل كلّ خبثك معهم وكن فطناً ...

فى هذا المكان تعوّد أن يلتذّ بهذه الموبوءة القلب وتلك الخائنة لزوج مغفّل ... قدومه إلى هنا لا يعنى شيئاً ... مفروض عليه أن يسجّل حضوره ... أن يرفه عن نفسه مع أية واحدة تضعها الأقدار بين أحضانه طلباً لشىء من الدّفء والمعاملة الحسنة ...

المهم وكما تعرف أنت أن زميلك هذا لا يعنيه سوى ذلك المرتّب التّعيس من الوزارة ... ثمن سجائره وأثوابه الباهظة وقوارير أيّام الآحاد ...

ـــ المهم أن هناك دخلاً دائماً لهالاينضب ... يكفيه لضروراته وحاجاته الملحة ... وأنت هل حاسبت نفسك ؟ لماذا تنصب نفسك « ملاك رحمة » ؟ نهاية مثل نهاية زكية ستصبح عاديّة ... مثل ركوب الحافلة كلّ يوم .. كلعبة الورق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فى ركن مقهى ملوّث ... دع هواجسك ترحل كما رحلت تلك الوردة إلى عالم آخر أكثر راحة ... عالمها الخيالىّ اللذيذ ... إنّ الموت الذى اختطفها ليلتها كان سيختطفها غداً أو بعد سنوات ... قد تكون تخلّصت من هموم كثيرة واختصرت البقاء فى دنياكم المتعبة ... الفاجرة وكم يروق لك هذا الوصف دائماً ...

قال زميلك الذى يعمل بالليل سرّاً وبصوت لا يكاد يسمع .

ــ لقد صفعها البارحة لأنّها كانت تستغيث وتطلب ماء ...

قالت زميلتك التى كثيراً ما تغازلك بعيداً عن العيون .

ــ لقد جرّعها غصباً عنها كميّة من حبوب النّوم حتّى تنام

أضافت إحدى المريضات فى هدوء .

لقد طلبت منه الذّهاب إلى دورة المياه فسخط فى وجهها وطالبها بالبول على فراشها ...

وقررت أن تفعل شيئاً ... بينك وبين نفسك عزمت على ذلك ... هناك شهود كثيرون ... سترضى ضميرك حتماً ... وماذا لو أنكر كلّ من حدّثك ، وكذّبك ؟ هذا كلام فارغ ! لا تستطيع أن تبوح ولو لنفسك ... كم من واحد مثلك ذهب مع الرّيح ... المسؤولون أذكياء جدّاً وهاته الورطة ستكون ضحيّتها أنت فقط ... هل أنت الوحيد القادر على ما حدث ؟ .

ــ حذار أن تمسّ شرف المستشفى ...

وحيداً تجد نفسك تتذكرها بلهفة ... لا تقل إنك بكيت ... لقد سقطت دمعتان على خدك فقط ... سكاكين تتحرّك داخلك ... قلبك يعتصر وتتوالى دقّاته فى غباء ... حصل كلّ شىء من هذا إلاّ شيئاً واحداً سيظلّ يطاردك ، هو قول الحقيقة ... لسبب واحد ستكتمه ما حييت هو خوفك من الطّرد ... سنوات البطالة التى عشت حرقتها ستعود ... لن يقولوا عنك بطلاً ...

ــ مهما كان الأمر ... مهما كان ... فهو زميلك .. ! ــ هل تبيع زميلك ؟ لن تفعلها ...

من يدرى ... فقد يكون هو أيضاً غضّ الطرف عن زملاء كثيرين فى هذه البناية الجميلة من الخارج ...

ــ هل تذكر .. ؟ بالطبع لن تنسى ...

قبل أن ترحل إلى عالمها الذى تراه ورديًّا قالت لك :

ــ أنت الوحيد الذى ارتاح له ... سأدعوك إلى « ملوخية » . لذيذة المذاق ...

أنت تعرف والكل يعرف أنّ هذا النوع من العمليات لا يحتاج لتعقيدات كثيرة ... هى مجرّد عملية بسيطة يخرج صاحبها فى صحة جيدة بعد ذلك ... كل ما تحتاج إليه ... عناية خفيفة دورية .

ــ الزّائدة الدّودية لعبة الأطباء الصغيرة ...

ــ ذلك النّجس .

كانت المسكينة تصيح ... لقد تعفّن جرحها وأصبحت رائحته نتنة ...

ــ كلّ ما استطاع أن يفعله هو أن تنام ... أن تخرس ... أن تكفّ عن إزعاجه ...

وأنت .. ! لولا رقّتها اللذيذة ... شعرها الذّهبىّ المتموّج ... جسمها المتلىء الشهى ... صفاءها السماوى ... هل كنت ستهتمّ بها ؟ بهذه الصوّرة الحزينة البائسة ... الشيطان يسكنك كما يسكن زميلك إلى الأبد ... تختلف عنه فى شىء واحد فقط ... أنك دخلت هذه المهنة جديداً ... فى أعماقك ملاك صغير مهموم سيتغير مع الأيّام ...

إذا أردت أن تبكى فابك ... ابكها بلوعة ... هذا كلّ ما تستطيع أن تفعله ... لتدمع عيناك بعنف الألم الذى يحمل بذاءاتكم ... بنجاسة الملاك المتعفّن فيكم ... بمساحة الميل التى اغْتَصَبْتُمُوهَا فى قلبك الجبان ...

الرّواق الممتد الطويل الذى تتأرجح فيه كآبة عميقة يلاحقك فى كل لحظة ... لا يتركك أبداً ... يناديك بوجيعة الآهات المزروعة فى كل غرفة ... وذلك الموبوء تراه كل يوم ... تسمع صرخة « ذكية » الأليمة فى يديه ... على وجهه الداكن الموحش ... فى كل خطوة يخطوها ترى جثة « ذكية » تصيح ... تستغيث فى وجع مستمرّ وتطلب ماء ... تطلب منك أن تفعل شيئاً ... تستجديك أن تثور ...

قلت بعد أيام ... بينك وبين نفسك قلت ذلك ودموع أم « ذكية » تخترق جدران ذلك المستشفى المترامى الأطراف حيث الصمت والهدوء الفظيع ...

ــ سأدمره ... أكيد يسقط ثانية بين يدى ...

قرّرت فى خبث أن تتحدّى خوفك وهذا يحتاج منك لتكتيك وذكاء وأنت تتذكر آخر همسة « لذكية » ذات ليلة أطل القمر فيها من النافذة المفتوحة على الغرفة رقم (٦) .

ــ عرسى موعده قريب ... فى آخر هذا الخريف ... ستكون أوّل المدعوين إليه .

القصرين ــ تونس : محمد حيزى

فى الغابة

حسين عيد

« ١ »

« .. هناك فخ منصوب لحيوان ما فى الغابة ، أما موقعه ...»

تنبهت على ذلك النداء الهادىء النبرات ، كأنه صوت إعلان ما ، لكنه تشوّش فجأة قبل أن يتيح لى التعرف على المكان المقصود ، الذى لو عرفته لا نطلقت إليه فورا : فهى بهجة لا جدال فيها ، أن ترى حيوانا يصارع للإفلات من الشرك الذى وقع فيه .

سقطت نظراتى على فراشى الخشبى ، المغطى ببعض الأعشاب الندية .. كان الصمت مخيّما حولى ، فارتفعت نظراتى تلقائيا إلى النافذة ،ومن ورائها كنت ألمح ذؤابات الأشجار البعيدة ، وكنت أسمع وشوشة فروعها ..

وحيداً ، كنت هناك ، داخل كوخ معلّق فى الأعالى ، بين أغصان شجرة عملاقة .

« ماذا جئت أفعل ؟ ! »

« هل كنت أحلم ؟ »

« ٢ »

لم يكن الجوّ ساكنا ، كما خُيّل إلى وأنا بين النوم واليقظة ،إذ هاجمتنى على حين غرّة كل ضوضاء الغابة المجاورة : شقشقة العصافير ،أصوات الحيوانات ، خرير مياه ينساب فى مكان ما بالخارج ، هدير الرياح خلال ارتطامها بأغصان الشجر ، وتغلغلت فى أنفى روائح متداخلة لطرّاجة الخضرة والأزهار .

فجأة سمعت فرقعة شىء ما يتفكك ، يتكسر ، ينفصل . تلفتّ حولى فزعا ، كان لوحا طوليا من سريرى قد انخلع من مكانه وسقط مترنّحا فى الهواء ، ومن التجويف الذى خلفه ، كنت أرى ـ بأسفل ـ كل أنواع الطير والحيوان والزواحف .

« لماذا انفصل هذا الجزء ، بشكل غير متوقع ؟ » .. كنت أعتقد ـ حتى هذه اللحظة ـ أن سريرى الخشبى الذى يتكون من ألواح طويلة متجاورة ، تتصل ببعضها وتتوحد ، بفعل دعامات خشبية عرضية ، وأصماغ شديدة التركيز ، لم يكن معرضا أبدا لأى نوع من أنواع التصدّع أو التآكل ..

هكذا داخلنى إحساس غامض بالخطر ..

« ٣ »

كانت أشعة الشمس التى تنحدر عبر النافذة ، قد خفّت حّدتها ، وخفتت انعكاساتها .. «هل كان هذا إيذانا بقرب المغيب وحلول الظلام ؟ »

نهضت ملسوعا ، أبحث بين حاجاتى عن علبة ثقاب ، تفيدنى إذا ماجنّ الليل . دارت الأشياء أمام بصرى وتداخلت ، فتأرجحت وتشبثت بالسرير بعنف .. « هل كان

الاهتزاز زلزالا اصاب المكان ؟أم كان داخلى ، وانعكس على ما حولى ؟ ! »

ذعرت ، وانا ارقب لوحا آخر يتساقط من سريرى الخشبى ، ويهوى من علو شاهق ، لاحقا بالجزء السابق ..

تساءلت مرعوبا : هل سيتوقف انهيار الواح الفراش عند هذا الحد ؟ أم ستكون نهايتى كتلك القطعة المنفصلة ، التى تلهو بها الريح ، خلال سقوطها المروّع من عل ؟ !

كانت الشمس قد خبت الآن ، تماما ..

« ٤ »

سبح المكان حولى فى ظلام دامس . تذكرت انى كنت حبيس مكان مظلم من قبل ، واشعلت ساعتها كل ما لدىّ من أعواد ثقاب ، لم يفلح أىّ منها فى تبديد ظلمته ..

امتدت يدى تلقائيا بجوارى ، تحسست الألواح الخشبية .. كان جزء جديد ، قد انفصل أيضا ، ولم اشعر بسقوطه وسط الظلام ..

تلمست بقية الأجزاء ، التى ظلّت متلاحقة حتى الآن .. لكن إلى متى ستصمد ؟

تماسكت . تطلعت إلى السماء برجاء . انتابنى إحساس خفى بأن القمر سيسطع الليلة ، وستتسلل اشعته إلى الكوخ ، حتى اتعرّف ما يجرى حولى ، لعلى اجد شيئاما ينقذنى من المصير القادم بخطوات ثابته .

« ٥ »

كانت أشعة القمر الواهنة تضىء جنبات الكوخ . اكتشفت أن لوحين أخرين انفصلا فى الظلام ، وانى راقد على النصف الباقى من السرير فقط ، بجوار هوّة فاغرة ، تنتظر ان تتلقفنى .

نهضت حذراً ، رحت اعبث بحاجاتى بجنون ، بحثا عن أدوات تصلح لثبيت الألواح الباقية ؛ فتكتب لى النجاة مؤقتا ، حتى يجىء الصباح فيكون لى - على هدى نوره - تصرّف حاسم للخروج من هذا المأزق .

ومن بعيد ، انبثق على غرّة ، نفس الصوت السابق ، البارد .. «هناك فخ منصوب لحيوان ما ، فى الغابة ، أما موقعه .. »

وتشوّش الصوت من جديد .

القاهرة : حسين عيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

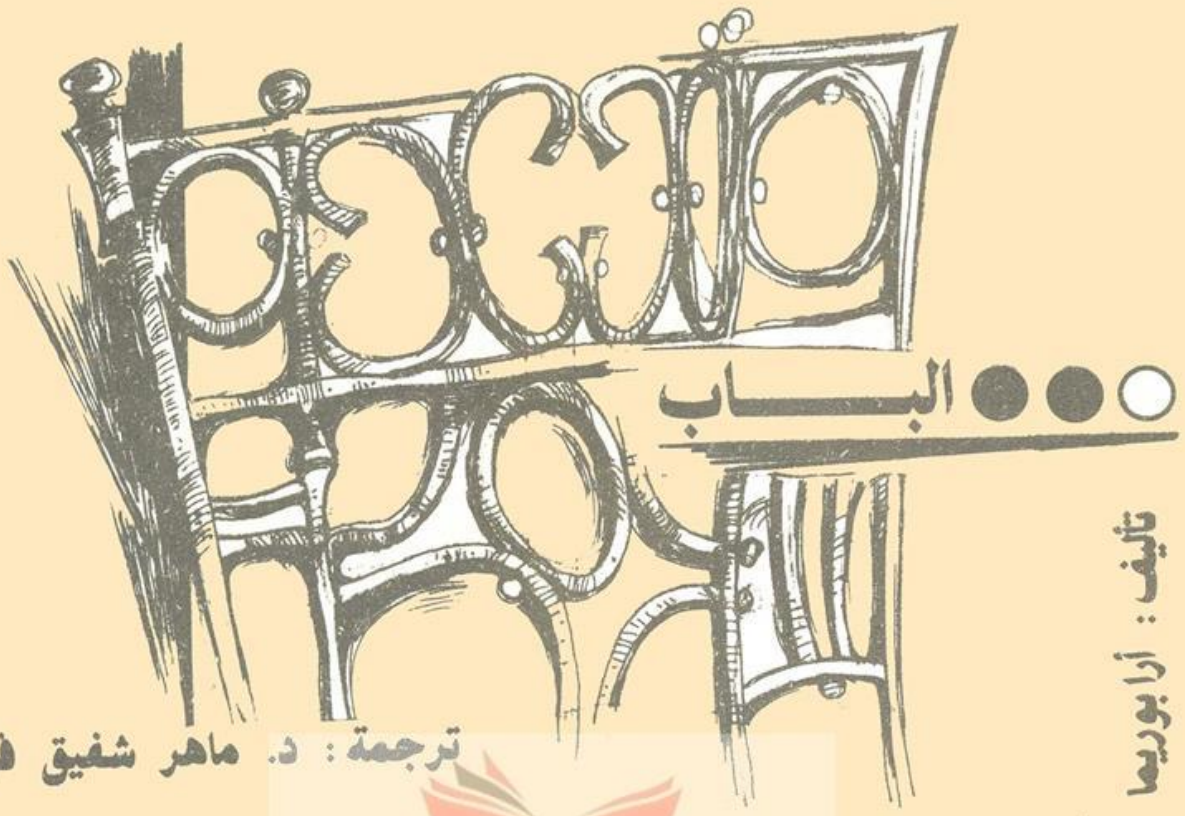

تأليف : أرا بوريما

ترجمة : د. ماهر شفيق فريد

ضئيلاً ، حالم العينين ، مائلاً إلى البدانة قليلاً ، رغم شبابه ، أعوامه الخمسة والثلاثون لا يزعجها شيء بينما كل شيء من حوله يضج بالضحك والفرح : كان صديقي أمادو — في رأيي — أكثر الرجال الذين يمكن للمرء أن يعرفهم مسالمةً : يعلق أهمية كبرى على السلام والهدوء والوحدة . كان يبحث عنها دون توقف ، وبعناد . يفر من الجموع بضوضائها وصخبها ، فهي تفزعه . يؤثر العزلة .

قد حقق الله أمانيه . فبعد عشر سنوات من العمل في بيت تجاري كان يعمل فيه محاسباً ، تمكن من أن يتزوج وأن يوفر من المال ما يكفي لبناء بيت كما كان يريده أن يكون . كان بيتاً يلوح كفتاة لعوب ، له فناء خلفي رحيب ذو شبكة سلكية ، وقد بناه بعيداً على ربوة مرتفعة بعض الشيء . وكان السبيل الوحيد إليه هو أن تسلك ، من الناحية الشرقية ، درباً يمر بمشتل فيه أشجار كافور كثيفة ، أو درباً آخر يحيط به شمالاً ، عابراً الأول قبل أن يغيب في بستان مجاور .

كان مدخل الفناء الخلفي يؤدي إلى الدرب الشمالي . وفي هذا الفناء الخلفي الذي تنتشر فيه الأشجار كان يحب ، كل مساء بعد انتهاء عمله ، أن يجلس في مقعد ذي مسندين ويستمتع بمسرات القراءة ومعه كتاب مفتوح .

كنت أزوره كل يومين . وكان من عادته أن يطلب إليّ وإلى زوجته إحضار مقعد آخر ذي مساند . وبعد تبادل قصير للتحيات ، كنت أجلس قربه ، ونروح نتأمل معاً إلى أن تغرب الشمس تماماً .

هذه الحياة الرتيبة ، هذه السكينة التي لم يكن يزعجها سوى أغنية الأطيار على الشجر ، قد صح عزم امرىء — في يوم من الأيام — على جعلها تختفي ، بصورة قاطعة ، من هذا البيت .

قبل وقوع هذا الحدث ببضعة أيام ، سافرت زوجة أمادو — لمدة شهر — إلى قرية مجاورة كي تزور بعض الأقرباء أصبح وحيداً يستمتع تماماً بمسرات حياته الوحيدة ، ولما كنت أعرفه جيداً ، فقد تركت أسبوعاً يمر دون أن أزوره ، ثم ذات مساء — قبل العشاء تماماً — جاء كي يزورني ، مرتعباً وفي يده حقيبة .

منذ ثلاثة أيام خلت قرر — مهما بدا ذلك غريباً — أن يذهب إلى دار السينما كي يرى فيلماً يلعب دور البطولة فيه لوي دي فين . ومن شأن فكرة أنه سيتعين عليه أن يواجه الجمع أن تفسر ، بسهولة ، لماذا تردد في الخروج ذلك المساء

بيد أن الرغبة في الاسترخاء غلبت عليه ، هذه المرة .

ابتلع مسرعاً عجة ، أعدها لتوه ، بعد أن أخذ حماماً لا يقل عن ذلك عجلة ، ثم ارتدى ثيابه ، ووجد نفسه في صالة السينما قبل بدء الفيلم بدقائق قليلة . كنت بين المشاهدين

العديدين فى ذلك المساء . ولم يعرف ذلك إلا بعد انتهاء الفيلم . راح الجميع يضحكون ما شاء لهم الهوى . وعلى مبعدة ، كنت أراقب أمادو . كان من الواضح أنه متضايق . ولأكثر من مرة ، بدا كأنه يريد أن ينهض ويتجه إلى باب الخروج ويترك الدار . ولكن موهبة الممثلين غلبته على أمره ، فظل حتى النهاية ، ولم يعد إلى البيت إلا متأخراً فى تلك الليلة .

فتح باب مسكنه المسور ووجد نفسه فى الفناء ، ينصب عليه ضوء مصباحين كهربيين كان قد تركهما مضاءين . وعندما بلغ باب البيت ، كان ثمّ ضوء أيضاً ، ولكن شيئاً لاحظه سمره أرضاً : كان الباب مفتوحاً على مصراعيه

كان متأكداً أنه قد أوصد هذا الباب قبل خروجه . من عسى أن يكون فتحه ؟ لمدة لحظة ، ظن أنى كنت أنتظره بالداخل . ولكن كيف يتسنى هذا ، وقد أزجى كل منا لصاحبه تحية المساء ، منذ قليل ، فى طريقنا خارجين من العرض ؟ وحتى لو كنت أنا الزائر ، فكيف كان يسعنى الدخول ، وأنا لا أملك نسخة من المفتاح ؟ قال لنفسه : ربما كانت زوجتى .

أيمكن أن يكون الزائر غريباً ؟ لا .. فهو لا يستقبل غرباء . ربما كان ، ببساطة ، قد نسى المفتاح فى الباب . ولكن كيف يفسر ثقله فى أحد أركان جيب صداره ؟ ولو كان كذلك لكان فى ثقب الباب . كان على يقين من أنه قد أرصد هذا الباب ، كان على يقين . وعلى ذلك هتف بصوت مخنوق : « من بالداخل ؟ » لكن ما من رد . « من بالداخل ؟ » هكذا صاح مرة أخرى . نفس الصمت . كان السكون مخيفاً غامضاً لا يطاق .

ارتد إلى الوراء بضع خطوات ، وأراد أن يفر بعيداً ، ولكنه وجد ذلك من قبيل السخف ، تقدم ناظراً إلى هذا الباب الذى أصبح الآن يخيفه . كان الليل يتقدم ، وفى الخارج طراوة ولكنه لم يجرؤ على دخول بيته . لم يكن يحمل سلاحاً ، راح يتساءل كيف يمكنه أن يدافع عن نفسه لو وقع عليه عدوان . قبل هذا المساء لم يعنّ له قط أن يحمل سلاحاً . وأدرك كم أن الإنسان عار ، إذا لم يكن معه حتى إبرة يدافع بها عن ذاته عند الحاجة . ليس للإنسان إلا عمر واحد ، وقد كان يعرف ذلك .

وعلى ذلك لن تكون ثمة فرصة ثانية للعيش . وقف متراجعاً وقد قر قراره على أن يقضى الليلة بالخارج .

سيعد جباناً لو أن أخبار ليلته ذاعت . كلا . الموت خير من الفرار .. وفى عزم اتجهت خطواته نحو الباب ، وعبر الشرفة الغارقة فى النور ، وأمسك بمقبض الباب وفتحه أكثر حتى وجد نفسه واقفاً فى منتصف غرفة الجلوس ، وبدنه يرتجف .

كان ثمة مفاجأة فى انتظاره : كانت مائدة الطعام فى مكانها ، فى الطرف الأقصى من المطبخ إزاء الحائط ، وعليها يقوم الطبق الذى أكل فيه عجته . وعلى مقربة منه سكين وشوكة وكوب فارغ وممسحة أطباق . وكانت كراسيه الحمراء الأربعة ، ذات المساند ، فى مكانها على البساط الأخضر الكبير ، لم تتحرك هى الأخرى . بيد أن أحداً قد مسّ الصوان الماهوجنى . لقد فُتح ، وكان شخص ما يأمل أن يجد فيه شيئاً غير أو انى المطبخ ، ومن ثم ترك أدراجه مفتوحة . ولفت شيئان غريبان على الرفوف الخلفية انتباهه . دنا من هذه القطعة من الأثاث ، وأبصر قماشة مبلولة قرب قضيب قصير من الصلب . من وضع هذه الأشياء هناك ؟ فكر لمدة لحظة وأدرك إنه ربما كان قد استخدم القضيب فى كسر القفل .. لكن .. ماذا عن قطعة القماش ؟ .

لقد دخل أحد البيت . توكد ذلك لديه الآن . ولكن من عساه يكون ؟ وإذا كان مازال هناك ، مختبئاً فى مكان ما فى أحد الأركان .. ارتجف لفكرة أن الزائر الغامض ربما كان يراقبه ، على استعداد لأن يطرحه أرضاً . وشعر بأنه يريد أن يخرج ولكنه لم يستطع ، وكأنما عجز عن أن يصرخ طالباً النجدة .

اقترب بحرص من باب الغرفة التى كانت تستخدم مخزناً وفتحه ببطء . وإذا أطل برأسه فى الفتحة الضيقة ، تأكد أنه لم يكن ثمة أحد مختبىء . كانت الصناديق والحقائب والصوان المصنوع من الفورمايكا ، موجودة كلها حيث تركها . ولم يبد له ضرورياً أن يلقى بنظرة على الحمام أو غرفة النوم حيث لم يكن هناك — فى الواقع — ما يثير الاهتمام .

ارتمى على مقعد ذى مسندين . لقد اقتحم أحد بيته ، ما فى هذا أدنى ريب . من المحقق أن الغريب لم يكن لصاً . لقد كان بإمكانه أن يحمل كل شىء ، فما كان هناك من يمنعه . ولكن .. أيمكن أن يكون قد جاء بنية قتله ؟ وما الذى يمنع أن يكون الأمر كذلك ، بعد كل شىء ؟ إن المحاسب — فى نظر الناس — يعدّ رجلاً عظيم الثراء .. ربما كان أحد الحاسدين يرمى إلى تصفيته بدنياً ، ووضع اليد على ممتلكاته .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قبض على سماعة التليفون الذى كان موضوعاً على قائمة ، غير بعيد عن الباب ، وأدار رقماً .

« ألو .. قسم البوليس ؟ أعطنى المأمور دوكى من فضلك . الأمر عاجل » .

« المأمور على الخط معك يا سيد » . هكذا قيل له بعد ثوان من الانتظار .

« سيدى المأمور . أنا أمادو .. تعال بسرعة إلى بيتى ، فإن أحدا يريد أن يقتلنى » .

كانت الساعة الكبيرة تشير إلى الثانية صباحاً .

بعد خمس دقائق دخل المأمور مصحوباً بشرطى . جلس فى مواجهة أمادو وبدأ التحقيق فوراً . أراد دوكى أن يعرف كل شىء من البداية ، بما فى ذلك أصغر التفاصيل . كيف جرؤ أمادو على بناء بيته بعيداً عن أى جوار هكذا ؟ كم من المفاتيح لديه ؟ أين ذهبت زوجته ولأى مدة ؟ ألديه خدم ؟ حارس ؟ ما الأشياء التى سرقت منه ؟ هل وجد أى آثار أقدام فى الفناء ؟ من له مصلحة فى جعله يختفى ؟ سأعفيكم من باقى الأسئلة التى طرحت على أمادو ، لأن إجاباتها لا تختلف عما تعرفونه سلفاً .

أخذ دوكى مذكرة بما سمعه . ولا أفشى سراً إذا أخبرتكم أنه اتفق فى الرأى مع أمادو حول استخدام القضيب فى كسر الباب وقطعة القماش فى محو بصمات الأصابع ، وأن الرجل الغريب قد كان ينوى أى شىء ، خلا السرقة .

وإذ كان الوقت قد بدأ يتأخر ، انسحب المفتش تاركاً الشرطى فى صحبة أمادو . إنك لا تستطيع أن تعرف .. فقد يعود « السيد » مرة أخرى .

ولئن كان الشرطى قد عاش — لمدة يومين وليلتين — على أمل وضع اليدين على مقتحم البيت ، لقد عاش أمادو — من جانبه — على خوف أن تقصر مدة وجوده فى هذا العالم . وأثناء لحظات نومه القصار ، نهاراً أو ليلاً ، كان يرى فى المنام رجلاً — رجلاً فارع الطول يمسك فى يديه سيفاً كبيراً ، فوق رأسه . وكان يستيقظ مجفلاً فى نفس اللحظة التى يكاد فيها السيف — فى كابوسه — يهوى على عنقه .

وفى صباح اليوم الثالث ، إذ لم يأت أحد ، استرد المأمور رجله ، وأصبح أمادو بمفرده من جديد . وحين عاد من عمله ظهراً ، أعد لنفسه وجبة هزيلة ، وأبى أن ينام القيلولة ، ثم عاد إلى العمل حيث كان يشعر بأمان أكبر . وعند عودته فى نهاية الأصيل ، راح أمادو يذرع حديقة بيته ذهاباً وجيئة أمداً طويلاً ، وعلى وجهه نظرة غائبة . مال على السور ، وتحولت عيناه نحو المشتل بأشجار كافوره الكثيفة العملاقة التى لا حت أشبيه بغابة حقيقية .

المشتل .. أجل ، لماذا لم يتحه إليه تفكيره من قبل ؟ من المحقق أنه مسكون . لا يمكن أن يكون زائره غير واحد من الأطياف العديدة التى يضمها والتى ربما كانت قد جاءت لتقول له « عم مساء » . ارتجف ، لأن فكره أنه بمفرده فى قلب قرية من الأطياف أثلجت دماءه .

خطا جانباً وارتد عن السياج مندفعاً داخل البيت . خرج منه بعد لحظة ، وفى يده حقيبة . وأسرع الخطى متجهاً إلى المدينة ، حيث كان مؤذن على قمة منارة يؤذن لصلاة الغروب — الرابعة فى اليوم — ومتخلصاً من وحدته إلى أن يزول كل خطر .

ترجمة : د . ماهر شفيق فريد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فى بيت الخالة الزهْرة

حسن مشرى الفرشيشى

منذ الخميس الماضى وانا انزل بفندق من الدرجة الثالثة ... أغدو فى ساعة مبكرة من النهار ولا أعود إلا بعد غروب الشمس .. قبل أن أستلقى على الفراش المهترىء واضع رأسى على وسادة يابسة كجلد شاة قديم يلقى علىّ « عم سالم » نظرة مرتخية أرى من خلالها يده تمتد قائلة فى عتاب قاس :

ـ ادفع المعلوم اولاً يا سيّدْ .

أتململ بهدوء حتى لا أسمع الصرير من تحتى ثم أقف فى حذر متحسساً جيبى لعلى أعثر على آخر دينار يتيم وفرته منذ أيام لمثل هذه الساعة .. واضعه ببرود على الطاولة الصغيرة المتآكلة ، فيقبض عليه « عم سالم » بأصابعه الطويلة المدببة ويضعه فى خزانة صغيرة وراء ظهره ثم يدير المفتاح بإحكام وهمى شديد .

غداً الخميس موعد السوق الأسبوعية .. لابد ان أبى سيبعث إلىّ المبلغ مع خالى .. لقد أوصيت صهرنا « عمار » الذى جاء بالأمس لمهمة بالمدينة ، وأكدت عليه ذلك حتى إنه سألنى عن شغل المصنع الذى توسط لى فيه خالى عن طريق نائب المدير ... لابد ان أبى سيسأله عن كل شىء .. أكيد « عمار » سيخبره بأنى ما ازال مقيماً بالفندق وأن ما املكه من مال يكاد ينفد وأن نائب المدير فى مهمة بالعاصمة ولا أحد يعرف موعد رجوعه .. بت ليلتى أحك جلدى المعروق فى حين أرسم على السقف الذى امتزج فيه سواد الليل بخطوط العنكبوت ، صورة نائب المدير وأوراقى نقدية كثيرة وملونة ... آه لو يتحقق لى كل ذلك غدا .. سأمر مباشرة إلى « مسعود » المسمسار ، لابد ان أجد لديه غرفة للإيجار ، سأعطيه ما يطلبه لقاء خدماته الجليلة ... لقد قال لى أبى بأنه طماع ، إنى أعرفه أيام كنت اشتغل بالبناء هناك ، سيقول لك فى البداية جئت متأخراً يا ولدى ، لكن عندما تبيّض كفّه بدينار أزرق يضرب راسه الأصلع بكفه ويقول فى ضحكة باردة مهدهدة : سامحنى يا ولدى ، لقد كبرنا وعجزنا وخانتنا حتى الذاكرة ... لدىّ غرفة نظيفة كالكف بحى الرمانة قرب مصنع الآجُر ستعجبك بلا شك .. آه لو يتمثل أمامى كل هذا .

سيرتاح قلبى واحس فعلاً انى رجل يُعوّل عليه ، اخوض غمار الحياة وأوفر عيشى بكدّى .. يا لها من لذة فى تلك اللحظات التى يقبض فيها الشاب راتبه الأول ويضعه بين يدى أبيه وهو ينحنى مقبّلاً إياه من جبينه .. سيطير أبى من الفرحة فى الشهر الأول ، ويضحك فى الثانى ويبتسم برتابة فى الشهر الثالث ... أما فى السادس أو الثامن أو العاشر فإنه سيقول لى : لقد جمعنا لك مبلغاً هاماً يا بنى . « فائزة » إبنة عمك فى انتظارك .. لن أقول فى شأنها شيئاً وليس لدىّ ما أعيبه فيها ، لكن عندما أتذكر « أم الهناء » زوجة عمى أنفر من زيجة بنات العم ... لقد كانت ولوعة محبة لعمى ، رأيتها بنفسى وأنا طفل صغير ألعب مع بناتها بفناء الدار .. كانت تحشو اللحم فى فمه فى وله وتسقيه الماء بنفسها كأنه طفل صغير مدلل ... كانت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تفعل كل هذا وهى تطوّقه بذراعها المزدان بأساور ذهبية كثيرة ، فتنطلق ضحكاتها الرنانة لتتوزع عبر « الترعة » والنوافذ الصغيرة المشبكة ... لكن عندما مات عمى رأيتها تبكى وتلطم خديها بغير دموع ، ليس من هول الصدمة ، فسرعان ما راقها استبدال سرج بآخر أجدّ وأجمل لوناً ، فقبلت الزواج من أول رجل تقدم لطلبها وتركت بناتها الأربع كالقلائد فى رقبة أبى ، كل واحدة تنتظر بختها قبل الأخرى ... عندما عاتبنها الجارات والقريبات قالت فى سخرية وتعنّت صارخين « آخ ناقصة عُرضْ والا طول والا زنود ؟ والاّ كتافى خاوية هُوَ ناب الذهب وحدُو يطلّع النهار » .

قال لى سى مسعود السمسار ونحن فى بيته : « حى الرمانة ، أجّرت به بيتاً منذ يومين ، حصانك ليس عداء سأدلك على مكان أفضل منه بكثير ، هات بيّض الكف أوّلاً ... طرق سى مسعود الباب الحديدى طرقات قوية.ذكرتنى بنهج الحدادين ثم أعاد الطرق دون انقطاع أو انتظار وهو يقول بصوت مسموع « خالتك الزهرة امرأة طيّبة ستكون أحنّ عليك من أمك » ولم يكد ينتهى من جملته التى ظل يعيدها مرات ومرات وهولا يدرى ، حتى انفرج الباب ومن خلفه برزت امرأة طريّة الوجه لولا بعض التجاعيد حول رقبتها وأخرى تحت عينيها وعلى جانبى أنفها وخديها والتقاء شفتيها ... قالت فى مرح ظاهر : « مرحباً بكم يا سى مسعود » قال وهو يفرك يديه : يا لّه الزهرة ، هذا صالح ، الله يصلح حالنا ، شاب ابن حلال من ضيعة أولاد عامر يعمل بمصنع الأجر يبحث عن بيت للإيجار ، غرفة يعنى ، عند خالة الزهرة إذا تكرمت » . ضحكت الخالة فى زهو حتى بانت بمؤخرة شدقيها أضراس سوداء خاربة ثم قالت : تفضلا . تفضلا .. مالكما واقفين هكذا بالخارج كأنكما أغراب . تفضلا ... « اجتزنا الباب الحديدى إلى بهو الحوش الواسع الذى تتراصف على جانبيه غرف مغلقة كأنها دكاكين هجرها أصحابها .. دخلنا غرفة على أقصى اليمين محاذية للباب الكبير وهى تسبقنا بردفيها النافرين ... قالت بصوت كخوار الأبقار وهى تتلمس الجدار : « بيّضتُها أول أمس ، أُنظرُ الجير ما زال عالقاً بسطحها وزواياها ... هذا سريرك معه لحاف نظيف وغطاء من الصوف ووسادة طرية ناعمة كالحرير ، وهذا كرسى لتضع عليه أدباشك عند النوم ، وهذه مرآة سأمسحها بنفسى الآن ... لا عليك من الغسيل ، أمك الزهرة فى خدمتك إن شاء الله مبارك عليك يا بنى .

لم أدر ماذا أقول : قلّبت بصرى هنا وهناك فى غير حاجة ... تحسست المبلغ فإذا هو شاحب .. سحبت فى تردد بالغ ورقة حمراء عريضة من فئة العشرة وورقتين بنصف حجمها ، ناولتها ثلاثة أرباع وأعطيت الربع الباقى لسى مسعود وشكرته ...

عندما انفردت بى الخالة الزهرة سألتنى — وهى تتربع أمام غرفتها المقابلة لغرفتى — سافرة عن بعض ساقيها — عن العائلة وأملاك الوالد وعن الصابة والقطيع والدجاج والسمن ... أزعجتنى بكلامها لكنى استحسنته فى النهاية إذ لا بد لى أنا أيضاً من استقصاء أخبارها والتعرف إليها ... قلت للخالة وأنا أتعلق بالكرسى لأضعه بردهة الباب : « كأنك تعيشين وحدك يامّه الزهرة ، إذ لا حسّ ولا خبر والبيت ما شاءالله واسع وعريض ؟ » قالت بتنهيدة متقطعة راكدة : « راحو كلهم يا عين أمك » . أردفتُ فى تعجب : إلى اين ؟ قالت فى حسرة : « زوجى رحمه الله » ، أما البنات فقد تركننى بحسرتى وتزوجن بسرعة » قلت بعفوية : لابد أن يكن جميلات يا خالة والا لما خطفوهن هكذا قالت فى انتباه : « ومن عَرفك بذلك ! ؟ » قلت مداعباً : أوَليست أمهن ضاوية جميلة كأنها فى عز الشباب ! » ... ضحكت الخالة وهبت كأنما أصبتها شحنة شديدة الفعل بداخلها ... تسربت باتجاهى فى خطى رشيقة متزنة .. قالت وهى تمسح بيدها على شعرى الأشعث المغبر : خذ لك دوش يا صغير « لا تخش الماء البارد ، إنه منشط للعروق والمفاصل .. احضر نفسك ، عندى لك أكلة لذيذة سنتعشاها معاً . وبالمناسبة سأقدمك لجارتنا ، بختك يا ولد ، إنهن ثلاث « دفازات عجائز » سيقرأن كفك . انظر هناك ، تلك غرفتين محاذية لغرفتى ، لا تخشَ هذرهن ، يخرجن الفجر ويعدن بالليل وسرعان ما يغلبهن النعاس ...

كم هى طيبة وودودة هذه المرأة ! تأنس إلى الناس باختلاف أشكالهم ... حقاً أنها تعاملنى كواحد من أولادها أو بناتها ... تبًا لى من شكاك بغيض ، وماذا إن سألتنى عن أرزاق الوالد والسمن والدجاج .. كل إنسان فى هذه الدنيا يطمع فى ودّ الآخرين وينتظر هدية ملفوفة داخل كيس شفاف أو ورق ملون ، دون أن ينظر ما تحويه ... لابد أن افاجىء خالتى الزهرة فى أول الشهر بجرة سمن صغيرة من الجرار التى تخبئها أمى بالمخزن . أكيد سوف تفرح الوالدة لمجرد سماعها بخصال هذه المرأة النادرة . انها لن تمانع ولن ترد طلبى . وأبى هوالآخر لابد أن المرتب الأول يغنيه عن اى تعليق ، أوَ لم يعط بنفسه جرتين لخالى ليعطيهما بدوره لنائب المدير ...

كل هذه الشوادر والأفكار كانت تجول بخاطرى اثناء القيلولة وانا مستلق على السرير بعد أن القيت على جسمى سطلاً من الماء البارد وسط المرحاض ... بدت الغرفة واسعة كالمحيط ... يبدو انى غفوت لحظة أو ربما أخذتنى بعض الأحلام الضبابية إلى أماكن او اشياء أود أن القاها .

الباب يفتح فجأة بهدوء ، تظهر من خلفه فتاة كصورة جميلة يتخللها سراب .. تمدّ يديها كشمع سائل .. اهبّ إليها بحركة بطيئة كأننى خائف استعجال اللذة ، فإذا الخالة الزهرة تشد على يدى بقوة وهى تبتسم وتغمز بعينيها .. قالت برقة لم اعهدها فيها « كنت نائماً ياعزيزى ، سهرتك طويلة .. لا بد أنك رأيتنى فى الحلم . اتعرف لشدة عطفى عليك كنت أرقبك من الشباك ... ما لك تهبّ إلىّ يا ولد ، أرمتنى بسرعة .. دعنا من هذا لقد جئت لآخذ رأيك فى ثوبى الجديد .. أترانى لا أصلح له ! . ما الفرق الآن بينى وبين بنت صغيرة ؟ لقد أعدتَ إلىّ شبابى بكلامك الحلو ... انظر السواك فى فمى ... اسنانى تبرق ... ما رأيك بالعين وكحل العين يا ولد ؟ . تكلم يا عين خالتك مالك واجم . » كنت مشدوهاً ... تنبهت قليلاً إلى ما حولى وقلت لها بصوت خفيض متردّد وانا أعرف انها لن تفهم حديثى : « مسكينة أم الهناء يا خالة لقد كانت على حق » .

القصرين / تونس : حسن مشرى الفرشيشى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اصحوا .. اصحوا ياأطفال

يوسف المحيميد

هكذا ياسادتى خرجت ، مملوءاً بالظلمة ، مملوءاً بالفزع . هكذا هبطت الدرج مسرعا حد السقوط ، بسبب الظلام وضيق سقف الدرج . هكذا حنيت جسدى مثلما تحنون أجسادكم لتدرءوا عن انفسكم شر الأسقف الخفيضة . خفضت رأسى ، وراس طفلتى ايضا . كانت الأصوات خلفى . وكنت اتحسس مواطىء الدرج ، فيزداد انحنائى ، وتزداد وحشتى . آه .. ياوحشتى ، وثوبى ، ثوبى الذى ضاق بى . وضقت به ، وشد خطاى الواسعة .

أدركت أننى اتممت نزول الدرج بعد ان شاهدت باب العمارة . هو ليس بابا . بل كُوَّةٌ فى جدار . ارتعدت كثيرا . هجست فى طفلتى الصغيرة ، لن اتركها وحيدة ، فقد تموت . بالتأكيد سوف تموت ، خاصة والأصوات تلف المكان ، وتتسلل عبر الظلام والدرج . قلت لنفسى : لابد أن نموت معا هاهنا . قد يأخذونها بعد ان اموت . سوف احتضنها . بالضبط هذا ما سأفعله . سأحتضنها حتى تتيبس حول بداى ظهرها الصغير .

بغتة ، قررت أن أخرجها من الكوة اولا ، ثم اخرج راسى ويدى ، فصدرى ، وبقية اجزائى . صرخت طفلتى حين اخرجتها : انا خائفة ، لا تتركنى ، ابى اخرجت راسى ويدى . ارتعشت بعد أن احسست وكأن الكوَّة تضيق على عنقى . تخنقنى ، وطفلتى تلتقط عينى اللتين سقطتا ، وتجرى مذهولة فى الشوارع كى ترى . همزت اطراف اصابعى ، فاندفع

صدرى عبر الكوّة . سقطت . رفعت طفلتى . ادارت يديها حول عنقى ، وساقيها العاريتين تشدان خاصرتى . صرت أركض بشدة ، وخطاى متقاربة جدا . ضقت كثيرا بثوبى الذى ضاق فجأة ، فعاقنى كثيرا . كنت معاقا وخائفا . ظلام لم أصادفه فى حياتى يغمر المكان ، والسيارات الساكنة على جانبى الشارع سوداء ، كأنها عفاريت ، وقطط تتقافز من توابيت ضخمة تشبه صناديق قمامة ، تتخاطف امامى ، وصراخ طفلتى يرتفع : أبى ، القطة السوداء تأكل رجلك ، تعضك ياأبى كنت أسمع اقداماً كثيرة تركض خلفى مباشرة ، حتى لقد شعرت بحفيف الأثواب الواسعة تلامس كعبى ، واللهاث أحسه ينهش اذنى . كان الشارع أسود ضيقا ، والسماء خفيضة . السماء نازلة فى الشارع ، مثل صخرة ضخمة تضغط على جمجمتى وجمجمة صغيرتى ، والشارع صار محشورا بالبيوت . البيوت التى مشت نحو بعضها ، وتقاربت . تحركت حتى ضاق الشارع ، فشعرت بالدم ينز من مرفقى اثر كشط جدران البيوت لهما ، وجمجمة صغيرتى تتلقفها الجدران ، وتنبت فيها نتوءات وصراخ طويل ، ومفزع . كنت أركض مسكونا بالخوف ، وعيناى مشدودتان بذاك الوميض البعيد فى طرف الشارع ، ذلك الذى يشاغلنى ويجذبنى من ياقتى ، وطفلتى مذهولة : أبى ، اسرع قبل أن يأكلوا رجلك ،انظر النور يؤشر ، الحق بالنور ياأبى . بدأ يشتد ركضى وهجسى فى اللحظات القليلة الماضية مع الرجل الضخم ، القوى ، الذى استدعانى ، واجلسنى وطفلتى بجواره . كانت غرفة فسيحة بيضاء ، لها نافذة تطل على الشارع . كان يسألنى . كان يستجوبنى ، وكنت أجاوبه مكرها . بدأ أطفال كثيرون يدخلون الغرفة البيضاء . لهم وجوه مشرقة وحيوية . اصطفوا على الجدار الأبيض . صاروا يحدقون فى بياض الغرفة ، وفضائها المتسع . كانو صامتين ، رغم أن بعضهم يغرز فمه الصغير فى أذن جاره ، ويهمس ، ثم يعود الى جلسته السابقة ، حتى دخل طفل جديد ، يبتسم ويناغى الأطفال المصطفين . بدأ يحبو حتى توسط الغرفة البيضاء . أدار وجهه ناحيتنا ، والأطفال . صار يهذى بأنصاف كلمات غير مفهومة . يدور حول نفسه . يصفق يناغى بنشوة مذهلة ، حتى إن بعض الأطفال بدأوا يضحكون ويجهرون بالقول ، فأحس الرجل بالتلاشى ، مما دعاه الى التحديق بهم بحدة ، ليتسللوا خارج الغرفة ، مخلفين وراءهم طفلا يحبو ، ويلتف حول نفسه مزهوا . صرخ فيه الرجل ، لكنه ناغاه بهدوء . قام الرجل ، فلمس رأسه السقف ، لدرجة أنى لم أعد أميز إن كان طويلا ، أم أن السقف صار خفيضا . التقط الطفل من عضديه الصغيرين ، متجها به نحو النافذة . لم يجدها . ليس هنا أية نافذة . فقط جدران قصيرة ، وسقف مخيف . أسقط الطفل من بين يديه ، وجلس . وما ان استوى الطفل على الأرض حتى وقف ، ومشى خطوات صغيرة . مرتبكة . فخرج من الغرفة منتشيا بالخطوة الأولى ، مصحوبا بالخوف والزهو معا .

نظر الرجل الضخم نحوى . كنت صامتا . لمح طفلتى تستند بجوارى ، وتعبث بصدرى . زعق : اخرجى . صرخت : لا .كرر . رفضت بشدة . جُنّ ، أمسك طرف فستانها المشجر . شده بقوة ، وتشبثت هى بذراعى العارى . بدأت الغرفة تضيق حتى قفزت مفزوعا ، محتضنا طفلتى ، والدرج يضيق ، والباب / الكوّة ، والشارع / السرداب ، والفتحة الصغيرة فى آخره ، والوميض / النجمة فى آخره ، والمدينة التى أرسلت بيوتها ، فضاق الشارع بها ، والسماء التى تركت أعمدتها وهوت فوق أسطح البيوت ، أو أقل قليلا . كانت تطبق على رأسى ، وصغيرتى . أركض ممتلئا باللحظة والحلم ، والوميض يكاد يلامس ثوبى ، وينزع منه الضيق والموت . وصلت آخر الشارع / السرداب . خرجت من فتحة ضيقة . كان شارعا واسعا . هادئا ، والفجر يدق الأبواب ، ويبلل القلب . كانت السماء واضحة ، وبعيدة ، وهناك فى البعيد نجمة ، وغبش . جلست مع طفلتى على حافة رصيف تظلله الأشجار والصحو . رغم إننى لم أسمع شقشقة العصافير أو صياح الديكة بعد ، فاننى سمعت صوت طفلتى النحيل ، وهى تتقافز على الرصيف ، بشريط أبيض يعقص شعرها ، وتنشد :

صاح الديك فوق السور ... كو كو كو كو بان النور
اصحو اصحو يا أطفال ... جاء الصبح بالاقبال

الرياض : يوسف المحيميد

المسافر

محسن الطوخى

محطة السكة الحديد ، خالية تماما إلا من الجمادات . حتى صوت صرصور الليل المزعج ، اختفى ذاك المساء ، برودة الليل تتكثف ضباباً ثلجياً بالقرب من سطح الأرض ، مصباح وحيد يصنع مخروطاً من الضوء يسقط جانب منه على رصيف المحطة ، وينعكس الباقى على الأسطح اللامعة للقضبان المتوازية فتبدو كشريط فضى فى الممر المظلم بين الرصيفين .... لا شىء يتنفس بطول المحطة الغارقة فى الصمت .

عندما اهتزت شرائح الحديد المدلاة من بوابة المزلقان أحدثت صوتاً متناغما . كان بوسع هذا الصوت أن يكون مسموعاً ـ فى الهدوء الراكد ـ عند الطرف البعيد من رصيف المحطة .

كانت ذراع «ابو شادى» هى التى دفعت الشرائح المعدنية وبرزت أولاً .. ثم تلاها الكتف والراس . توقف لحظة بعد أن عبر البوابة ليقيم جذعه الحر . ثم شرع فى السير نحو الدرج المؤدى إلى رصيف المحطة . لم يكن فى الإمكان رؤية «أبو شادى» بعد . فالظلمة فى مربع المزلقان داكنة تماماً . إلا أن ذلك لم يعقه . فهو يعرف كل التفاصيل الأرضية للمكان . تعالى صوت ارتطام قدميه بالأرض ، آتياً من قلب الظلمة ، قبل أن يظهر بجرمه الضئيل ، فى الضوء الذابل على مشارف الرصيف ... جمد فى مكانه عندما لاح له الشخص الحليق يقف على حافة مخروط الضوء ، لا يبين منه إلا خطوطه الخارجية .. عرفه على الفور ، على الرغم من طول العهد بالمرة الأخيرة التى راه فيها ، فى نفس البقعة ، ونفس التوقيت ، ولم يكن يشبه فى شىء الأشخاص الليليين ... فقد كان «أبو شادى» لتمرسه الطويل على ارتياد المحطات فى ساعات متأخرة من الليل ـ معتاداً على نمط السلوك الطبيعى للأشخاص الليليين .

يقفون وحيدين ، ينتظرون شيئاً ما ، تلتقط اذانهم المرهفة عادة صوت خطواته قبل أن يشف الضوء عنه . ويبدأون فى التحرك تجاهه ببطء ، قبل أن يتمكنوا من رؤيته ، وبمجرد أن تسمح المسافة ، يبادرون بإلقاء التحية . ثم يبدأ الواحد منهم فى الحديث عن اى شىء .. يقول مثلاً «ما أقسى برد الليلة» وحالما يعرف الواحد منهم أن «أبو شادى» بسبيله إلى مغادرة رصيف المحطة من الاتجاه الآخر قاصدا الورش حيث القطارات على اهبة الاستعدادا للتحرك عند الفجر يقيس واحدهم المسافة المتبقية حتى الدرجات الحجرية فى طرف الرصيف البعيد ويروح يعطله فى وقفات قصيرة كل بضعة أمتار بجذبه رفيقة من الكم أو بمجرد الاستمرار فى الحديث عن شىء ما ... أما إذا تصادف واكتشف الشخص الليلى أن «أبو شادى» يقصد نفس القطار الذى يزمع هو ركوبه فغالباً ما يتابع السير معه إلى الورش ويعاونه فى التفتيش على

الخزانات ومولدات الطاقة ، والأبواب وأجهزة القيادة ، وربما شاركه فى تناول لقمة قبل أن يبزغ ضوء النهار .

حكايات وحكايات اختزنتها ذاكرة «أبو شادى » من أفواه الناس الليليين ، فى الليالى القمرية ، والليالى حالكة الظلمة ، فى أمسيات الصيف ، وديا جير الشتاء . إنما «لكل شىء نهاية » يقول ذلك لنفسه وهو يحكم قبض أصابعه على المظروف الحكومى الذى حمل إليه صباح اليوم ، الإخطار بإحالته إلى التقاعد .. لطول القبض على المظروف ، سرى الخدر فى ظاهر الكف والرسغ وفقدت أنامله الإحساس بملمس الورق الخشن . وبالرغم من تعمده صرف ذهنه إلى أشياء وأشياء كان قد نسيها ، إلا أن شخصاً ما كان يجلس هناك ، فى الجزء غير الواعى من عقله يردد منذ الصباح :

« نشكرك على ما أديت من خدمات للمصلحة »

راح يفكر بالجزء الواعى وهو يدب بقوة على الرصيف المظلم فى أن كل ليالى المحطات الموحشة تكون باردة .

كان المسافر ما يزال يقف على حافة مخروط الضوء غير منتبه لاقتراب« أبو شادى » حتى بعد أن أضحت المسافة بينهما أمتاراً قليلة ... حاسة خفية عادت تعمل لدى العجوز . بذل جهداً ليلقى بالتحية بصوت عادى .. خيل إليه كأنما المسافر جفل قليلا .. رف قلبه بقلق مبهم قال :

— أنت تقف على الرصيف الخطأ .

جاوبه الصمت الثقيل عاد يقول

— عندما يقبل قطار الفجر سيتوقف عند ذلك الرصيف هناك .. عليك أن تعبر إليه خلال النفق .

اتجهت عينا المسافر إلى حيث أشارت يد« أبو شادى » دون أن يغير من هيئته . أطلق عصفور من مكان ما صرخة فزع .. لعلها بومة .. قال« أبو شادى » :

— سوف أقود قطار الفجر . أنا أفضل قائدا للقطارات فى المصلحة كلها .. أنت فى انتظار قطار الفجر أليس كذلك؟

أومأ المسافر وركز نظرته فى وجه العجوز . نظرة بدت أشبه بالضباب . تحرك« أبو شادى » خطوتين ثم توقف :

— تستطيع لو أردت أن تأتى معى إلى الورش .. يمكنك هناك أن تنتقى العربة التى تفضلها . بل والمقعد أيضا برويّة .. ليس أفضل من الحركة علاجاً للبرد .

حول المسافر نظرته الضبابية بعيداً . لم يبد غريباً لأبى شادى ركونه إلى الصمت .. قبضت أصابع ثلجية على قلبه وهو يتحول عن المسافر :

— لا ترغب ؟ هه .. علىّ أن أمضى .

تحرك مبتعدا ببطء شديد .. كان وقع خطوه قد صار بلا صوت وهو يغوص تدريجيا فى الظلمة .

نفس الرأس الحليق والذراعين المعقودتين خلف الظهر ، على حافة مخروط الضوء ، والصمت المطبق ، كل مرة نفس الصمت المطبق .. توقف أبو شادى والتفت ثم عاد فتابع السير . كرر ذلك عدة مرات ، وعندما صار على مقربة من نهاية الرصيف خفق قلبه من المباغتة للحظة واحدة ، عندما أدرك أن المسافر الغريب قد تحرك فى اتجاهه . أقام جذعه بيديه ودفع صدره ، وعاد لخطواته وقعها العالى .

دس العجوز يده فى ذراع المسافر وخلّفا الرصيف وراء هما .

— الورش لا تبعد كثيرا . دقائق خمس . ضع قدمك على الفلانكة تماما ، الحصى بين الفلنكات ملوث بالزيت والشحم .

قال المسافر دون أن ينظر إلى وجهه :

— أعرف هذه الأماكن . يكتسى القلب بالأسى عندما يدرك الإنسان ما للنسيان من سطوة ... لقد أهملت نفسك كثيرا .

— لم يجانبك الصواب . ولكن من أين لك أن تقطع بذلك ؟

— هو حدس . فهيئتك ـ معذرة ـ لا توحى بأفضل قائد قطارات .

— أنت لاتبدو كمن يعطون أهمية للمظهر . ما اسمك ؟

برقت عينا المسافر بابتسامة ما كرة :

— عبد الشافى .

انتبه « أبو شادى »

نشكرك على ما أديت من خدمات للمصلحة

— إنى أحمل شهادات تقدير .. نادنى عمك« ابو شادى » .. الله المعوض أعطانى عوضاً عنه رجالاً ثلاثة ، لو عاش«شادى » لكان اليوم فى مثل عمرك ، كانت بشرته تطفح بحمرة الدم ، ووجهه كفلقة القمر ، ولد ابن موت ، ثلاثة رجال وامرأة يدبون فى الحياة صحيح أنهم لا يذكروننى إلا نادرا ، ولكن أنت لا تدرك مقدار سعادتى وأنا أتنازل لأحدهم عن كل ما فى جيبى من قروش ليفكّ أزمة .... اعتقدت أن المدرسة مفسدة للأولاد ، ومضيعة للوقت ، ولكنهم هم لم يفلحوا فى مهنة .. لو افلح حتى واحد منهم .. الله المعوض،يكفى أنهم يدبون فى الحياة . نحن لسنا فى عجلة . هه؟

— لا بد أن زمناً طويلا قد مر . لكم يبدو طويلا عمر الإنسان عندما ينتهى كل شىء ، المشكلة أنه يلزم كثير من الوقت لكى يدرك الإنسان أن المسألة متشابهة فى جميع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأزمنة ، إنما الزمن الذى يأتى فيوحد كل الألوان والأصوات هو الزمن الذى يكشف لك عن الحقيقة .

ـــ أنا لا أفهمك ، لكن لا بأس . انتظر فقط حتى تسمع الآلة تدور ، سيدب فيك النشاط ، لا ينسى الإنسان أبداً كم هى شائقة قيادة القطارات ، أن تشعر بالآلة الجهنمية التى تنفث النار والدخان تلين تحت يديك ، تطيعك . توقف الرجل برهة لا لتقاط أنفاسه :

ـــ لا عليك ربما أمكننا أن نعلمك كيف تقود القطارات .. سترى كم هى تجربة شائقة . أن تنطلق بالسرعة القصوى ، فوق خط قد تحدد سلفا .. لكننا لن نمر من البوابة .

ظهرت البوابة الحديدية فى ضوء النجوم الشاحب إلى اليسار .. فوق الأرض بين شريطى السكة الحديد بقايا شذرات من نار يتكوم إلى جوارها جسد ضئيل للحارس الليلى ملفوفاً بمعطف من الصوف الخشن .

انحرف « أبو شادى » يميناً متأبطا ذراع« عبد الشافى » فى حرص مبتعداً عن القضبان التى تنتهى عند البوابة وسارا بحذاء السور ، كانت قامة« أبو شادى » مستقيمة وكأنه نسى أن الروماتيزم أبقاه محنياً طوال السنوات العشر الأخيرة :

ـــ سوف ينهض الحارس ويتساءل ويكون علينا أن نجيب على أسئلة كثيرة من أين والى أين ؟ وربما تواريخ الميلاد ، وأقرب الأقارب .

لم يشف وجه عبد الشافى عن ابتسامة

ـــ وسيكون علينا أن نجد مبرراً لوجودك .. أعرف طرقاً أخرى بديلة ، لا تحْمل هماً . أعرف كل الثقوب فى أسوار الورش حتى فى الظلام ، أنت كذلك تعرف ، الله الشافى المعافى لكن قدميك ليستا مدربتين ... ستجد أنها عملية مثيرة .. قيادة القطارات . من بعيد ظهرت أشباح القاطرات الرابضة ، كتل داكنة من خلال ثغرة فى السور المتسخ ، عبر « أبو شادى » متمسكا بذراع« عبد الشافى » .

ـــ ها هى القاطرة .. انتظر حتى نقترب منها . إنها شىء لا مثيل له .. لا ينسى الإنسان ذلك أبدا .. عندما تدور .. ستدب الحركة فى هذا المكان الميت . لكننا لن ندير القاطرة الآن ، هذا آخر ما نقوم به ، إنك تفهم هذا ، علينا أولاً أن نحول بعض القضبان ...

ـــ أنت لم تعش كثيرا فى المدينة .. أستطيع أن أؤكد ذلك .. بإمكانى أن أميز أهل هذه المدينة من بين كل المدن الأخرى التى أمر بها ... كنت سائقا لا يبارى .

ها هى الرافعة ، ظللت أفعل ذلك لثلاثين عاما ، عندما ترانى وأنا أحول القضبان واسير طوال اليوم متوكئاً على تلك الرافعة ، لا يمكنك أن تذكر ذلك السائق الذى كان يفزع الدنيا بهدير قطاره ... طويل جداً عمر الإنسان .. أشياء كثيرة يفعلها الإنسان خلال عمره .

دس « أبو شادى » طرف الرافعة بين القضبان فى مكان التحويلة . ولم يكن يستطيع تحريك القضبان دون معاونة« عبد الشافى » ... لم يعد وجه« عبد الشافى » متجهماً وضاقت النظرة الضبابية فأصبح ينظر مباشرة إلى عينى « أبو شادى » .

ـــ هل أنت واثق أنك تفعل الشىء الصواب ؟

ـــ ماذا تظننى كنت أفعل طوال ثلاثين عاماً ؟ هل تظن أن الأمر اختلط على ؟ما زلت أعى وأذكر كل شىء ، تلك الخطوط تؤدى كلها إلى مسارات مفتوحة ـ يمكنك أن تنطلق فيها دون أن يعوق انطلاقك شىء ، كثيرون من سائقى القطارات لا يعرفون الكثير عن هذه التحاويل المعقدة لكنى أحفظها عن ظهر قلب . لقد تربيت هنا . أكاد أكون مولوداً فى هذا المكان .. اقبض بشدة .. انتظر حتى أبيِّت الرافعة فى المكان الصحيح هذه الأشياء غاية فى الدقة ، بخلاف ما قد يبدو لأولئك الذين اعتادوا قيادة القطارات فقط دون أن يشغلوا أنفسهم بالتفصيلات . الآن اجذب بشدة ... ها هى قد تحركت .

ألقى الرجل بالرافعة .

ـــ علينا الآن إنجاز ما بدأ ناه .

دس يده فى ذراع عبد الشافى وسمح لنفسه بأن يجذبه قريباً منه فى ودّ حميم واتجها صوب القاطرة .

ـــ أنت لا تخاف المحطات .. قليلون هم الذين لا يخشون ارتياد المحطات ليلاً . أتزمع ركوب قطار الفجر ؟

ـــ ربما .. لا بأس بقطار الفجر

بدا ظل ابتسامة شاحبة ، تهللت أسارير أبو شادى ، قال « عبد الشافى » :

ـــ يسافر سائقو القطارات كثيرا .

نظر« أبو شادى » بتوجس ، أردف عبد الشافى :

ـــ لكل سائقى القطارات مغامرات صغيرة .

ـــ كانت هناك مغامرات بالطبع . قضيت شبابى كله أجوب البلاد البعيدة ، كنت فتى وسيما ، لم تكن تستطيع أن تنظر فى عينى طويلا ، وكنت أقود الآلة بعزيمة .. كانت النساء فى جميع القرى وعلى حواف جميع الترع يعرفن صوت قطارى وأنا اقترب ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ماذا فعلنا بأيام الشباب ؟ أين راح الحلم ؟ ما ان يبدأ الحلم يتشكل ، حتى تذكر العيال ، فتعود الألوان لتحتل نفس المساحات التى هجرتها سلفاً ، وتفقد الأشياء من جديد سحرها الخاص ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتعود نفس الدنيا المرة ، عندما لا يبدو هناك ما يساوى إسعاد طفل او إرضاء امرأة ، حيث لا أمل .أى أمل !

ـــ ها انت تتحدث بالحكمة ، كان أبى يتحدث هكذا فى أيامه الأخيرة ، ما الذى يجعلنا لا نفكر فى الشباب الا حينما يكون ابعد من أن تطوله الذاكرة ؟ أنت اكثر شبهاً به منه نفسه . زاويتا الشفتين فقط أكثر انحرافاً ، والمزاج ، كان هو عدوانيا ، أنت تبدو مسالما .رفع« أبو شادى » قامته بصعوبة ونظر بتوجس فى عينى« عبد الشافى » ثم شرع فى تسلق الدرج الحديدى الى كابينة القاطرة . غمغم يحدث نفسه .

ـــ من لا مكان وإلى لا مكان ، تتساوى كل الأمكنة فى نهاية الأمر . رفع صوته :

ـــ انتظرت طويلا ، بهمٍّ مقيم ، ان يأتينى الموت فى الفراش ، هراء أن تهرب من حلمك : لن يفتأ يجدك ، هل كنت استطيع ان أموت وحيداً مبعداً عن القطارات ؟ ثلاثون عاماً ، يارب يارحيم ! هل تدرى معنى أن اظل ثلاثين عاماً دون أن اقود قطارا ؟

كان الحوش المترامى ، يرقد تحت عباءة من الصمت الثقيل « وأبو شادى » الذى اكتسى بالجد يعالج مفاتيح القاطرة .

ـــ سوف تستعيد الآن كل شىء ، تلك المتعة التى تشملك وانت تقود آلة تمرق وفق خط سير محدد سلفاً ، لا يكون عليك إلا ان تدع الآلة تركض بأقصى سرعة وانت واثق الا شىء يعوقها ، ولن يتبقى معنا فى اللحظات الأخيرة سوى تلك المتعة الخارقة التى مارسناها يوماً ما .. اضغط هنا .. ها هى دارت .

كنت أعرف أنها ستدور ، إنك لا تنسى أبداً قيادة القطارات ، أنت لم تر بعد هذه القاطرات الحديثة ، لم تألف إلا القاطرات البخارية العتيقة ، كنت واثقاً من انها كلها تدار بنفس الطريقة .. آلات قوية .. ترتل ببطء ، لكنها تفور بالقوة الطاغية وتنطلق كالسهم هيا بنا لن ننتظر طويلا ، سيهرعون الآن من كل حدب وصوب ، اجذب الآن تلك الذراع .

انتفضت القاطرة بعنف غير متوقع فارتطم جسد « أبو شادى » بجدار الكابينة . اعتدل بهمة وقد استخفه الطرب .

ـــ ستقوم أنت بالأمر كله .. اجذب الذراع أكثر ، بقوة أكثر ، أضىء الآن المصابيح . بزغ الضوء مميطاً اللثام عن الدنيا الغافية ، تدفق شعور بالنشوة إلى قلب الرجل ، بينما القاطرة تكتسح البوابة الحديدية فى اللحظة التى عبرت فيها القاطرة رصيف المحطة ، خيل للعجوز أن شخصا حليقاً ما يزال يقف تحت مخروط الضوء .. دار بعينيه فى فراغ الكابينة ، بينما استماتت يده على الذراع يجذبها بجماع قوته ، وعند أول منحنى غادرت القاطرة القضبان واستقرت فى حقل قريب .

إلى جوار القاطرة المحطمة التى كانت ما تزال تنفث الدخان عثر الفلاحون البسطاء الذين هرعوا الى مكان الحادث على العجوز ملقى على وجهه فى الطين المبلول وكان يردد قبل أن يلفظ أنفاسه بصوت واهن :

ـــ حمدا لله لقد قام وحده بالأمر كله . حمدا لله .

الاسكندرية : محسن محمد الطوخى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سيد أحمد الوكيل

لا أعرف كيف أثار انتباهى فى جلسته المسترخية . لم يكن مغمض العينين تماماً . كانتا تبدوان كعينى قط فى لحظة إغفاء تتحركان بسرعة بينى وبين صديقى الذى كان متحمساً فى كلامه ، مُمسكاً بذقنى بين لحظة وأخرى مردداً :

ـــ هه .. انت معى ؟

ربما كانت هذه عادة سيئة فيه ، لكن طريقته فى الكلام ـــ حقاً ـــ تستحق الاهتمام . كان يتكلم بيديه وعينيه وبكل حواسه . أما كيف انزاح من بؤرة شعورى وتربع هذا الرجل مكانه ، فهذا ما لا اعرفه . لكننى اعرف ان هذا ما حدث بالضبط ـــ بعدما اخبرنى صديقى بأن محطته هى القادمة .

ـــ هه .. انت معى ؟ والله كانت ايام حلوة .. على فكرة .. الرتيب بركات ساكن بجوارنا .. احاول ، لا استطيع ، رغماً عنى انظر إليه . تدهشنى حركة عينيه القطيّتين بينى وبين صديقى . تغيظنى ملامح وجهه المتجمد وراسه الدقيق الملقى ببساطة على مساحة « الفورمايكا » الباردة وبجوار النافذة المكسورة .

من جديد أمسك بذقنى :

ـــ هه .. ما رايك ؟ انت معى ؟

ـــ آه .. نعم .. عندك حق .. عندك حق .

قلت متحسساً جلد ذقنى الملتهب وعيناى تحدقان فى الرجل الذى بدا متماسكاً مع حافة المقعد فى خفة ، مادا ساقيه على آخرهما ، ربما أيقن صديقى ان لا فائدة من التكلم ، او ان محطته قد اقتربت بما فيه الكفاية . ضرب بكفيه على فخديه فى ارتياح ، وانتصب واقفاً يتمطى ناثراً حولنا مزيداً من الملل . وفى الحال ، لمّ احد الواقفين نظراته السارحة عبر النافذة ثم مال بكتفه وانحشر فى مكان صديقى الذى مد يمناه مصافحاً بينما يسراه قابضة على « الهاندباج » . رايت انه من باب اللياقة ان اصافحه بحرارة وأبدى الأسف على الأيام الحلوة التى ذهبت مع تسريح الدفعة ، وعندما ابدى استعداده لتقبيلى قُبلته ، وربت كل منا على كتف الآخر :

ـــ ارجو ان لا تكن معرفة « قروانة » .

تابعته بعينى . عند الباب . تلاشى فى زحام الصاعدين والنازلين .

هذا الرجل مرة أخرى فى مواجهتى تماماً ، بينى وبينه النافذة المكسورة . فى معطفه العسكرى القديم ، ويداه معقودتان فوق صدره فى علو وهبوط ببطء كئيب ، وساقاه ممدودتان تحت مقعدى . فجأة خيل إلىّ بأنه يبتسم ، حتى ابتسامته غريبة كهيئته ، متجاهلاً رحت اتابع الصور المتحركة بسرعة مضاعفة من خلال النافذة ، يصفع الهواء البارد وجهى ويدمع عينىّ ، احسست راسى كرة من ثلج ، غصت فى مقعدى وملت براسى بعيداً عن النافذة . مغمض العينين تماماً ، مستسلماً لصوت العجلات الرتيب والارتجاج المتتابع . تطوف بى صور ضبابية خاطفة عن كلام صديقى

وأيام التجنيد التى انتهت اليوم فقط . ياه ! حلم طويل وانتهى ، بمجرد نزولى من القطار أبدأ حياة جديدة . لماذا القلق إذن ؟ أليس المستقبل بيد الله ؟ فجأة قفزت أمامى صورة الرجل . حاولت إقصاءها لكنها أبت . أحسست به يفتح عينىّ ، وعندما فشلت فى إبقائهما مغمضتين رأيته فى جلسته مازال يبتسم . وهكذا بادلته الابتسام دون أن أدرى لذلك سبباً . هز رأسه فهززت رأسى ، ثم بدت ملامحه أكثر بشاشة عما قبل . إذن هذه التقطيبة وهذا الجمود ليسا إلا ردًّا لفعل الهواء الثلجى المندفع من النافذة المكسورة إلى وجهه تماماً . اعتدل فى جلسته على غير توقع مفسحاً لساقىّ مكاناً لأمدهما على راحتى ، عندئذ اكتشفت أننى انتهيت إلى جلسة تطابق جلسته . مرة أخرى هززت رأسى شاكراً وابتسمت فمال برأسه ناحيتى وقال بصوت مهذب :

ـ أعتقد أننا تقابلنا من قبل .

فكرت للحظة

ـ ربما .. لكننى لا أتذكر .

ـ أنت من طنطا ؟

ـ لا .. أنا من الإسكندرية .

قلتها بسرعة ، شاعراً بالراحة ، منتظراً خيبة الأمل فى ملامحه ، لكنه قال دون انفعال :

ـ ربما فى الجيش . أنا كنت فى سلاح الإشارة ، وأنت ؟

مندهشاً قلت :

ـ وأنا أيضاً كنت فى سلاح الإشارة . سُرِّحت اليوم فقط .

لمعت عيناه وامتدت ابتسامته حتى غطت كل ملامحه . أحكم معطفه فاعتدلت فى جلستى ولاحظت أن عينيه أكثر براءة مما توقعت . وعندها بدأ يتكلم بيديه وعينيه وكل حواسه :

ـ أنا كنت فى الكتيبة السادسة .

ـ وأنا كنت فى الكتيبة التاسعة .

ـ إذن .. تعرف الرقيب بركات .

ـ انت تعرفه ؟

لا أدرى كيف انتقل بنا الكلام عن قسوة الحياة العسكرية إلى مشكلة العمالة الزائدة ، وعدم وجود فرص عمل للخريجين ، وارتفاع الأسعار ، واتفقنا على أن الحل الوحيد هو السفر إلى الخارج .

أنهى كلامه براحة كبيرة :

ـ اتفقنا إذن ؟

رددت :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ اتفقنا .

وكنت لا أعرف كيف اتفقنا ، فأنا لا أومن بالحلول الفردية .

عندما هدأت سرعة القطار أيقنت أننا ندخل محطة جديدة . لم أهتم ـ فمازالت الساعات طوالاً إلى محطتى ـ لكنه ضرب على فخديه وقام يتمطى . لا أعرف كيف جاء هذا محبطاً إلى بطريقة ما . عدل من معطفه ، ونفض عن وجهه ملامح الرحلة . عندما مد يده لمصافحتى خجلاً قال :

ـ هل أعترف لك بشيء ؟ .. أنا لم أدخل الجيش أبداً .

مبتسماً قلت :

ـ كنت أعرف

ظللت أتابعه عند الباب حتى تلاشى فى زحام الصاعدين والنازلين .

كان الذى انحشر فى المقعد بدلاً من صديقى قد تزحزح إلى جوار النافذة ـ فى مكان الآخر الذى نزل لتوه ـ فى مواجهتى تماماً جلس . وكنت طارحاً رأسى إلى الوراء ، أتابع صوت العجلات الرتيب ، مستسلماً للرجرجات . أحكمت ردائى ومددت ساقى على آخرهما حتى أصبحت متماسا مع حافة المقعد . لم أكن مغمض العينين تماماً عندما قلت لنفسى إنه ينبغى على أن أقاوم الملل وأطرد عنى هواجس القلق . فرحت استرجع كلام الرجل وطريقته المقنعة . أعترف أننى كنت مخطئاً عندما اتفقت معه . مبرراتى معقولة . كان يجب ألا أتفق معه . ليته موجود الآن ـ بشحمه ولحمه ـ لأقول له : أنا لا أتفق معك .

كان الجالس أمامى منغمساً فى الجمود ، رأس مستسلم ونظرات باردة . ملامح متورطة فى الملل بين المقاعد . وجدتنى أبتسم ، فابتسم . عدلت من جلستى معطياً له الفرصة ليمد ساقيه على راحته . هز رأسه شاكراً . هززت رأسى فعاود الابتسام . ملت برأسى ناحيته ، قلت بصوت مهذب :

ـ اعتقد أننا تقابلنا من قبل .

ـ ربما .. لكننى لا أتذكر .

ـ أنت من طنطا ؟

ـ لا أنا من منوف .

ـ ربما هناك .. لى أصدقاء فيها .. أنت تعرف محمد المنوفى إذن ..

ـ أنت تعرفه ؟

لا أدرى كيف انتقل الكلام بنا عن سوء الحياة فى القرية ، وضياع خيرها وبوار الأرض الزراعية بعد سفر الفلاحين إلى الخارج ، وانتهينا إلى أن العودة إلى الأرض هى الحل .

عندئذ انهيت كرمى :

ـ اتفقنا إذن .

ردد .

ـ اتفقنا .

عندما هدأت حركة القطار مددت يدى ، صافحنى بحرارة ، وكنت أنظر فى اتجاه الباب حيث يتزاحم الصاعدون والنازلون .

القاهرة : سيد أحمد الوكيل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بدون أهداف

نعمات البحيرى

عادة قبيحة أمزق بها صمت وحدتى ، أفتح الراديو وأتركه ، يظل يهدر فى البيت حتى أفرغ من ارتداء ثيابى ثم أنزل إلى العمل ... لولا ناقوس الفقر ما استيقظت فى مثل هذا الوقت من الصباح .

كنت أغسل وجهى حين تسارعت نحو أذنى أخبار غير سارة وانقطع سرسوب الماء فأكملت بماء من الثلاجة ، أدهشنى صوت الماء المندفع من الحنفية .. كان قوياً وغزيراً ..

انطفأ فى وجهى ذلك الوهج الذى أفرح له مع الصباح حين سمعت المذيع يسعل سعلة خفيفة ثم يقول الخبر . أدرت المؤشر وكان ثقيلاً فإذا بمذيعة رقيقة صوتها يبعث على النوم والاسترخاء تقرأ نفس الخبر ، ليس مقصوداً منها ازعاجى هذه المرة فأغلقت الراديو ، لكن الصوت لم يهدأ فقد كان راديو الجيران يلقى فى حجرتى بنفس الخبر .. ليس مهماً ، فقد فرغت تماماً من ارتداء ثيابى وأنا أفكر فى شراء ثوب آخر غير هذا الذى أرهق عيون زميلاتى بالمكتب ونبهتنى إحداهن ذات صباح قريب .. فتحت باب شقتى الصغيرة واستدرت .. قلت للراديو .. « البيت وبيوت الجيران والدنيا لك » ثم أغلقت الباب بالمفتاح لكن الصوت لم يهدأ .

وفى الشارع وأنا اتفادى أن تغرز قدمى فى الرمل الذى أتوا به لإنشاء حديقة أمام البلوكات وخلفها ، ولم يحدث ، سمعت امرأة تفتح شباكها وفمها وتهمس لأخرى بالخبر ، تجاوزت الرمل المبلول ووقفت بجوار بائع الجرائد ، يثبتها الرجل ببعض الأحجار حتى لا تتطاير ويكف الناس عن ممارسة طقس يومى ممل ، تماماً كغسيل الوجه وفتح النوافذ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للشمس الشاحبة وفتح الراديو لأى صوت ، أخبرنى الرجل وهو يشرب شايه الثقيل أن سعر الجريدة زاد الضعف ، وحين اقترب منه زميل له قال له الخبر .

جاء الأتوبيس مزدحماً وكئيباً فلحقت به وكابدت حتى ادركت منتصفه وإذا بى بين رجلين ، أحدهما جندى يزاحمنى بجسده اليابس وعينيه الشبقتين والآخر ملتح يمسك مصحفاً وسط الزحام ويتلو آيات قرآنية تخللتها نظرات إلىّ واستغفارات كثيرة نائياً عنى بجسده ، وانا اتباعد عن الأول فيتباعد عنى الثانى . لم أعرف ما الذى حرك فى جوفى رغبة شديدة فى التّقيّؤ .. الكمسارى البدين ، يزيد السيارة ازدحاماً . أخذ الجنيه بعد أن تمنع لشدة قدمه ولم يسمعنى حين طالبته بالباقى ، لكن سرعان ما ارتفع بينى وبينه جدار من الأجسام الجافة والهزيلة والبدينة أيضاً . لم يبق إلا أن اتماسك بذلك الحامل الحديدى الذى يمتد بسقف السيارة واطرد عن نفسى ذلك الشعور الذى يصاحبنى دائماً كلما ركبت اتوبيساً هذه الأيام ، أننى سأفقد توازنى فى لحظة وأنهار على الأرض ، غير أن الأجسام المتزاحمة المتلاصقة طمأنتنى قليلاً ..

من النافذة أرى أكوام القمامة بطول الشارع وأتذكر أننى لم أحسب مرة « عند كومة القمامة رقم كم تكون المصلحة التى أعمل فيها ؟ » ضاع بقية الجنيه تماماً فلا أثر للمحصل رغم بدانته ولا يجب أن تضيع المحطة أيضاً ، كنت أوسع لنفسى طريقاً بين الأجسام أنفذ منه إلى الشارع .. الأجسام ثقيلة مثل الوخم الذى أشعر به فى الصباح حين أجدنى مضطرة إلى مغادرة البيت لأسباب لا أراها هامة ، السائق النحيل يحوى فى كابينته فتاة بدينة للغاية تبادله الهمس والضحكات وتخفى اللافتة المعلقة على جدار الكابينة بكتفها والمكتوب عليها « لسلامتك لا تتحدث إلى السائق » .. افتعل السائق فرملة شديدة فمالت الفتاة إليه بجسدها وبانت اللافتة وقالت له الخبر ..

العمارات متشابهة ومبنى المصلحة طويل ونحيف مثل خازوق انغرس فجأة وسط القمامة .. لافتة « معطل » معلقة بعناية على باب الأسانسير مثل الابتسامة على وجه عامله وإعلانان على الجدار المقابل ، أحدهما عن افتتاح محل جديد لملابس المحجبات وآخر عن موت موظف ، يحدق عامل الأسانسير فى وجوه الموظفات المتعبات وهن يصعدن السلالم ثم يقول للبواب الخبر . السلالم متباعدة متآكلة وموظف التوقيع ثقيل الدم ينظر إلى متكدراً وهو يخبرنى أننى بالأمس اضطررته إلى البقاء حتى نهاية اليوم عندما بقيت بالمبنى حتى موعد الانصراف . بحثت عن اسمى بين الأسماء فكلها متشابهة مثل الأيام والسلالم وأكوام القمامة ولا أدرى لماذا وقعت باسمى كاملاً هذه المرة حين سمعت الموظف يقول للساعى الخبر ..

الممر بين المكاتب ضيق جداً ، أحس أنى أسير بين قوسين قذرين حتى أصل إلى مكتبى ، أضع حقيبتى وأطلب الساعى الطيب ليمسح غبار المكتب ويأتى لى بكوب الشاى ، يغضب الرجل كلما طالبته بكوب ماء مع الشاى أو بفوطة يمسح بها غبار المقعد فيخبرنى بأن له أقرباء يعملون بوظائف عالية ، أبتسم وأنظر إلى الغبار المقيم على المكاتب والمقاعد والسقف والأركان وأذهب إلى الحمام القذر ، فأشرب من الحنفية ، الفئران تسكنه حتى فى عز النهار والولائد الصغيرة فى أسفل العلب الكرتونية المكتظة بالأوراق . وحين عدت سمعت الساعى يقول لأحد الموظفين الخبر ..

بعد قليل جاء زميلى الغاضب دائماً والذى يلقانى كل صباح بمر الشكوى من نفقات زوجته لاعناً اليوم الذى تزوج فيه مختتماً لعناته بأن يشعل سيجارة ويشتم نساء الأرض ومن يقول « يا زواج » ثم يطلب شابه ويغطى وجه المكتب القديم الصدىء بالجريدة التى فتحها ثم يشهق وهو يعلن بصوت عال عن مزاد لبيع قصر ملكة سابقة ، تتبعج ملامح وجهه ويقترح على رئيس القسم الذى كان يسأل عن الأجر الإضافى أن يذهبا لحضور المزاد . قبل أن يغلق الجريدة يطفىء عقب السيجارة بحذائه على الأرض وهو يقرأ الخبر ..

يمتلىء المكتب بالموظفين ويبحث كل منهم عن مقعده الذى كتب عليه اسمه وربطه بساق المكتب ورغم هذا لا يجده .

يفتحون الجرائد ويلتهمون الكلمات مع ساندويتشات الفول والطعمية مع الشاى ثم يطلبون موظف التوقيع بالتليفون الداخلى ليرتبوا معه انصرافهم اليوم مبكراً للذهاب إلى المباراة . يخلو القسم إلا من زميلتى البدينة ، التى تناولت أرغفتها ضمن إفطارها اليومى وهى تصب غضبها على ابن الكلب الذى تزوجته وأنجبت منه كلاباً صغيرة تشبهه تماماً .. تمسح فمها بصورة أحد المستندات وهى تحدق فى الجريدة مندهشة وتقرأ الخبر .. لكنها تعود فتتساءل عن النتيجة الآن ..

فى منتصف النهار حدثنى الصمت المضروب حولى بأننى الوحيدة بالمصلحة فأفتح الراديو الترانسيستور وأسمع المعلق يعلن بصوت نىِّىء عن النتيجة فى يأس شديد « التعادل بدون أهداف ..... » .

القاهرة : نعمات البحيرى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأشياء

أحمد دمرداش حسين

المنظر :

حجرة معيشة مزدحمة بادوات كهربائية .. على يمين المنصة ثلاجة من طراز كبير الحجم ، بجوارها باب يُفضى إلى حجرة النوم .. على الأرض ، وبجوار الثلاجة يجلس الكسيح ، ويبدو شبه عار .. مكنسة كهربائية مرتكزة على الحائط بجوار الكسيح .. مراوح مدلاة من السقف .. جهاز تكييف .. طيور محنطة متناثرة بالحجرة .. على سطح المنصة ــ وفى المواجهة ــ مجموعة اسلاك متشابكة ، تنتهى اطرافها بفيشات متشابهة . فى اقصى اليسار باب يفضى إلى خارج الشقة ، يليه بمسافة انتريه يحيط بقطعة موبيليا تحمل جهازين فيديو ، وتلفزيون .. بجوار مقاعد الانتريه منضدة تحمل خلاطاً ، واخرى عليها تليفون ..

الزوج جالس فى مواجهة التلفزيون ، وعلى مسند المقعد ــ بالقرب من متناول يده ــ جهاز ريموت كنترول) .

الشخصيات :

الزوج ــ

الزوجة ــ

الكسيح ــ كسيح يجلس على الأرض ، ويتحرك معتمداً على راحتيه ..

مسؤول الصيانة ــ

الزوج : (بتأفف) تغيب الكلمات قبل أن يتمكن المرء من متابعة الحوار (يشيح براحته) « الدبلجة ، أفضل من هذا النوع السيىء من الترجمة .

(بضغط جهاز الريموت) .

الزوج : (مخاطباً الشاشة) أمازلت تفتش عن القاتل ؟ الكل يعرف أنه أنت .. لقد تمكن منك الفيديو منذ شهور .

(صوت خبطات مكتومة) .

الزوج : (دون أن يلتفت إلى مصدرها) إشارة ضعيفة ، لا تحدد أين أنت .. استخدمى لسانك إن كان الحيز لا يسمح لك بحركة أكثر .

(يشير الكسيح إلى الثلاجة) .

صوت مكتوم : بالداخل .. افتح .

الزوج : (ببرود) كلنا بالداخل .. المهم تحديد الشىء الذى احتوانا بداخله .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصوت : بالثلاجة .. افتح .

الزوج : أمتأكدة أنك بالثلاجة ؟ الطقس لم يكن حاراً بالدرجة التى تدفعك إليها !

الصوت : **(يبدو واهناً)** اختنق ! افتح !

(يتحرك بتثاقل ، ويفتح باب الثلاجة .. تخرج الزوجة والعرق يتصبب منها) .

الزوجة : **(مشيرة إلى باب الثلاجة)** خيل إلى أنه الباب المفضى إلى الفراش (وراحتها تمر على جبهتها) الحرارة بالداخل لا تطاق !

الزوج : (متقدماً نحو جهاز الفيديو) بالثلاجة كنت ، وليس بالفرن !

الزوجة : **(ناظرة إلى أسفل الثلاجة)** المدفأة تعمل أسفلها !

الزوج : (وهو يضع فيلماً فى الفيديو) ضعى فيشة الثلاجة محل فيشة المدفأة .

(يدق جرس التليفون .. لا يلتفتان إليه .. يبدأ جهاز تسجيل المكالمات فى العمل .. تنحنى الزوجة ، وتلتقط مجموعة الأسلاك .. تتامل الفيشات الواحدة تلو الأخرى ، والتردد يكسو ملامحها .. تلقى بالأسلاك ، فتسقط بجوار الكسيح .. يتراجع الأخير معتمداً على راحتيه ، وهو يحدق فى الأسلاك بخوف .. تتحرك متجهة نحو الثلاجة ، ثم تنحنى ، وتتبع سلك الثلاجة ، حتى يقودها إلى الفيشة الخاصة بها من بين مجموعة الأسلاك .. تستقيم وتضع فيشة الثلاجة فى موصل التيار بدلاً من فيشة المدفأة .. تتقدم ژتجلس بجوار الزوج .. تمتد راحتها وتدير جهاز تسجيل المكالمات) .

جهاز التسجيل **(صوت نسائى)** ألو .. تصورى .. الكوافير عرض على جهاز يجفف الشعر ، وفى نفس الوقت يكسبه أى لون نريده ! ثمنه مناسب .. مناسب جداً .. حجزت لك جهازاً . فى انتظارك غداً لاستلامه . إنه .

(تفقل الجهاز) .

الزوج : (وهو يتابع الفيلم) صوتها يبدو مألوفاً .. من هى ؟

الزوجة : ليس مهماً من هى .. المهم فيما سمعت هو جهاز التلوين (وراحتها تمر على شعرها) يبدو لى رائعاً !

(فترة صمت ينهمكان خلالها فى متابعة الفيلم ، ويحاول الكسيح الوصول إلى مقبض الثلاجة ، ولكنه يفشل المرة بعد الأخرى) .

الزوجة : **(مشيرة إلى الشاشة)** لا تستحق ما يعانيه من أجلها .. شحوب وجهها يجعله مجرداً من الجاذبية .

الزوج : **(دون أن يلتفت إليها)** تمرد عينيها يضفى عليها جاذبية لا تقاوم .. لا شىء يستحوذ عليهما !

الزوجة : **(بنبرة ساخرة)** الهيروين لا يعطى الفرصة لشىء آخر كى يستحوذ عليهما .

الزوج : (ملتفتاً إليها) الأحداث لا تشير ، أو نمضى نحو الهيروين .

الزوجة : أقصد فى الحياة .

الزوج : إنك ؟

الزوجة : (بتشف) كنسيم البحر فى ليلة صيف .

(يضغط جهاز الريموت) .

الزوج : (للشاشة بسأم) أمازلت تفتش عن القاتل ؟ الكل يعرف أنه أنت .. لقد تمكن منك الفيديو منذ شهور (ملتفتاً إليها) فى أى شهر نحن ؟

الزوجة : .. .. ..

الزوج : (وراحتاه تمران على كتفيه) أشعر ببرد يحيط بى .

الزوجة : (دون أن تلتفت إليه) ضع فيشة المدفأة محل فيشة الثلاجة .

(ينهض بتثاقل ، ويلتقط فيشة من حزمة الأسلاك ، ثم يضعها فى موصل التيار بدلاً من فيشة الثلاجة .. ينطلق صوت أزيز عال) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الزوجة : دوماً تخلط بينها وبين فيشة الخلاط ! .. أدر التكييف .

الزوج : عظامى لا تحتمله .

الزوجة : اقراص الروماتيزم لها الآن مذاق الكاكاو ..

(يرفع فيشة الخلاط ، ثم يقترب منها .. تمر راحته على شعرها) .

الزوج : حاجتى إلى الدفء تدفعنى إلى الاقتراب منك .

الزوجة : (ببرود) ارفع يدك ، وانتظر .

(تبرز من جيب الروب مفكرة صغيرة .. تقلب صفحاتها ، حتى تستقر على صفحة معينة) .

الزوجة : (وسبابتها تمر على الصفحة) الوقت المناسب لاقترابك .. يلزمه .. ثلاثة أيام أخرى .

الزوج : (وهو يسحب راحته) إذن .. ذكرينى عندما يحصل الوقت المناسب على ما يلزمه !

(يخرج من جيب الروب زجاجة اقراص .. يفرغ عدة اقراص فى راحته .. يدفع بالاقراص إلى فمه ، فيسقط منها قرص على الأرض .. يتحرك الكسيح ، نحو القرص ، ثم يضعه فى فمه .. يعلو وجهه تعبير امتعاض ، ثم يلفظ القرص .. يتحرك الزوج نحو الثلاجة ، ويضع راحته على مقبضها) .

الزوجة : (دون أن تلتفت إليه) إنه باب الثلاجة .

الزوج : (وراحته تتراجع) خيل إلى أنه الباب المفضى إلى الفراش .

(يتحرك متجهاً نحو الباب المجاور للثلاجة ، ثم يدلف إلى الداخل .. تضغط الزوجة جهاز الريموت وتنهمك فى متابعة الفيلم .. تنهض وتتجه إلى الثلاجة .. تتناول منها علبة مياه غازية .. تعود إلى المقعد .. يزحف الكسيح مقترباً منها .. يتوقف بجوارها ، ويتأمل علبة المشروب فى نهم .. تلقى بالعلبة الفارغة ، فتسقط بين فخذى الكسيح .. يتناولها الأخير ، ويرفعها إلى فمه برهة ، ثم يشرع فى لعق حافتها الخارجية .. يتحرك بالعلبة نحو المكنسة .. يضع العلبة على الأرض ، ثم يوجه خرطوم المكنسة نحوها .. يظل على هذا الوضع برهة ، ثم يتناول العلبة فى يأس ويضعها أسفل المكنسة .. صوت جرس موسيقى .. تشرع الزوجة فى النهوض بتثاقل .. ينفتح الباب من تلقاء نفسه ، ويندفع داخلاً مسؤول الصيانة .. بيده حقيبة ، وعلى كتفه حلقة من سلك كهربى) .

مسؤول الصيانة: لا تتحركى .. نظرتك يجب أن تظل معلقة بالجهاز .

الزوجة : (وهى تعود بتراخ إلى المقعد) من أنت ؟

مسؤول الصيانة: مسؤول الصيانة .

الزوجة : (ملتفتة إليه) لا اذكر أنى اتصلت بكم .

مسؤول الصيانة: (مشيراً إلى الشاشة) تكلمى وانت تتابعين الجهاز .

الزوجة : (وراسها يتحرك نحو الشاشة) لا أعطال لدينا ..

مسؤول الصيانة: الصيانة الدورية تطيل عمر الجهاز ومالكه ..

الزوجة : (ملتفتة إليه) ومالكه ؟

مسؤول الصيانة: (بنبرة آمرة) ركزى نظرتك على الجهاز ، وتكلمى (تلتفت إلى الشاشة .. بنعومة وهو يشرع فى فتح الحقيبة) لكى تحقق الصيانة تأثيرها .. لابد أن تصل درجة التوحد بين الجهاز ومالكه إلى ذروتها .

(يخرج من الحقيبة جهازاً يشبه جهاز قياس تردد التيار ، تتصل به سماعة تشبه سماعة الطبيب .. يقترب منها ، والجهاز فى يده . تتراجع بظهرها فى خوف) .

الزوجة : (بوجل) أى شىء هذا ماذا ستفعل ؟

مسؤول الصيانة: (بغضب) إن كنت لا تستطيعين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السيطرة على لسانك .. فدعيه يتكلم وأنت ناظرة إلى الجهاز !

الزوجة : لا .. سأظل ناظرة إليك ، حتى أعرف ماذا ستفعل .

مسؤول الصيانة : (**بوعيد**) إذن .

(تسحب راحته شيئاً غير مرئىٍّ من الهواء .. إظلام .. برهة صمت) .

الزوجة : (**فى حشرجة**) أنفاسى .. اختنق .. أعد التيار إلى رئتى .

مسؤول الصيانة : من الآن ، وحتى أنتهى لن تبرح نظرتك الجهاز ؟

الزوجة : (**بصوت مختنق**) سأ .. فعل ..

(تسترد المنصة إضاءتها .. تجفف ما على جبهتها من عرق ، وهى محدقة فى الشاشة .. يدنو منها والجهاز فى يده) .

مسؤول الصيانة : (وهو يضع طرف الجهاز خلف أذنيها) دعى ما تشاهدينه يذيبك تماماً .

الزوجة : (**دون أن تلتفت**) شىء ما يضغط خلف أذنى .

مسؤول الصيانة : إنها وسيلة نقيس بها درجة التوحد بينك وبين الجهاز .

(**يجلس بجوارها .. يشرع فى مراقبة مؤشر الجهاز**) .

مسؤول الصيانة : درجة التوحد فى أدنى معدل لها ! .. شىء فى أعماقك يقاوم .

الزوجة : (**مشيرة إلى الشاشة**) إنها مدمنة .. سلوكها فى الحياة لا يبرح مخيلتى .

مسؤول الصيانة : وتمردها على القيود المحيطة بها ؟

الزوجة : يبدو زائفاً .

مسؤول الصيانة : (**بابتسامة**) إذن دعك من التمرد ، وركزى على ثيابها .

الزوجة : أحدث خطوط الموضة تنساب على جسدها !

مسؤول الصيانة : وسيارتها ؟

الزوجة : (**بنعومة**) تشبه ما أراه كثيراً فى أحلامى .

مسؤول الصيانة : (**ناظراً إلى الجهاز**) درجة التوحد الآن لا بأس بها (**ملتفتاً إليها**) اضغطى الريموت ، لنرى ما يعرضه الجهاز الآخر .

(**وهى محدقة فى الشاشة ، تتحرك أصابعها بحثاً عن الريموت .. تصطدم أصابعها به ، فيسقط على الأرض**) .

مسؤول الصيانة : لا تتحركى .. دقائق ونتغلب على هذه الصعوبة .

(**يخرج من الحقيبة زراً معدنياً لامعاً ، ويقوم بتثبيته على كتفها**) .

مسؤول الصيانة : بمسه ننتقل من قناة إلى قناة ، ومن جهاز إلى آخر .

(**تمس الزر بأناملها .. يبدأ التلفزيون فى العمل**) .

مسؤول الصيانة : (**وهو يلتقط الريموت**) وسيلة بدائية !

(يضع جهاز الريموت فى الحقيبة ، ثم يخرج منها عدة « كتالوجات ») .

مسؤول الصيانة : (**مقدماً لها كتالوجاً**) به أحدث مبتكراتنا من الأجهزة .

(تتناول الكتالوج ، وتشرع فى تصفحه .. يتقدم مسؤول الصيانة نحو الكسيح ، ويقدم له كتالوجاً .. يرفعه الأخير إلى فمه . يتذوقه بأسنانه ، ثم يلقى به جانباً فى امتعاض) .

مسؤول الصيانة : (وراحتاه على كتفيها) أمازال يشعر بالحاجة إلى الدفء ؟

الزوجة : أحياناً .

مسؤول الصيانة : أين هو ؟

الزوجة : (مشيرة إلى حجرة النوم) بالداخل .

(**يتحرك مسؤول الصيانة نحو حجرة النوم .. يتوقف ويلتفت إليها**) .

مسؤول الصيانة : أتشعرين بشوق إلى شىء من الطبيعة ؟

الزوجة : (**بخفوت**) لا بأس .

(يفتح مسؤول الصيانة الحقيبة ، ويخرج منها جهازاً صغيراً .. يتحرك بالجهاز ، ويضعه أسفل بلبل محنط ، ثم يضغط على زر فيه .. يصدر من الجهاز صوت بلبل .. يتحرك مسؤول الصيانة نحو حجرة النوم ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم يدلف إلى الداخل .. يتعالى صوت البلبل شيئاً فشيئاً .. يحدث عطل فى الجهاز ، فيصدر نغمة واحدة فى إيقاع متقطع .. يسد الكسيح أذنيه بأصبعيه .. إظلام تدريجى .. ثم ستار) .

المشهد الثانى :

المنظر :

نفس المنظر ..

(الزوج والزوجة جالسان ـ أمام التلفزيون ـ على مقعدين متحركين) .

الزوجة : خطوط الموضة المنسابة على جسدها ، تجعلها تبدو رائعة !

الزوج : **(بسام)** آثار الهيروين تبدو جلية على وجهها .

الزوجة : **(ملتفتة إليه)** أيحجب هذا عن عينيك ما تريده ؟

الزوج : **(بمرارة ساخرة)** لم تفعل شيئاً يستحق هذا .. إنها مثلنا ، مع فارق طفيف .. الشىء الذى يحتويها يسرى بداخلها ، أما نحن فموزعون داخل أشياء كثيرة .

(تمر راحتاه على كتفيها) .

الزوجة : **(دون أن تنظر إليه)** اتشعر بالبرودة ؟

الزوج : **(وهو يحرك المقعد مقترباً)** بعض الشىء .

الزوجة : **(بإشارة توقف)** انتظر .

الزوج : **(متوقفاً)** ألم يحصل الوقت المناسب على ما يلزمه ؟

الزوجة : **(ببرود)** لا .. ولكن لا داعى لمشقة الاقتراب ..

(تتناول فيشة مثبتة فى مقعدها ، وتضعها فى موصل للتيار مثبت فى مقعد الزوج .. يقترب الكسيح ببطء ويشرع فى تاملهما) .

الزوجة : **(مشيرة إلى الشاشة)** ألا تشبه هذه السيارة ما تراه فى أحلامك ؟

الزوج : **(ساهماً)** راحتى تهفو إلى ملامسة شعرك ..

الزوجة : **(دون أن تنظر إليه)** لم ؟

الزوج : يشبه جدائل الجياد ، التى أراها كثيراً فى أحلامى .

الزوجة : **(بنعومة وهى تسترخى)** ألم يصل إليك الدفء بعد ؟

الزوج : **(وهو يقرب منها المقعد ببطء)** لمسات من شعرك تكفينى .. طبيعى .. يتموج كما تتموج جدائل الجياد السابحة فى مروج واسعة ..

الزوجة : **(بخفوت)** اقترب .. إن كان هذا يريحك ..

(يحرك المقعد مقترباً منها .. تمر راحته على شعرها برهة ، يشرع بعدها فى النهوض بصعوبة وكأن شيئاً ما يشده إلى المقعد .. ينفتح الباب ، ويدخل مسؤول الصيانة حاملاً صندوقاً .. فور أن يراه الكسيح ، يشرع فى جمع الطيور المحنطة ، ثم يضعها أسفل المكنسة) .

مسؤول الصيانة : **(رافعاً الصندوق إلى أعلا)** لم تأت لاستلامه ، فمشى إليك (يخرج من الصندوق جهازاً يشبه « السشوار ») جهاز التلوين .. أحدث مبتكرات المؤسسة التى لا تتوقف عن الإبداع ..

(يتقدم مسؤول الصيانة ، ويرفع راحة الزوج عن شعرها .. يعود الأخير إلى المقعد دفعة واحدة .. يتقدم مسؤول الصيانة نحو الزوجة ، ويضع جهاز التلوين على شعرها ، ثم يسحب من الهواء شيئاً غير مرئى .. إظلام) .

مسؤول الصيانة : أتشعرين بالاختناق ؟

الزوجة : **(بنعومة)** لا .. المقعد يسرى فى جسدى بما يحتاجه .

(تسترد المنصة إضاءتها .. يرفع مسؤول الصيانة جهاز التلوين ، فيبدو شعرها وقد تحول إلى لون ذهبى لامع) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مسؤول الصيانة : ياللروعة .. لقد تحول شعرك إلى تاج من ذهب !

(يحاول الكسيح الوصول إلى مقبض باب الخروج ، ولكنه يفشل المرة تلو الأخرى) .

الزوجة : (**متلفتة حولها**) مرآة .. مرآة ..

مسؤول الصيانة : (**مقدماً لها مرآة**) تأملى .. تأملى هالة الذهب التى اصبحت تحيط بوجهك !

(تنظر الزوجة إلى مرآة .. يتراجع مسؤول الصيانة ببطء ، حتى ينصرف .. يمد الزوج راحته نحو شعرها ، وهو يحاول النهوض .. تتراجع راحته بعد لمس شعرها ، بينما جسده يعود إلى المقعد شيئاً فشيئاً) .

الزوج (بخفوت) لقد سرى ملمس الأسلاك فى جدائل الجياد !

الزوجة (**محدقة فى المرآة**) ماذا قلت ؟

الزوج (**ساهماً**) لم يعد بداخلنا شىء ، يستحق أن نحرك الشفاه من أجله ..

(يقترب الكسيح من الزوج .. يجذب راحة الأخير ويضعها على رأسه ، ثم يشرع فى تحريكها على شعره .. يرفع الكسيح يده ، فتستمر راحة الزوج فى المرور بحنو على شعر الكسيح .. يتصلب الزوج برهة ، ثم يشرع فى النهوض شيئا فشيئا حتى يستقيم .. يتحرك الكسيح نحو النافذة ، ثم يشير إلى الزوج بالتقدم .. يتقدم الأخير نحو النافذة .. يتوقف أمامها برهة مترددا ، ثم يقوم بفتحها .. يصل إلى المكان صوت بلبل غريد .. يتعالى شيئاً فشيئا .. إظلام تدريجى .. ثم ستار) .

القاهرة : احمد دمرداش حسين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مناظر سامح البنانى
إضافة لموروثات فنية عائلية

د. محمد جلال محمد عبد الرازق

المتتبع لتاريخ الفن ولقصص حياة الفنانين الاجتماعية او العائلية كثيراً ما يواجه اسماء لأساتذة عظام ، استطاعت مفاهيمهم وخبراتهم الفنية ان تنتقل بقوة تاثيرها إلى بعض افراد الأسرة وبخاصة ابنائهم . وذلك يحدث بحكم المناخ الذى تكونه داخل المجتمع الأسرى (من ناحية) وبحكم الحساسية والرغبة فى الاستقبال (من ناحية أخرى) .

وليست عملية اكتساب الخبرة الإوحدة من عدة عوامل تشارك جميعها فى تكوين الشخصية الفنية الجديدة ، منها على سبيل المثال : التاثر باساتذة آخرين لهم مكانتهم فى المجال الفنى بوصفهم امثلة تحتذى ومنها التاثير بالمناخ الاجتماعي والثقافى العام والاتجاهات الفنية السائدة .. وغيرها .

ففى القرن الثالث عشر (مثلاً) يمكننا تلمس انتقال خبرة المثال (الشخصية الفنية الإيطالية) نيكولو بيزانو Niccolo Pisano (حوالى ١٢٢٥ ــ قبل عام ١٢٧٨) إلى ابنه وتلميذه المثال والمهندس المعمارى جيوفانى Giovanni (١٢٥٠ ــ ١٣١٤) .. الخبرة التى جعلت الابن مع رغبته فى التجديد من أعظم مثالى ايطاليا فى ذلك الوقت . ومثلما انتقلت أيضاً خبرات فنان آخر مثل أندريا بيزانو Andrea (١٢٩٠ ــ ١٣٤٨) فى النحت والصياغة والهندسة المعمارية إلى ابنه نينو Nino (١٣١٥ ــ) انتقلت خبرة المصور الهولندى الشهير بيتر بروجل Piter Brueghel (بين عامى ٢٥ / ١٥٣٠ ــ ١٥٦٩) الأب إلى أولاده بيتر (١٥٦٤ ــ ١٦٣٧) وجان (١٥٦٨ ــ ١٦٢٥) ، الذين رغم الاختلاف الواضح فى أفكار موضوعاتهم وطرق تناولها ، فالمتفحص لأعمالهم سيجدُ دَونَ شك تاثير الوالد . نفس الشىء الذى حدث مع عائلة بالينى Bellini ، إذ نجد الأبناء جينتيلا Gentile (حوالى ١٤٢٩ ــ ١٥٠٧) وجيوفانى

(١٤٣٥ — ١٥١٦) متأثرين بخبرة والدهم جاكوب Jacopo (١٤٠٠ — ١٤٧٠) . كما أنه يمكننا إرجاع الفضل فى إجادة فنان مثل البرخت دير لتقنيات الحفر على المعادن إلى خبرة والده الكبيرة فى الصياغة . نفس الفضل الذى يعود إلى الفنان الروسى افتيخيفتش زوبوف فى أواخر القرن السابع عشر بعدما أصبح أبناءه اليكسى (١٦٨٢ — ١٧٥٠) وايفان (١٦٧٧ — ١٧٤٣) من أبرز حفارى الربع الأول من القرن الثامن عشر هناك .. وغير ذلك من الأمثلة الخاصة باكتساب المهارات التقنية وباتباع نفس الأسلوب فى تناول الموضوعات .

ويمكن أن نعرض مثالاً لعائلة مصرية تضم بين أفرادها مجموعة فنانين .. نخص منهم هنا ثلاثة مصورين معروفين يمثلون ثلاثة أجيال متعاقبة ، استطاعوا أن يحافظوا على اتجاه فنى وأسلوب معروف وموضوعات بعينها .. رغم اتساع الفترة الزمنية وتغير الأحوال المعيشية والقضايا المحلية والدولية .

وتبدأ قصة هذه العائلة فى ضواحى القاهرة وقرب الريف — فى المطرية ، حيث كان يعيش الجد يوسف كامل (١٨٩١ — ١٩٧١) منهمكاً فى تلقين تلاميذ المدرسة الاعدادية وطلاب الفنون الرسم والتصوير ويبث فيهم عشق الفن المعبر عن البيئة المصرية والتذوق الجمالى . ويوسف كامل (صديق وزميل الكثيرين من مفكرى وفنانى مصر وعلمائها ، أمثال : المازنى والعقاد والزيات ورامى وعزيز المصرى وهدى هانم شعراوى) . تبدأ مراحل حياته الفنية بالتحاقه بمدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة وقت نشأتها (عام ١٩٠٨) والتى تخرج فيها متفوقاً (عام ١٩١١) ، ثم سفره مع رفيق رحلته المصور راغب عياد فى بعثة إلى إيطاليا ليلتحق هناك بأكاديمية الفنون بروما (كانت فى البداية على نفقتهما الخاصة — ويحكى فى هذا : أن كل منهما وبالتناوب كان يذهب إلى روما عاماً دراسياً بينما يقوم الآخر بإرسال نفقات الدراسة والإقامة إليه ، وهكذا .. ضاربين بذلك مثالاً فى الإصرار على التزود بالعلم وعلى الصداقة المتفانية وعلى الوحدة الأصيلة المتأصلة والكامنة داخل كل من الصديق المسلم والمسيحى — ثم تحولت بمساعدة سعد زغلول ولنفس الأسباب إلى بعثة حكومية) . وبعد تزوده بالمعرفة الفنية ودراسته لكثير من الفنون الأوربية يعود إلى وطنه (عام ١٩٢٩) ويتدرج فى وظائف فنية هامة ، مبتدئاً بتعيينه مدرساً بمدرسة الفنون الجميلة التى تخرج فيها ، ثم رئيساً لقسم التصوير الزيتى بها ، ثم مديراً لمتحف الفن الحديث بالقاهرة ثم عميداً ، ثم عضواً بالمجلس الأعلى للفنون والآداب .

وفى الوقت الذى كان فيه إنتاجه الفنى يقدم إلى متذوقى فنه ، ومعرفته بالفن تنقل إلى عشاق التصوير وطلابه زوج بناته الثلاثة إلى تلاميذه النابغين فكانت السيدة الجليلة عايدة — رحمها الله من نصيب الفنان حسنى محمد البنانى (مواليد ١٩١٢) والسيدة هدى زوجة للمثال جمال السجينى والسيدة سميحة الأستاذ الفنان الراحل وعميد كلية فنون جميلة الاسكندرية السابق كامل مصطفى .

وحسنى البنانى ، هذا الشاب تشابهت مسيرته الفنية بنفس مسيرة استاذه ووالد زوجته ، فقد تخرج فى نفس المدرسة (بعد أن أصبحت تعرف باسم كلية الفنون الجميلة) ونال دبلوم التصوير من نفس الأكاديميه الرومانية (على حسابه الخاص — عام ١٩٣٩) ثم يدرس بنفس القسم ثم ينصب رئيساً له .

وخلال هذه الرحلة الفنية وما صاحبها من إبداعات خاصة فى فنون « الفريسك » (له أعمال ضخمة فى هذا المجال ، هى لوحات زينت محطة حلوان ومحطة بور سعيد وسنترال الأوبرا ومجمع المحاكم فى الجلاء ومنصة العرض العسكرى بمدينة نصر) .. خلال هذا كله يرزق بولده سامح (عام ١٩٤٥) ، الطفل الذى تشاء له الأقدار أن يسير فى شبابه على نفس الدرب الذى سار عليه كل من الجد والأب ، فهو أيضاً خريج فى نفس الكلية (عام ١٩٦٩) وفى نفس الأكاديمية الإيطالية (عام ١٩٧٨) وفى نفس القسم يعمل الآن أستاذاً مساعداً للتصوير الزيتى .

وبإصرار على مواصلة المسيرة الفنية العائلية وحفاظاً على الموروثات الموضوعية ينهج الفنان الإبن نفس الأسلوب فى التصوير ويؤكد انتماء أسرته فنياً إلى المدرسة التأثيرية فى موضوع رسالة ماجستير مقدم عام ١٩٧٥ عن جده « يوسف كامل امتدادا للمدرسة الانطباعية العالمية فى مصر » .

وممّا يلفت النظر فى أعمال هؤلاء المصورين التأثيريين الثلاثة بوجه عام وحدة النظر الفنية ، المتمثلة فى ، عدم مبالاتهم بما يحدث داخل المدينة الحديثة (حتى القاهرة التى يعيشون

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فيها) من صخب وحركة وعدم انفعالهم على مدى ثمانية وسبعين عاماً (منذ تخرج الجد) بأية حادثة أو قضية محلية كانت أم عالمية (رغم حدوث حربين عالميتين ومرور مصر بثورتين والعديد من الحروب ومئات المشاكل الاقتصادية) . وإنما توجهت انظارهم نحو البيئة المصرية الأصليه — البكر كما يقولون — والمتركزة فى خضرتها وفى الحياة داخل الأحياء الشعبية والقرى والنجوع ، فانحصرت تأملاتهم وتعبيراتهم فيما تعطيه عناصر مثل الشمس والظلال والشجر والبيوت اللبنية والخشبية والأزيره والأقفاص والدواجن والماشية وغيرها من قيمة جمالية .

كانت موضوعات لوحاتهم فى أغلب الأحيان مناظر الأماكن مثل : عزبة الصعايدة بالمطرية وعزبة النخل والقلج والمرج ومنطقة العجوزة القديمة وميت عقبة ومناطق مصر القديمة . وارتباطهم بالمنظر جعل حبهم شديداً فى اظهار تأثيرية الضوء — ضوء الشمس الساطعة

الساقط على الأجسام . ولقد جعل هذا الضوء القوى مسيطراً على تكوينات اللوحات ، فبدت هذه اللوحات وكأن معظمها قد رسم فى الظهيرة (عندما تكون الظلال اسفل الشخصيات والأشياء) يبدو شديد الوضوح فى لوحات الأب .

وهكذا أسهمت الأسرة فى المحافظة على شكل من الأشكال الفنية المعبرة عن الحياة المصرية فى بساطتها ، واجتمعت فى فنانيها وفى أعمالهم أشياء كثيرة متشابهة .

لكن ليس معنى ذلك فقدان أبنائها للشخصية المستقلة . فالرغبة فى التجديد صفة هامة ، ويستطيع المحلل لمجموعة أعمال الجد يوسف والأب حسنى ومقارنتها بأعمال الابن سامح أن يتلمس مع أوجه الاختلاف رغبة الأخير فى التجديد والإضافة : فعلى سبيل المثال : لمسات الفرشاة السريعة والدقيقة .. أو البقعات اللونية فى لوحات الأستاذين الكبيرين يقابلها عند سامح لمسات من نوع آخر .. تزداد فى حريتها ، فهى ليست بقعاً وإنما هى شبيهة بخطوط تجمعت ليس تعبيراً عن تفصيلات بل عن مساحات لونية مضاءة .

وإذا كانت لوحات الاستاذين تعبيراً صادقاً عن الطبيعة ويمكن الاحساس من خلال لمساتها القوية بتندية الأوراق وبضبابية الفراغات وبحركات سحب السماء واتجاهاتها .

فإن لوحات الإبن تختلف .. فألوانها زاهية بعيدة عن واقع المنظر الطبيعى نفسه — إذ نجد فى أحد لوحاته الشخصيات تقف أو تتحرك على أرضيات حمراء وفى أخرى زرقاء .

وإذا كان التجسيد التأثيرى (إظهار الفورم) من صفات أعمال الأستاذين فإن الاكتفاء بالخطوط الخارجية للأشكال والتسطيح والتكتيل فى معظم لوحات سامح تعتبر صفة هامة .

وإذا كان الجد قد ركز فى تكوينات مناظره على أركان معينة تعبر عما يحدث فى الظلال مثلما فى لوحات : « الأصدقاء » التى نفذها فى الأربعينات وفى « الحوش » (١٩٣٢) وفى لوحة « الفلاحة » (فى الثلاثينات) ، حينما أراد الهروب بشخصياته من حرّ الشمس . وإذا كان الأب قد جعل شخصياته فى المساحات الكبيره — فى المناطق النائية أو فى الأسواق — تتحرك بحرية دون الخوف عليها ، فإن سامح البنانى فى مجموعته الأخيرة قد اغلق تكويناته تقريباً وجعل ضوء الشمس يسقط على الشخصيات والأشياء والحيوانات من خلال فتحات اختارها بين الأشجار أو بين الشخصيات أو متخللة مظلات الأسواق الشعبية .

ويبقى شىء أخير متعلق بالأسلوب الفنى الذى استخدمه سامح فى مجموعته هذه المنفذة بالباستيل أو بالألوان الزيتية . هذه المساحات اللونية بعد كشطها بخطوط أو بحزوزات اللوحات ذات غنى تأثيرى جميل ، وفى نفس الوقت جعلت الأشخاص فى حركاتهم أشبه بالمقيدين أو بالملفوفين فى ملاءات أعطتنا إحساساً بالبرودة . رغم أشعة الشمس المتسللة ولعلّ إغلاق اللوحات وتقييد الأشخاص قد جعل أعماله لوحات تعبيرية جديرة للدراسة . وبذلك يمكننا القول بأن مناظر سامح حسنى البنانى إضافة لموروثات فنية عائلية وضع لبناتها الأولى فنان وأستاذ قدير .

القاهرة : د. محمد جلال محمد عبد الرازق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مناظر سامح البنانى
إضافة لموروثات فنية عائلية

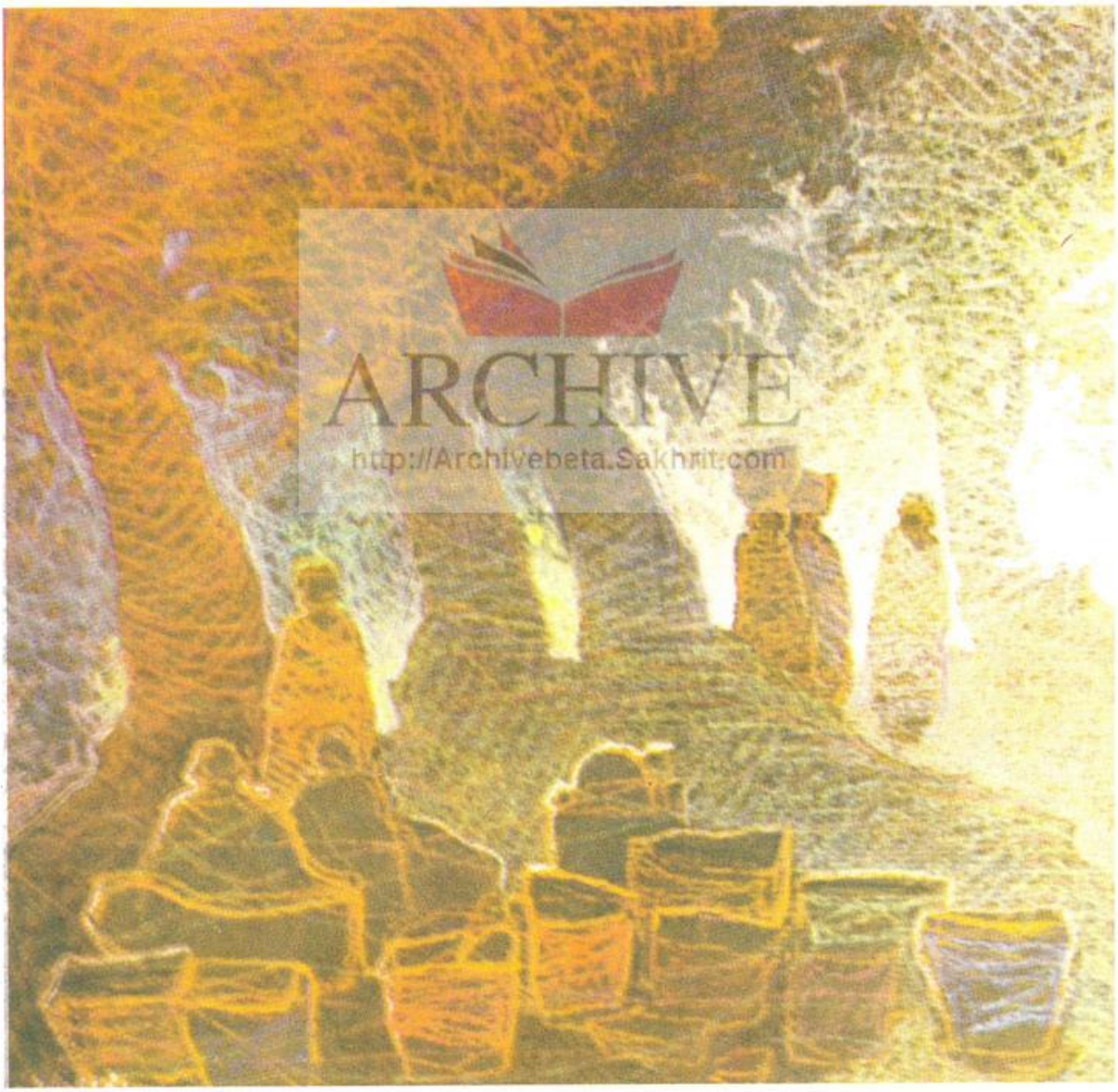
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منظر / ٤٥ × ٤٥ سم / ألوان باستيل / ١٩٨٧

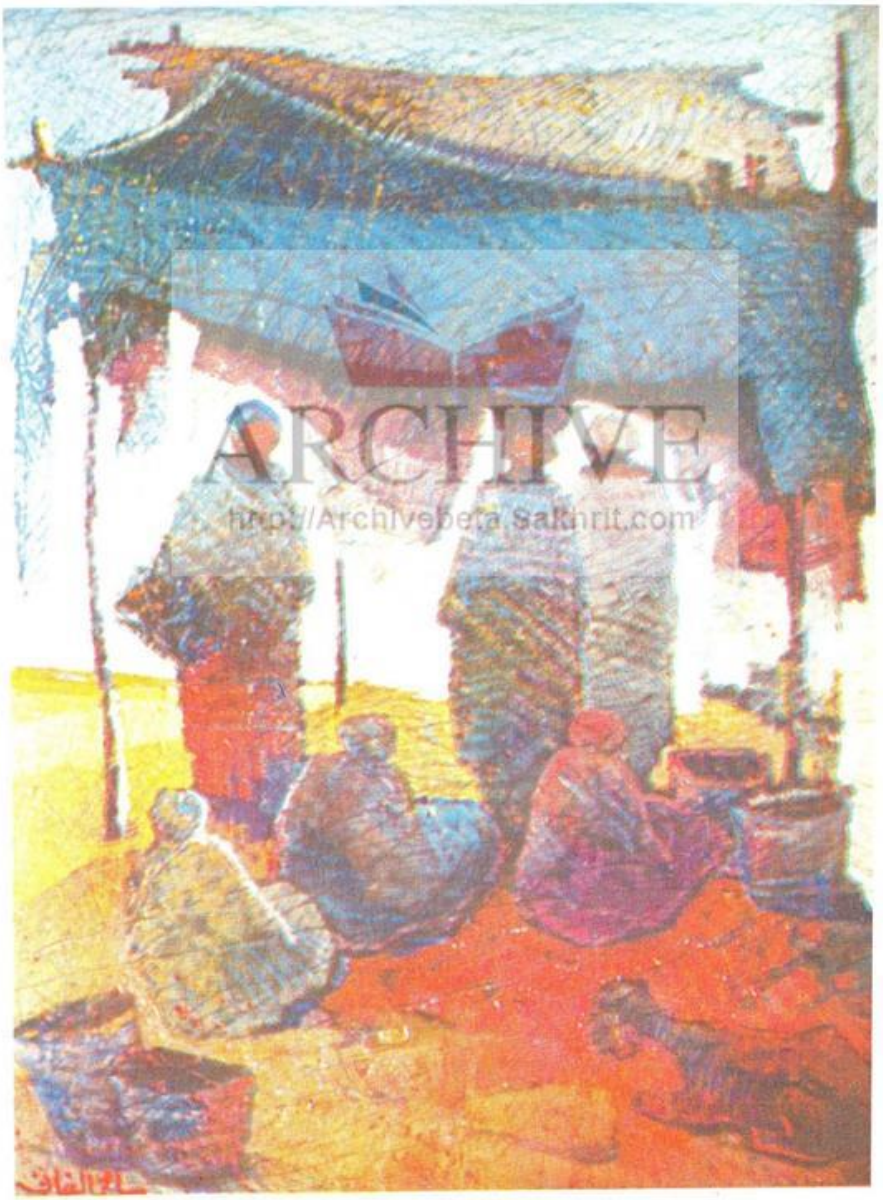
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعريشه في السوق / الوان زيتية / ٤٠ × ٦٠ سم / ١٩٨٧

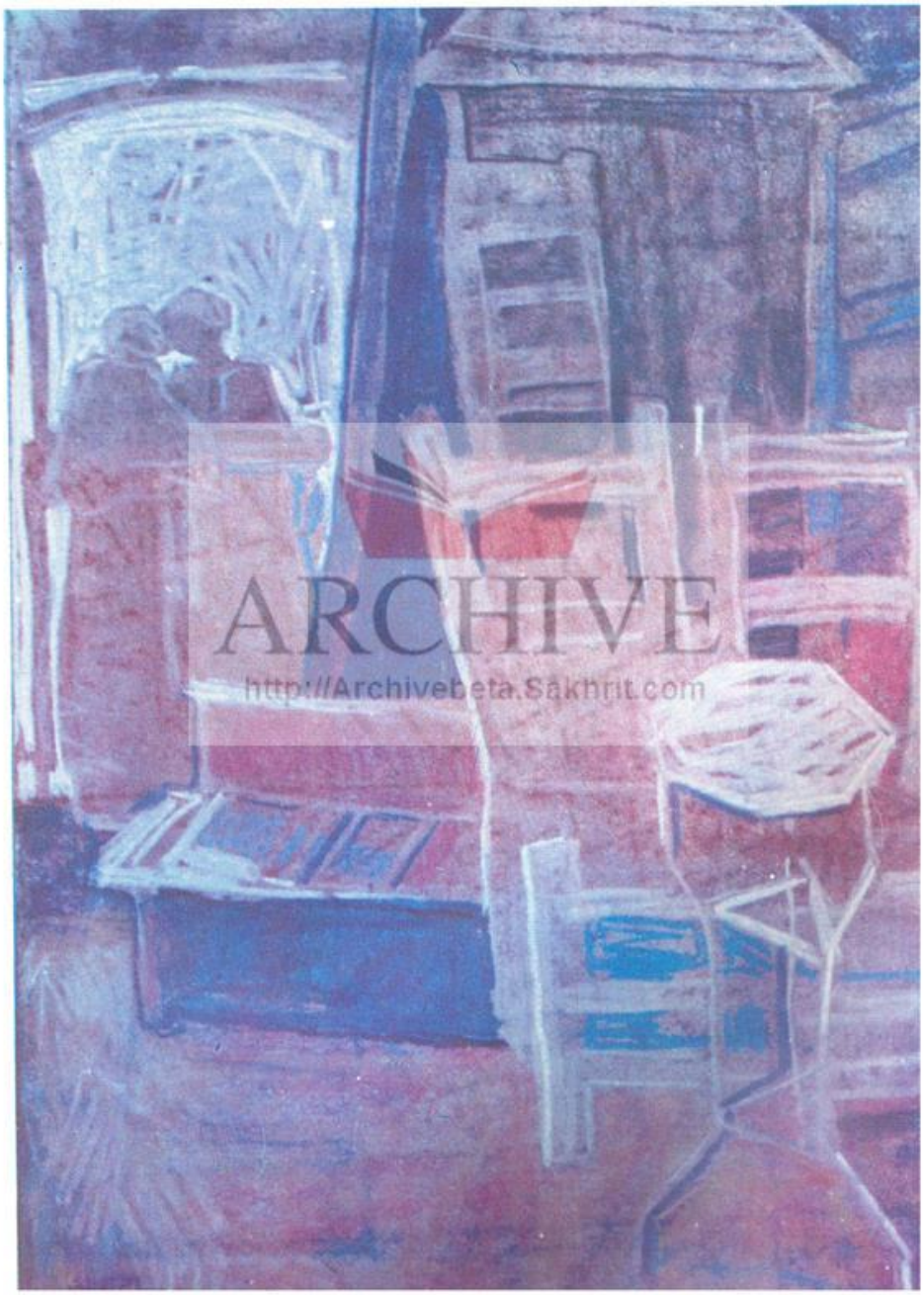
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قهوة بلدى / الوان باستيل / ٤٠ × ٦٠ سم / ١٩٨٢

منظر / الوان باستيل / ٤٥ × ٤٥ / ١٩٨٧

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

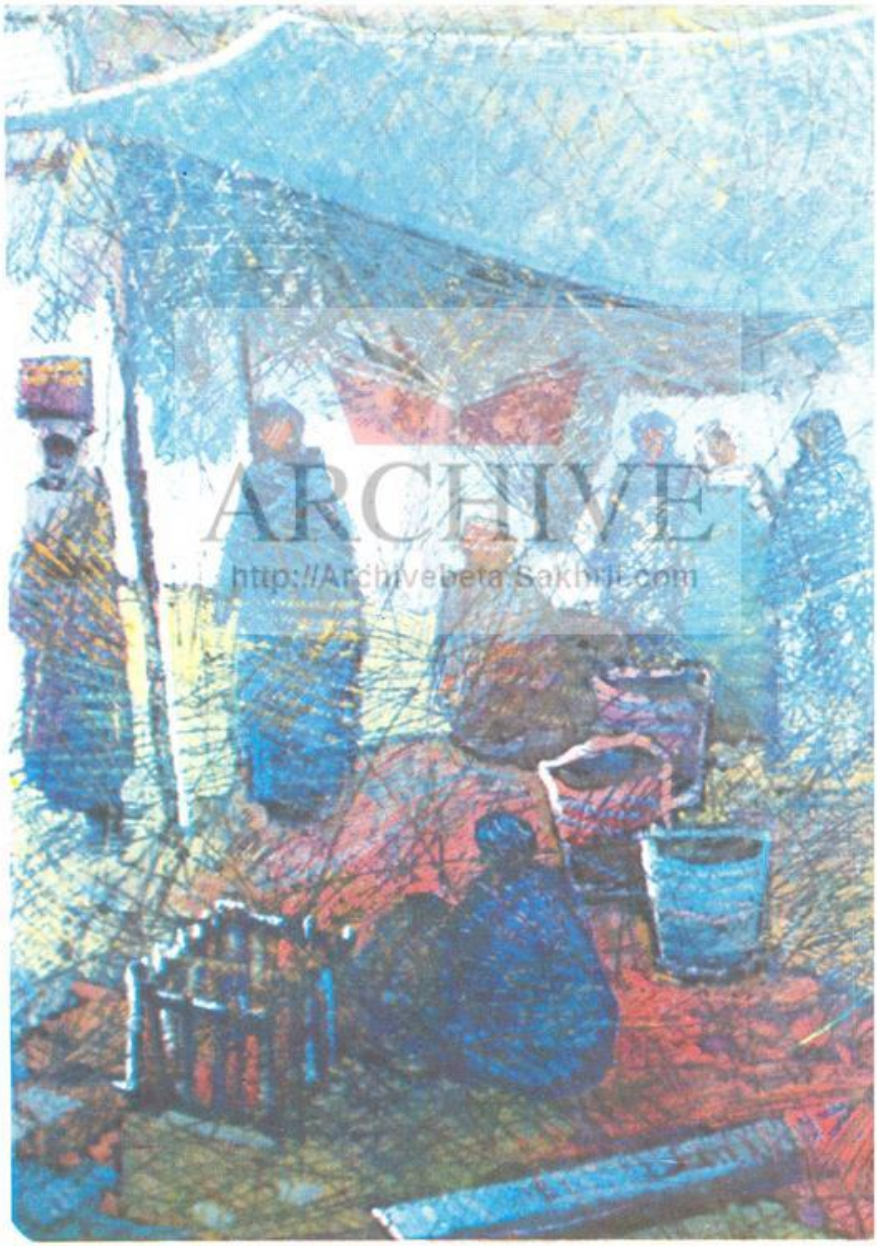
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعريشه (٢) فى السوق ٤٠ × ٦٠ سم/١٩٨٧

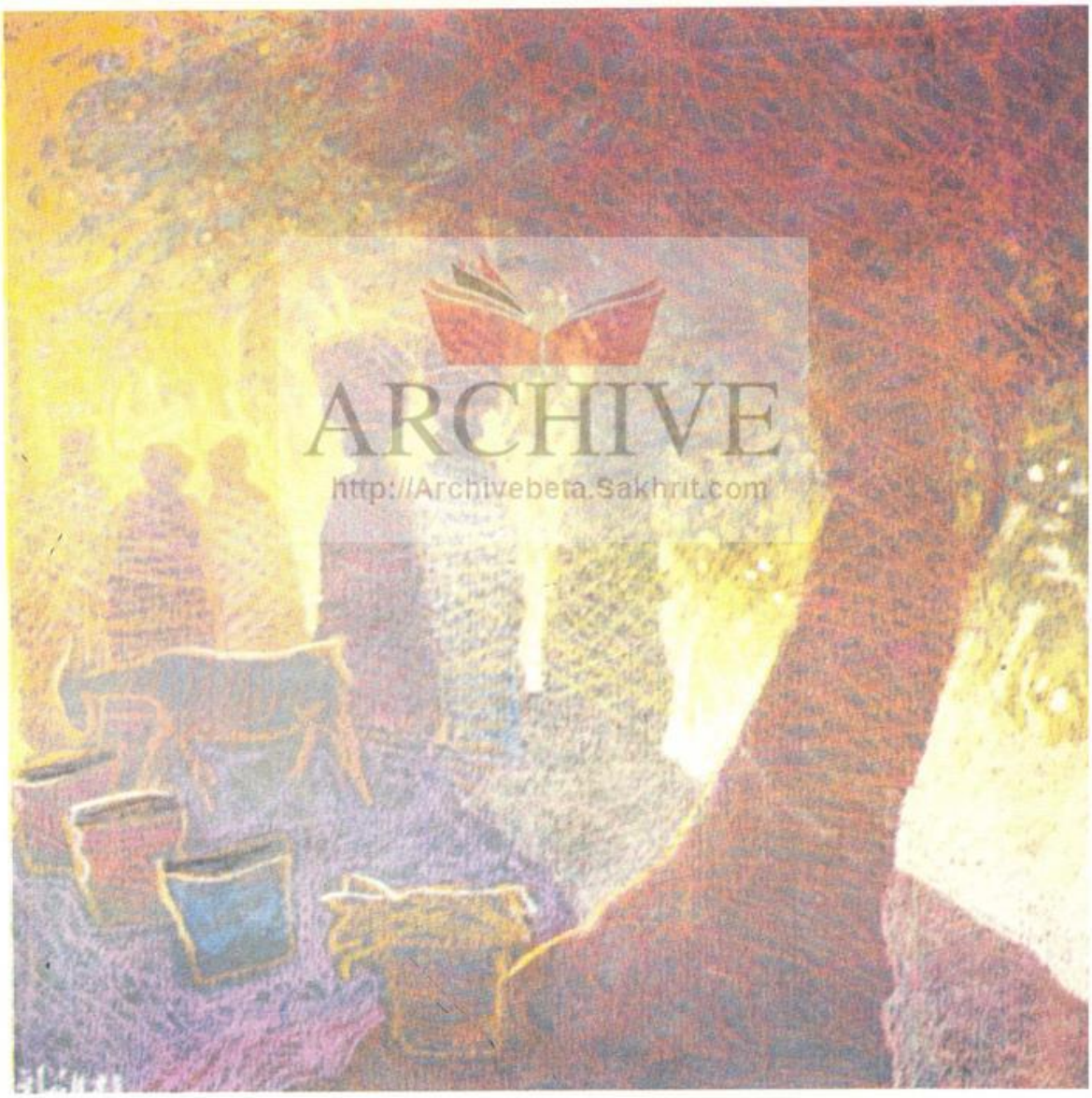
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منظر / ألوان باستيل / ٤٥ × ٤٥ سم / ١٩٨٧

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منظر/باستيل/٤٥ × ٤٥ سم/١٩٨٧

صورتا الغلاف للفنان سامح البنانى

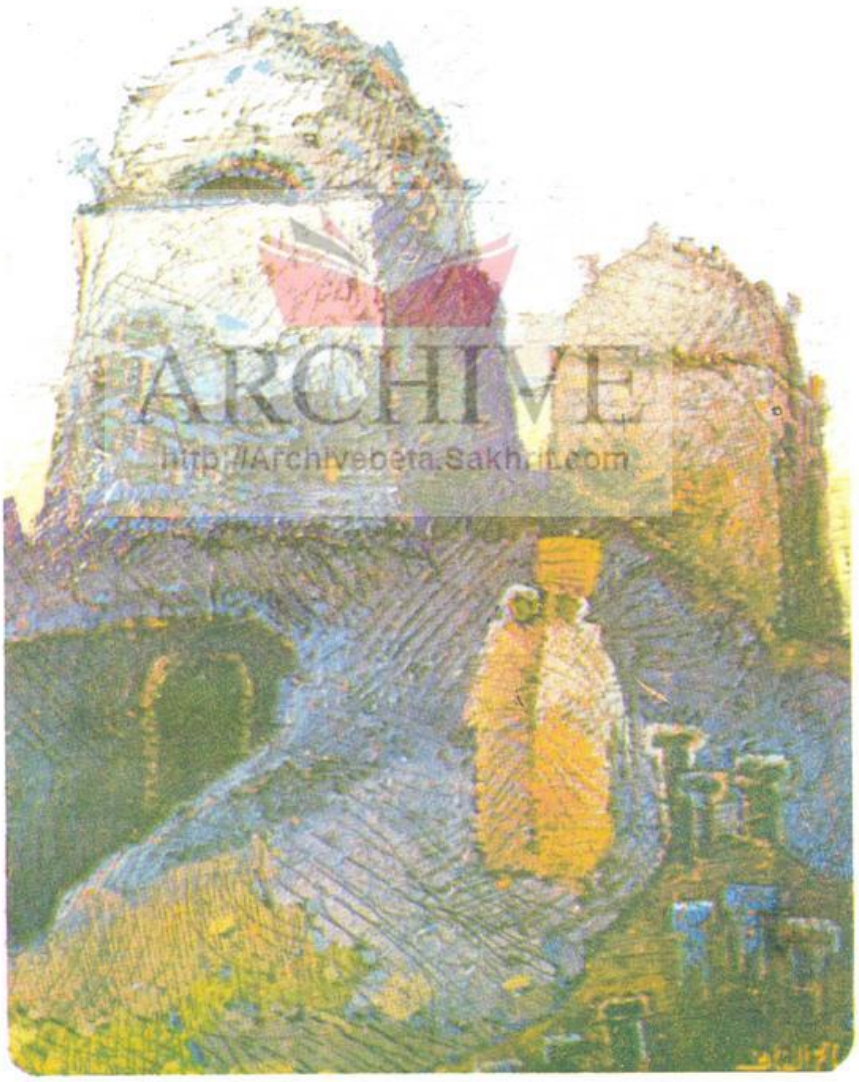

قمائم الفخار / الوان زيتية ٤٠ × ٦٠ سم / ١٩٨٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٦١٤٥ - ١٩٨٩

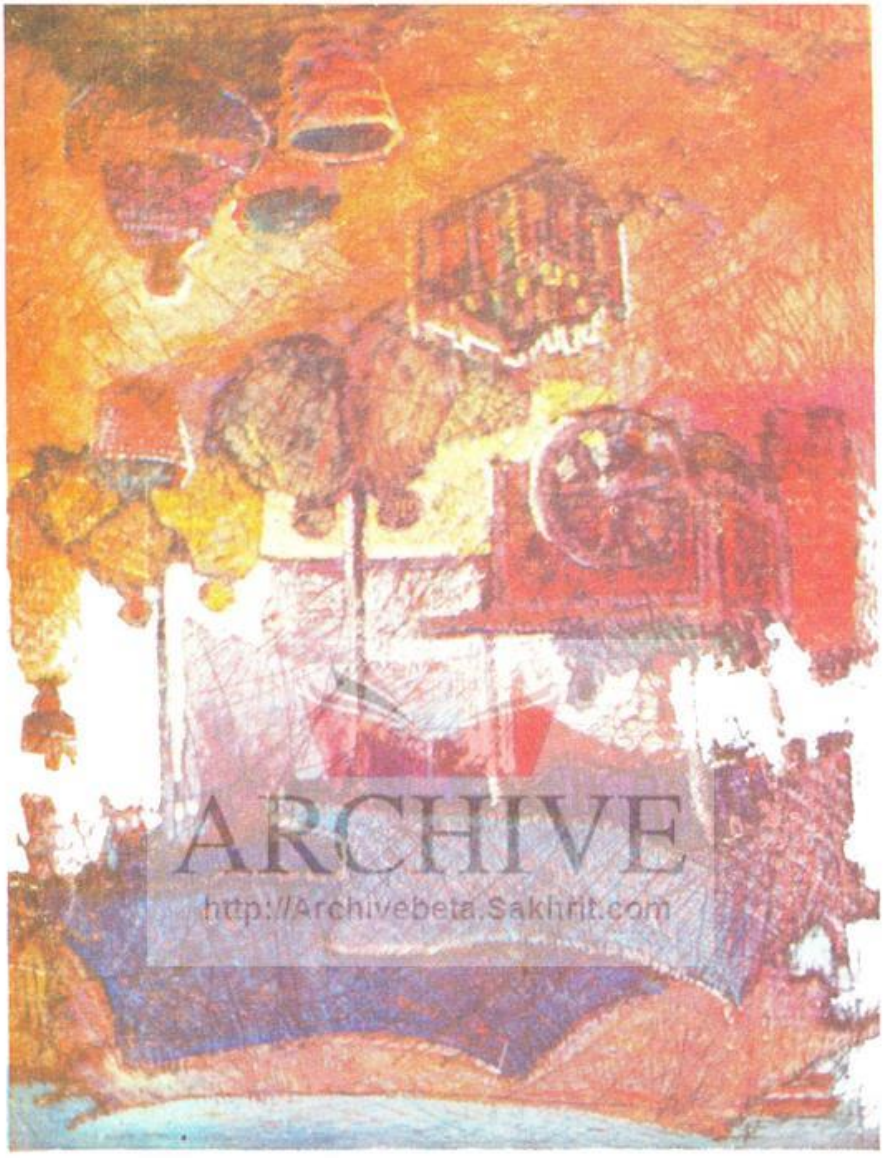
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com